دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد السادس

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

الموسوعة القرآنية
خصائص السُّوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد السادس

إعداد

جعفر شرف الدّين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم

د. محمد توفيق أبو علي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٦٠٢٠٢٩ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprints@netgate.com.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

سورة الحَجّ

٢٢

أهداف سورة «الحج»(*)

سورة الحج سورة مدنية، نزلت بعد سورة النور.

وقيل إن سورة الحج من السور المكية، وقد استثنى من ذهب إلى هذا الرأي الآيات [١٩ ـ ٢٤].

وكان الأَوْلَى أن يَسْتثني من قال إنها مكية آياتِ الإذن بالقتال من ٣٨ إلى ٤١، ومنها قوله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

* * *

وعند التأمل في سورة الحج، نجد أن أسلوبها وموضوعاتها وطريقتها أقرب إلى السُوَر المكية.

فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة، وإثبات البعث وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون، بارزة في السورة.

ويمكن أن يقال إن هذه السورة مشتركة بين مكة والمدينة كما يبدو من دلالة آياتها، وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال، وآيات العقاب بالمثل في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾. (٦٠)

فهذه الآيات مَدَنِيّة لأن المسلمين لم يُؤْذَن لهم في القتال والقِصاص إلا بعد الهجرة، وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة. أما قبل ذلك، فقد قال رسول الله (ص) حين بايعه أهل يثرب،

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وعَرَضوا عليه أن يَميلوا على أهل مِنَى من الكفار فيقتلوهم: «إني لم أومَرْ بهذا». حتى إذا صارت المدينة دار إسلام، شَرَّع الله القتال لِرَدّ أذى المشركين عن المسلمين، والدفاع عن حرية العقيدة، وحرية العبادة للمؤمنين.

ومن الموضوعات المدنية في سورة الحج: حمايةُ الشعائر، والوعدُ بنصر الله لمن يقع عليه البغي، وهو يردّ العدوان، والأمرُ بالجهاد في سبيل الله.

وفي السورة موضوعات أخرى عولجت بطريقة القرآن المَكّي، وتَغْلِبُ عليها السِّماتُ المكية. وهذه السمات تجعل سورة الحج مما يشبه المكّيّ وهو مدني.

سمات القوة

تتضح في سورة الحج سماتُ القوة والعُنْف، وأساليبُ الرهبة والتحذير، واستجاشةُ مشاعر التقوى والوجل والخوف من بأس الله.

وتبدو هذه المعاني في المشاهد والأمثال.

فمشهد البعث مُزَلْزِل عنيف رهيب، تَذْهَل فيه الأم عن وليدها وهو بين يديها، وكذلك مشهد العذاب:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

ومشهد القرى المُدَمَّرة بظلمها:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف، وتبرير الدفع بالقوة، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين؛ إلى عرض الحديث عن قوة الله وضَعْف الشركاء المزعومين.

* * *

ووراء ذلك كلِّه الدعوةُ إلى التقوى والوجل، واستجاشة مشاهد الرهبة والامتثال لأمر الله، تبدأ بها السورة وتتناثر في ثناياها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ

ٱلْمُخْبِتِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآيات ٣٤ ـ ٣٥].

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الآية ٣٧].

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون، ومشاهدِ القيامة، ومصارع الغابرين والأمثلة والعِبَر، والصور والتأملات، لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام. هذا هو الروح الساري في جو السورة كلها، والذي يطبعها ويميزها.

أقسام السورة وأفكارها

تشتمل سورة الحج على أربع مجموعات، أو أقسام رئيسية، يَجْرِي السياق فيها كالآتي:

القسم الأول:

يبدأ القسم الأول بالنداء العام: نداءِ الناس جميعاً إلى تقوى الله، وتخويفِهم من زَلْزَلة الساعة، ووصف الهول المصاحب لها، وهو هول عنيف مرهوب. في ظل هذا الهول باستنكار الجدل في الله بغير علم، واتِّباع كل شيطان محتوم على من يَتْبعه الضلال، ثم يعرض دلائل البعث من أطوارٍ في حياة الإنسان وحياة النبات، مسجلا تلك القربى بين أبناء الحياة، ويربط بين تلك الأطوار المطْرِدة الثابتة، وبَيْنَ كَوْنِ الله هو الحق، وأنه يُحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأن الله يبعث من في القبور. وكلها سُنَنٌ مُطْرِدة، وحقائقُ ثابتة متصلة بناموس الوجود. ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله بغير علم، ولا هُدًى ولا كتابٍ منير.

بعد هذه الدلائل المستقرة في صُلْب الكون وفي نظام الوجود، إلى استنكار بناء العقيدة على حساب الربح والخسارة، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضَّرَّاء، والالتجاء إلى غير جماه، واليأس من نصرة الله وعقباه... وينتهي هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب. وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين.

ويمتد هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٤.

القسم الثاني:

يبدأ القسم الثاني بالحديث عن الذين كفروا ويَصُدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام، ويستنكر هذا الصَّدَّ عن المسجد الحرام الذي جعله الله للناس جميعاً، يستوي في ذلك المقيمون به والطارئون عليه. وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت، وتكليف إبراهيم (ع) أن يقيمه على التوحيد، وأن يُطَهِّره من رِجْس الشرك، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب، وهو الهدف المقصود، وينتهي هذا القسم بالإذن للمؤمنين في القتال، لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا: ربُّنا الله. ويستغرق هذا القسم الآيات: [٢٥ ـ ٤١].

القسم الثالث:

يبدأ القسم الثالث بعرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين. وذلك لبيان سنة الله في الدَّعَوَات، وتسلية الرسول (ص) عما يلقاه من صدٍّ وإعراض، وتطمين المسلمين بالعاقبة التي لا بد من أن تكون، كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيين في دعوتهم، وتثبيت الله لدعوته، وإحكامه لآياته، حتى يستيقن بها المؤمنون، ويُفْتَن بها الضِّعافُ والمستكبرون؛ ويستغرقُ هذا القسم الآيات: [٤٢ ـ ٥٩].

القسم الرابع:

يتضمن القسم الرابع وَعْدَ الله بنصرةِ مَنْ وَقَعَ عليه البَغْيُ فقام يدفع عن نفسه العدوان، وَيُتْبِعُ هذا الوعدَ بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون، وإلى جوارها يَعْرِض صورةً زَرِية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون، وينتهي هذا القسم وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم، ويجاهدوا في الله حق جهاده، ويعتصموا بالله وحده، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل (ع)، ويستغرق هذا القسم الآيات: [٦٠ ـ ٧٨].

ومن هذا العرض نَجِدُ تَعَاقُب موضوعات السورة وتناسقها في حَلَقات متساوية، تُسْلِم كل حلقة للتي تليها،

ليكون في مجموعها سورة كاملة هي سورة الحج.

حكمة التسمية

سُمِّيت هذه السورة بسورة الحج لأنها اشتملت على الدعوة إلى الحج على لسان إبراهيم الخليل (ع)، وفي الحج منافع دينية وعلمية وتجارية وسياحية.

قال تعالى:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

في الحج يتجمع المسلمون من كل بلد، للتعارف والتآلف والتشاور والتعاون، وبذلك يصبحون يداً واحدة وقوة متآلفة كالبنيان المرصوص يَشُدّ بعضُه بعضاً.

في الحج يشاهد الإنسان الأماكن المقدسة، التي شهدت ميلاد الإسلام، وولادة الرسول (ص) ورسالته وجهاده وهَدْيَهُ.

في الحج يتعرف المسلمون، من كل قطر، على إخوانهم، ويتدارسون شؤونهم ويعرفون آلامهم وآمالهم. وربما تعاقدوا على شراء ما يلزمهم أو على عَمَلٍ ما ينفعهم.

في الحج سياحة في أرض الله، وأداءً لمناسك مقدسة في موطن إبراهيم الخليل وهاجَرَ وإسماعيل، ورؤيةُ الكعبة المقدسة وزمزم والصفا والمروة ومِنًى وعرفات. وبعد الحج زيارة للمسجد النبوي وصلاة بالروضة ووقوف أمام قبر النبي (ص) وزيارته، وزيارةُ قبورِ الصحابة والشهداء، ورؤيةُ أمجادِ الإسلام ومواقع المعارك. وبذلك يستقر الايمان في القلب والشعور، ويصبح الحج عبادة ذات منافع متعددة، إذا فهم المسلمون حكمته ورسالته.

مقصود السورة اجمالاً

إذا أردنا التعرف على الأفكار المنثورة في سورة الحج وجدناها تدور حول الأمور الآتية:

الوصيةُ بالتقوى والطاعة، وبيان هول الساعة وزَلْزَلة القيامة، والدليل على إثبات الحشر والنشر، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق، وذمُّ أهل النفاق وعبادة الأوثان، ومدح المؤمنين وبيان رعاية الله لرسوله، ونَصْرُه رغم أنف

الكافرين، وسجود الكائنات لله، وقيام إبراهيم بالدعوة إلى الحج وبيان تعظيم الحرمات والشعائر، والمِنّةُ على العباد بدفع فساد أهل الفساد، وإهلاك القرى بسبب ظلم أهلها، وذِكْرُ نسيان رسول الله (ص)، وسهْوُه حالَ تلاوة القرآن، وتثبيت المؤمنين، وشقاق الكافرين حتى تفاجئهم الساعة، وبيان قدرة الله سبحانه، وعجز الأصنام وعُبّادها، واصطفاءُ الرسل من الملائكة كجبريل (ع)، ومن الإنس كمحمد (ص)، وتكليف المؤمنين أنواعاً من العبادة كالصلاة والجهاد والإحسان، وترغيبهم في الوحدة والجماعة والتمسك بحبل الله في قوله تعالى:

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الآية ٧٨].

ترابط الآيات في سورة «الحج»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الحجّ بعد سورة النُور، ونزلت سورة النور بعد سورة الحشر، وكان نزول سورة الحشر فيما بين صلح الحُدَيْبِيَة وغزوة تَبُوكَ: فيكون نزول سورة الحج في ذلك التاريخ أيضاً، وعلى هذا تكون من السور المدنية، وهو المشهور في تاريخ نزولها.

وقيل إن سورة الحج من السُوَر المكية، وقد استَثْنَى مَنْ ذَهَبَ إلى ذلك، الآيات [١٩ ـ ٢٤]، فذهب إلى أنها نزلت بالمدينة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لِمَا ورد فيها من الكلام على الحج، وتَبْلُغ آياتها ثمانِيَ وسبعين آية.

الغرض منها وترتيبها

غَرَضُ هذه السورة بيانُ أهوال يوم القيامة، والإذنُ في قتال من يؤذي المسلمين من المشركين وغيرهم، ولهذا ذُكرت بعد سورة الأنبياء، لأن في أواخر الأنبياء تهديداً للمشركين بالفزع الأكبر في القيامة، وبتسليط المسلمين عليهم في الدنيا، فجاءت هذه السورة بعدها، وفي أولها بيان ذلك الفزع الأكبر، وفي آخرها الإذن بقتال المشركين، ليكون به تسليط المسلمين عليهم في الدنيا.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

بيان أهوال يوم القيامة
الآيات [١ ـ ٢٤]

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾، فأمَرَ الناس بتقواه، وحَذَّرهم من أهوال الساعة التي يبلغ من شدتها أنْ تَذْهَل بها كل مرضعة عمّا أرضعت، وتَضَعَ كل ذات حَمْلٍ حَمْلَها، ويُرَى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكنّ عذاب الله شديد.

ثم ذكر سبحانه، أن من الناس من يجادل في دين الله تقليداً من غير علم، فينكرون تلك الأهوال، ويرتابون في بعثهم بعد موتهم، وَرَدَّ عليهم بأنه خلقهم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلقة، إلى غير هذا مما ذكره في سلسلة خَلْقِهم، ومن يقدر على هذا، يقدر على أن يبعثهم كما خلقهم، ولا يصح لهم معه أن يرتابوا في الساعة وأهوالها.

ثم ذكر، جلّ وعلا، أن من الناس من يجادل في ذلك عناداً وَكِبْراً، وهم رؤساء الذين أنكروه فيما سبق تقليداً، وأن منهم منافقين لا يجادلون في ذلك، ولكنهم لا يعتقدون في الثواب والعقاب، فيعبدون الله على حرف، أي على قلق واضطراب. فإن أصابوا خيراً دنيوياً من الغنائم ونحوها اطمأنوا به، وإن أصابهم شر أظهروا ما عندهم من النفاق، فيخسرون دنياهم وآخرتهم، ويدعون من دون الله ما لا يَضُرُّهم ولا ينفعهم؛ ثم ذكر سبحانه أنه يُدْخِل الذين آمنوا بذلك جنات تَجْري من تحتها الأنهار، وأنه يَنْصُرهم في الآخرة والدنيا. وإذا كان أعداؤهم يظنون أنه لا يَنْصُرهم فليفعلوا ما في وسعهم لمنع ذلك النصر، فإن كيدهم لا يُذهِبُ ما يَغِيظهم.

ثم انتقل السّياق إلى طريق آخر في إثبات ما ينكرونه من ذلك، فذكر اختلاف الناس في الدنيا إلى مؤمنين ويهود وصابئين ونصارى ومشركين، وأنه لابد من أن يفصل الله سبحانه، بينهم في ذلك الخلاف، لأنه لا يَخْفَى عليه شيء من أعمالهم، فيفصل بواسع علمه فصلاً عادلاً بينهم، ولأنه يَسْجُد له مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض، وكثيرٌ من الناس وكثير حَقَّ عليه العذاب، فلا بد من الفصل في هذا بينهم. ثم ذَكَرَ ما يحكم به على فريقي المؤمنين والكافرين من الذين اختلفوا

ذلك الاختلاف في دينهم، فالذين كفروا تُقَطَّعُ لهم ثياب من نار إلى غير هذا مما ذكره في عقابهم، والذين آمنوا يُدْخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار. . . ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

الإذن في القتال
الآيات [٢٥ ـ ٧٨]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، فمَهَّد للإذن في القتال بذكر ما يفعله المشركون من صدّ المسلمين عن المسجد الحرام، وقد جعله للناس سواء، فليس لهم أن يمنعوا أحداً منه، وهذا إلى أنهم يُلْحدون فيه بشِرْكهم، وقد أمر إبراهيم ببنائه ليُعْبَدَ الله فيه وَحْدَه، وليكون بيتاً طاهراً للطائفين والقائمين والمصلّين، ويَحُجّ الناس إليه من كل فجّ ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله، ويُطعموا البائس الفقير، إلى غير هذا مما ذكره من أمور الحج.

ثم ذكر جلّت قدرته، أنه لهذا يدافع عن المؤمنين ويأذن لهم أن يقاتلوا مَنْ ظَلَمهم وأخرجهم من ديارهم بغير حق، وأنه لو لم يَأذن لهم في القتال لتسلط المشركون عليهم، وهدَموا بيوت عبادته من المساجد وغيرها، ثم وعدهم بالنصر والتمكين في الأرض، ليقوموا فيها بما أتى به الإسلام من صلاة وغيرها مما فيه صلاحها.

ثم ذكر سبحانه، أنهم إنْ يُكَذِّبوا الرسول (ص) فيما وعده من النصر عليهم، فقد كَذَّبَ قبلهم قومُ نوح وغيرهم، فأملَ لهم ثم أخذهم فأهلك قراهم، وإنهم ليسيرون في الأرض فيَرَوْنها ولا يتّعظون بها، ولكنهم عُمْيُ القلوب فلا تؤثر فيهم تلك العظة؛ ثم ذكر أنهم يستعجلون الرسول (ص) بذلك العذاب على سبيل الاستهزاء، وأنه تعالى لن يُخْلِف وعده وإن أملى لهم، لأن اليوم عنده كألف سنة عندنا، وكثير من القرى قبلهم أَمْلَى لهم ثم أَخَذَهم فأهلكهم، ثم أمر الرسول (ص) أن ينذرهم بذلك العذاب فيعد الذين يؤمنون بأن لهم مغفرة ورزقاً كريماً، ويُوعِدُ الذين يسعون في إبطال آيات الله بأنهم أصحاب الجحيم.

ثم انتقل السياق من ذلك إلى الكلام

فيما لم يسلم منه نبي من الانبياء من تَمَنِّي التعجيل بالنصر على الأعداء، فذكر تعالى أن مثل هذا مما يلقيه الشيطان في أُمْنِيَّتِه، وأنه ينسخ ما يلقيه من هذا فلا يظهر أثره خارج القلب، ثم يُحْكِم آياته، وينزل سبحانه نصره في الوقت الذي قدَّره له؛ ثم ذكر أنه لا يُعَجِّل العذاب ليجعل ما يلقي الشيطان من طلب تعجيله أو تَمَنِّيه فتنةً لمرضى القلوب، فيمشوا وراء ما يلقي الشيطان. أما الذين أوتوا العلم، فيعلمون أنه الحق من ربهم، ولا يخرج بهم تَمَنِّيهِ إلى طلب تعجيله، ثم ذكر أن هؤلاء الكافرين لا يزالون في شك من ذلك حتى تأتيهم الساعة فجأة، أو يأتيهم عذابٌ في يوم حرب. وهنالك يحكم الله بينهم، فالذين آمنوا يُدْخِلُهم جناته، والذين كفروا لهم عذاب مُهِينٌ؛ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قُتِلوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله رزقاً حسناً، ولَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخلاً يَرْضَوْنه، ولَيَنْصُرَنَّهُمْ على من بَغَوْا عليهم وأخرجوهم من ديارهم، وهو العَفُوُّ الغفور، الذي يولجُ الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، إلى غير هذا مما ذكره في تأييد قدرته على تحقيق وَعْدِه لهم.

ثم انتقل السّياق من ذلك إلى تحريض الله سبحانه، لِرسولِهِ (ص) على الثبات في دعوته لِيَمْضيَ في قتال المشركين، ويقطع أطماعهم في عُدُولِهِ عنها، فذكر جلّ وعلا أن لكل أمة شريعة من الشرائع، فللمسلمين شريعتهم التي بُعِث بها، فلْيَثْبُتْ عليها ولا يمكِّن المشركين من أن يخدعوه عنها، وليُثابرْ على الدعوة اليها، فإن جادلوه فيها بعد وضوح أدلتها فَلْيُنْذِرْهُمْ بأن الله يعلم ما لا يعلمون، وسيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وهو الذي يعلم ما في السماء والأرض فلا يَخفَى عليه شيء من أعمالهم.

ثم انتقل السّياق من ذلك إلى بيان فساد طريقة المشركين بعد بيان استقامة الدعوة إلى الله، فذكر تعالى أنهم يعبدون من دونه ما لا دليل لهم عليه منْ نَقْلٍ أو عقل، ويُنْكِرون ما يُتْلى عليهم من الأدلة الواضحة على أنه سبحانه لا شريك له، ثم ذكر من ذلك مثلاً ضَرَبَهُ لهم، وهو أن الذين يدعونهم من دونه لن يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له، وإن يَسْلُبْهُمُ الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ومن يكون أضعف من الذباب لا يمكن أن يكون إلهاً، ثم

بيّن السياق أنّ المشركين لم يقدُروا الله حق قدره حين سوَّوْا به أولئك الذين يدعونهم آلهة، وأنه جلّ وعلا يصطفي من الملائكة رسلاً، ومن الناس على أنهم عباد له، فلا يمكن أن يصطفي أنداداً له من تلك الآلهة العاجزة، وهو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذه الآلهة لا تعلم شيئاً.

ثم خُتِمت السورة بأمر المسلمين بما يضمن لهم الفلاح في جهادهم، وهو أن يحافظوا على ما كُلِّفُوا من الصلاة وغيرها، وأن يُخْلصوا في الجهاد الذي أذِنَ الله لهم فيه، وأن يذكروا أنه سبحانه اختارهم لتلك الشريعة السَّمْحَةِ التي هي ملة أبيهم إبراهيم؛ وأنه سماهم المسلمين في الكتب المُنْزَلة قبل القرآن وفي القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾.

أسرار ترتيب سورة «الحج»(*)

أقول: وجه اتصالها بسورة الأنبياء: أنه سبحانه ختم الأنبياء بوصف الساعة في قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء/ ٩٧].

وافتتح الحج بذلك، فقال تعالى:

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

مكنونات سورة «الحج»[*]

١ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ [الآيتان ٣ و٨].

قال أبو مالك[١]: نزلت في النَّضر بنِ الحارث. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٢ ـ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ١٥].

أي: محمّداً (ص). أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن ابن عباس.

٣ ـ ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية ١٩].

أخرج الشيخان[٢] عن أبي ذَر قال: نَزَلَتْ هذه الآية في حمزة، وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وأخرج الحاكم[٣] عن علي قال: نزلت في الذين بارزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

٤ ـ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الآية ٢٥].

قال ابنُ عباس: نزلت في عبد الله بن أنيس[٤]. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أبو مالك الأشجعي: سعد بن طارق الكوفي، ثقة عالم، مات في حدود (١٤٠)هـ.

(٢) البخاري (٤٧٤٣) في التفسير، ومسلم (٣٣) في آخر صحيحه.

(٣) في «المستدرك» ٢/ ٣٨٦، وصححه الذهبي.

(٤) وذلك لما بعثه رسول الله (ص) مع رجلين أحدهما مهاجري، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري، ثم ارتدّ عن الإسلام. انظر الرواية في «الدر المنثور» ٤/ ٣٥١.

٥ - ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الآيـــــة ٢٨].

قال ابنُ عباس: أيام العشر.

وقال زيدُ بنُ أسْلَم: يوم عَرَفة، ويوم النَّحر، وأيام التشريق.

وقال ابنُ عُمر: يوم النَّحر، ويومان بَعْدَهُ. أخرجهما ابنُ أبي حاتِم.

٦ - ﴿عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآيـــــة ٥٥].

قال أُبيُّ بنُ كَعْب، وسعيد بن جبير، وعكرمة: يوم بدر.

وقال الحَسَنُ، ومَجاهِد، والضَّحَّاك: يوم القيامة لا ليلة له. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم.

لغة التنزيل في سورة «الحج»(*)

١ ـ قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾.

أي: كل شيطان عاتٍ.

ومَرُد على الأمر، بالضم، يمرُد مُروداً ومَرادةً: أقبَلَ وعَتا وكذلك مَرَدَ بالفتح، ومنه قوله تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة/ ١٠١] قال الفراء: يريد مَرَنُوا عليه.

وشيطان مارد ومريد، أي: خبيث عاتٍ.

ومنه قولهم: تمرَّدَ علينا، أي: عَتَا.

والتمرُّد في لغة العصر: العصيان والعُتُوّ.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾ [الآية ٥].

وقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾، أي: من ماء قليل. والعَلَقَةُ: قطعة الدم الجامد، والمُضغة: اللحمة الصغيرة قدْرَ ما يُمْضَغُ.

والمخلَّقة: المُسَوّاة الملساء من النقصان والعيب.

ويقال: «خَلّق السواكَ» أو العود إذا سوّاه وملَّسَه، وذلك من قولهم: «صخرة خَلْقاء».

وكأنّ الله سبحانه يُخلّقُ المُضَغ متفاوتةً: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوتَ تفاوُتُ الناس

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

في خَلْقهم، وصُوَرهم، وطولهم، وقصرهم، وتمامهم، ونقصانهم.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الآية ٥].

قوله: ﴿طِفْلًا﴾، أي: أطفالاً، وقالوا: الطفل واحد وجمع.

وهذا مما سَجّلته لغة التنزيل، فليس لنا أن نَتَأوّل فنقول كما قالوا: أي نخرج كل واحد منكم طفلاً.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الآية ١١].

وقوله: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، أي: على طَرَفٍ من الدين لا في وسطه وقلبه. وهذا يدل على قلق واضطراب في دينهم.

أقول: والحرف طَرَف من كل شيء، وهذا الطَرَف قد يكون قطعة صغيرة. وعلى هذا يكون قول العامة «حرف من خبز» مقبول وصحيح.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الآية ١٩].

الخصم مفرد ويدل على جمع، كالجمع، والفريق، والفوج، ونحو ذلك، فكأن المعنى هذان جمعان اختصموا...

والفعل «اختصموا»، روعي فيه المعنى، كما رُوعي اللفظ في كلمة «خصمان» بدلالة تثنيتها.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الآية ٢٥].

أي: «العاكف» المقيم فيه، «والباد» الذي ينتابه من غير أهله، مستويان في سكناه والنزول فيه، فليس أحدهما أحقّ بالمنزل يكون فيه من الآخر.

أقول: ورسم «الباد» في المصحف بالدال مع الكسرة، ووجهها أن تكون بالياء لأنها اسم فاعل محلّى بالألف واللام، وقد اجتزئ بالكسرة عن المد (أي الياء) لمكان الوقف الجائز، بعد هذه الكلمة على أن وصلها أَوْلى، فإذا وصلت فالكسرة تؤذن بذلك الوصل أيضاً كالياء.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: «رجالاً»، جمع راجل، مثل قيام جمع قائم.

وهو مقابل لقوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾، أي: «الرجال» يقابلون «الركبان» كقوله أيضاً: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة/٢٣٩].

والراجل بهذا المعنى، أي: الماشي، أخذ من «الرجل»، عضو المشي في الإنسان، وهذا من باب الاشتقاق من أسماء الذات.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ﴾، وهو وصف لقوله ﴿كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وكأنه بمعنى الجمع وقرئ: «يأتون» صفة للرجال والركبان.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الآية ٢٩].

«التَّفَث»: نتف الشعر، وقصُّ الأظفار، وتَنَكُّب كُلِّ ما يَحْرُم على المُحْرِم، وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال.

وقال الزجّاج: لا يعرف أهل اللغة التّفث إلاّ من التفسير.

٨ - وقال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وُجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها في الحرم الذي هو في حكم البيت، وهذا شيء من مناسك الحج.

أما قوله: ﴿مَحِلُّهَا﴾، بكسر الحاء فهو اسم مكان من حَلَّ يَحِلُّ.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

«المُخْبِتون» المتواضعون الخاشعون، وهو من الخَبْت، أي: المُطمئِنُّ من الأرض.

أقول: وقد توسعت العربية، فأخذت الكثير من أسماء المعاني من أسماء الذات، أي: من المحسوسات، ومن الكلم الذي يتصل بالبيئة البدوية، ألا ترى أن الفعل «بدا» ذو صلة بـ «البدو»، وأن «الجَمَال»، بمعنى الحسن، ذو صلة بـ«الجَمَل» الحيوان، ومثل هذا لا يمكن أن يبلغه الحصر.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الآية ٣٦].

أما قوله: ﴿الْقَانِعَ﴾، فهو السائل من قولك: قَنَعتُ إليه وكَنَعْت: إذا خَضَعْتُ له وسألته قُنُوعاً.

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾: الذي يتعرّض بغير سؤال.

وقيل: القانع السائل أو المتعفف.

أقول: وهذا كله من الكلم الذي نفتقده كل الافتقاد في العربية المعاصرة.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الآية ٤٠].

الصوامع للرهبان وكذلك البِيَعُ، والمفرد بِيعَة.

ويذهب أهل عصرنا هذا، وأعني أهل العلم من المختصين باللغات القديمة، أن «البيعة» فيها من آثار الآرامية شيء، وهو صوت العين الذي يقابله في العربية الضاد، وكان حقها أن تكون «بيضة»، لأنها قُبّة بيضاء، وعلى هذا فالعين إشارة للأصل.

وأما الصَلَوات فهي متعبّدات اليهود، وسميت كنيسة اليهود صلاة لأنه يُصَلّى فيها.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ [الآية ٤٢].

وقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾، إشارة إلى أن الفاعل مؤنث، والفاعل هنا كلمة «قوم»، وهي ألصق بالتذكير ومعناها الجمع، ولكن في الآية مراعاة للمعنى، فالمراد بـ «قوم» «الأمّة».

ولو رُوعي اللفظ، لكان الفعل «كذّب»، ويعضد هذا أن الفصل موجود في الآية بين الفعل والفاعل بالظرف «قبلهم».

ومجيء «القوم» مذكّراً متحقق في عَشَرات الآيات بل المِئات.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الآية ٤٨].

والإملاء: الإمهال والتأخير وإطالة العمر، والله يُملي للظالم أي يمهله.

أما الكلام على «كأيّن»، فهي لفظ من كنايات العدد مثل: «كم» و«كذا»، وهي نظيرة «كم» في الاستفهام والخبر.

وفيها لغة أخرى هي «كائن»، قال زهير:

وكائنْ تَرَى من صامتٍ لكَ مُعجِبٌ
زيادتُه أو نقصُه في التكلُّم

وقد جاءت «كأيّن» في آيات عدة منها:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ

كَثِيرٌ﴾ [آل عمران/١٤٦].

والمعنى: وكم من نَبِيٍّ . . . . . .

أقول: إن «كأيِّن» هذه من الكلم الذي لم يبق له استعمال منذ عصور عدة.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾.

وقولنا: عاجَزَه بمعنى سابقه، والمُعاجِز من يسعى في طلب إعجاز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل: أعجزه.

أقول: وهذا من الكلم الذي يفتقده أصحابُ ما يتصل بكل أنواع المسابقات في عصرنا.

المعاني اللغوية في سورة «الحج»(*)

قال تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الآية ٢] وذلك أنه أراد، والله أعلم ، الفعل، ولو أراد الصفة فيما نرى لقال «مُرْضِع». وكذلك كلّ «مُفْعِل» و«فَاعِل» يكون للأنثى ولا يكون للذكر فهو بغير هاء نحو «مُقْرِب» و«مُوقِر»: نَخْلَةٌ مُوقِرٌ، و«مُشْدِن»: معها شَادِن و«حامِل» و«حائِض» و«فادك» و«طامِث» و«طالِق»[1].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الآية ١٥] بحذف الهاء من (يغيظُ) لأنها صلة «ما» لأنه إذا صار جميعاً اسماً واحداً كان الحذف أخف[2].

وقال تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الآية ١٣] ف (يَدْعُو) بمنزلة «يَقُول». و(مَنْ) رفع وأضمر الخبر كأنّ السياق يَدْعو لمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نَفْعِهِ إلهَهُ. يقول: لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ من نَفْعِهِ إلهُهُ[3].

وقوله تعالى ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الآية ٢٥] معناه: ومن يُرِدْ إلحاداً. وزيدت الباء كما زيدت في قوله سبحانه ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون/

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في التهذيب ١/ ٤٧٢ «رضع» وزاد المسير ٥/ ٤٠٤.

(٢) نقله في الجامع ١٢/ ٢٢.

(٣) نقله في إيضاح الوقف، والابتداء ٢/ ٧٨١ والمشكل ٢/ ٤٨٧ و٤٨٨، وإعراب القرآن ٢/ ٦٨٧، والبحر ٦/ ٣٥٦.

٢٠] وقال الشاعر[1] [من الطويل وهو الشاهد الثاني والخمسون بعد المئتين]:

أَلَيسَ أَمِيرِي فِي الأُمورِ بِأَنْتُما
بِمَا لَسْتُما أَهْلَ الخِيانَةِ والغَدْرِ[2]

وقال تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ [الآية ٣٦] وواحدتها: «الصافَّة».

وقال تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الآية ٤٠] فالصَّلواتُ لا تُهَدَّم، ولكن ينبغي حمله على فعل آخر كأنّ السياق «وَتُرِكَتْ صَلَواتٌ»، وقال بعضهم: «إنما يعني مواضع الصلوات».

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الآية ٤٠] ﴿بَعْضَهُم﴾ بدل من ﴿ٱلنَّاسَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الآية ٤٥] حُمِلَ على (كَأَيِّنْ) والمَشِيد هو المفعول من «شِدتُه» فـ «أنا أَشِيدُهُ» مثل «عِنْتُه» فـ «أَنَا أَعِينهُ» فـ «هو مَعِين».

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الآية ٧٣] فإن قيل: «فأينَ المثلُ» قلت: «ليس هُهنا مَثَل، لأنَّ معنى قوله تبارك وتعالى: «ضُرِبَ لِي مَثَلٌ فَجُعِلَ مَثَلاً عندهم لي فاستمعوا لهذا المَثَل الذي جعلوه مَثَلِي في قولهم واتخاذهم الآلهة، وإنهم لن يقدروا على خلق ذباب ولو اجتمعوا له وهم أضعف، لو سلبهم الذباب شيئاً فاجتمعوا كلهم ليستنقذوه منه، لم يقدروا على ذلك. فكيف تضرب هذه الآلهة مثلاً لربّها وهو ربّ كلّ شيء، الواحد الذي ليس كمثله شيء وهو مع كل شيء، وأقرب من كل شيء، وليس له شَبَهٌ ولا مثل ولا كُفُؤٌ، وهو العلي العظيم، الواحد الرب، الذي لم يزل ولا يزال»[3].

وقال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الآية ٣٠] وكُلُّها رِجْسٌ، والمعنى: فَاجْتَنِبُوا الرِجْسَ الذي يكونُ مِنها أي: عبادَتَها[4].

(١) لم تقد المراجع شيئاً في القائل.

(٢) ورد الشاهد في المغني ١/ ٣٠٦، وشرح شواهده للسيوطي ٣٤٤، والمقاصد النحوية ١/ ٤٢٢ على أنه من شواهد ابن أم قاسم، وقيّد بلفظ «فما» بدل «بما».

(٣) نقله في زاد المسير ٥/ ٤٥١، والجامع ١٢/ ٩٦ والبحر ٦/ ٣٩٠.

(٤) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٩٢.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: «هو في الثِقَل ومما يُخَافُ مِنْهُ كألفِ سَنَة».

وقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية ٧٨] نُصِب على الأمر.

وقال: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الآية ٧٢] رفع على التفسير، أي: هيَ النارُ. ولو جرّ على البدل كان جيداً[1].

وقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الآية ١٩] لأنهما كانا حيّين. و«الخَصْمُ» يكون واحداً وجماعة.

---

(١) الجر في البحر ٦/٣٨٩ قراءة ابن أبي اسحاق، وإبراهيم بن نوح عن قتيبة. والرفع قراءة الجمهور.

لكل سؤال جواب في سورة «الحج»(*)

إن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية ١] يدل على أن المعدوم شيء.

قلنا: لا نُسَلِّم، ومستنده أن المراد أنها إذا وجدت كانت شيئا لا أنها شيء الآن، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿عَظِيمٌ﴾ مع أن المعدوم لا يوصف بالعظم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى أوّلاً: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ [الآية ٢] بلفظ الجمع، ثم أفرد فقال في الآية نفسها: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾؟

قلنا: لأن الرؤية أولاً عُلِّقت بالزَّلْزَلة، فجعل الناس كلهم رائين لها، وعلقت آخِراً بكون الناس على هيئة السكارى، فلا بد من أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في حق النضر بن الحارث: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣] إلى أن قال ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٩] وهو ما كان غرضه في جداله الضلال عن سبيل الله، فكيف علل جداله به وما كان أيضاً مهتدياً حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال؟

قلنا: هذه لام العاقبة والصيرورة، وقد سبق ذكرها غير مرة، ولما كان الهدى معرضاً له، فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل، جُعِل كالخارج من الهدى إلى الضلال.

فإن قيل: النفع والضر منفيان عن

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

الأصنام مثبتان لها في الآيتين، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: معناه يعبد من دون الله ما لا يضره بنفسه إن لم يعبده، ولا ينفعه بنفسه إن عبده، ثم قال: يعبد من يضره الله بسبب عبادته، وإنما أضاف الضرر إليه لحصوله بسببه.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الآية ١٣] يدل على أن في عبادة الصنم نفعاً، وإن كان فيها ضرر؟

قلنا: معناه أقرب من النفع المنسوب إليه في زعمهم، وهو اعتقادهم أنه يشفع لهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الآية ٣٩] أي بسبب كونهم مظلومين، ولم يبين ما الشيء الذي أُذن لهم فيه؟

قلنا: تقديره: أُذن للذين يقاتلون في القتال، وإنما حذف لدلالة «يقاتلون» عليه ولدلالة الحال أيضاً، فإن كفار مكة يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبي (ص) في قتالهم، فيقول: «لم يؤذن لي في ذلك». حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في الإذن في القتال، فنَسَخَتْ سبعين آية ناهية عن القتال، كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما، فكان المأذون فيه ظاهراً لكونه مُتَرقَّباً منتظراً.

فإن قيل: ما وجه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الآية٤٠]؟

قلنا: هو استثناء منقطع تقديره: لكن أخرجوا بقولهم: ربنا الله. الثاني أنه بمنزلة قول الشاعر:

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أنّ سُيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ

تقديره: إن كان فيهم عيب فهو هذا، وليس بعيب فلا يكون فيهم عيب.

فإن قيل: أي منّة على المؤمنين في حفظ الصوامع والبِيَع والصلوات: أي الكنائس عن الهدم حتى امتن عليهم بذلك في قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الآية ٤٠]؟

قلنا: المنّة في ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس في حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم، لأن أهلها ذمة للمسلمين. الثاني أن المراد به لَهُدِّمت صوامع وبِيَع في زمن عيسى (ع)،

وصلوات: أي كنائس في زمن موسى (ع)، ومساجد في زمن النبي (ص)، فالامتنان على أهل الرسالات الثلاث.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الآية ٤٤] ولم يقل و«كَذَّبَ قوم موسى»، كما قال الله تعالى فيما قبله؟

قلنا: لأن موسى (ع) ما كَذَّبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط. الثاني: أن يكون التنكير والإبهام للتفخيم والتعظيم كأنه قال تعالى: بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكُذِّب موسى أيضاً مع وضوح آياته وعِظَم معجزاته، فما ظنك بغيره.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾؟

قلنا: الحكمة فيه المبالغة في التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام/ ٣٨] وقوله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [الفتح/ ١١] وما أشبه ذلك: أن القلب هنا يستعمل بمعنى العقل، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق/ ٣٧] أي عقل في أحد القولين، فكان التقييد احترازاً على قول من زعم أن العقل في الرأس.

فإن قيل: المغفرة إنما تكون لمن يعمل السيئات، لا لمَن يعمل الصالحات والحسنات، فَلِمَ قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [الآية ٥٠]؟

قلنا: المراد بالعمل الصالح هنا الإخلاص في الإيمان؛ فيصير المعنى: فالذين آمنوا عن إخلاص نغفر لهم سيئاتهم.

فإن قيل: ما الفرق بين الرسول والنبي، مع أن كليهما مرسل بدليل قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الآية ٥٢].

قلنا: الفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مَنْ جُمِع له بين المعجزة وأُنزل الكتاب عليه. والنبي فقط: من لم يُنْزَل عليه كتاب، وإنما أُمِر أن يدعو أمته إلى شريعة مَنْ قبله. وقيل الرسول من كانت له معجزة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والنبي من لم تكن له منهم معجزة، وفي هذا نظر. وقيل الرسول من كان مبعوثاً إلى أمّة، والنبي فقط من لم يكن مبعوثاً إلى أحد مع كونه نبيّاً، والجواب

عمّا في الآية من هذا القول أن فيه اضماراً تقديره: وما أرسلنا من رسول ولا نبأنا من نبيّ، أو ولا كان من نبيّ؛ ويقول الشاعر:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوَغَى
مُتَقلِّداً سَيْفاً وَرُمحا

أي ومتعلقاً رمحاً أو حاملاً رمحاً.

فإن قيل: أين المثل المضروب في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الآية ٧٣] والمذكور بعده، وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٧٣] إلى آخره ليس بمثل، بل هو كلام مبتدأ مستقل بنفسه؟

قلنا: الصفة والقصة الغريبة أو المستحسنة تسمى مثلاً، ومنه قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة/١٧] فالمعنى يثبت بصفة، وهي عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه، وقيل هو إشارة إلى قوله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت/٤١] وإنما أُبهِمَ هنا.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الآية ٧٨] مع أن قطع اليد بسبب سرقة عشرة دراهم حرج في الدين؛ وكذا رَجْم المحصن بسبب الوطء مرة واحدة، ووجوب صوم شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم واحد من رمضان بوطء، والمخاطرة بالنفس والمال في الحجّ والعمرة؛ كل ذلك حرج بيّن؟

قلنا: المراد بالدين كلمة التوحيد، فإنها تُكَفِّر شرك سبعين سنة، ولا يتوقف تأثيرها على الإيمان والإخلاص سبعين سنة، ولا على أن يكون الإثبات بها في بيت الله تعالى أو في زمان أو مكان معين. وقيل المراد به أن كل ما يقع فيه الإنسان من الذنوب والمعاصي يجد له مخرجاً في الشرع بتوبة أو كَفّارة أو رخصة. وقيل المراد به فتح باب التوبة للمذنبين، وفَتْح أبواب الرُخَص للمعذورين، وشروع الكفارات والديات؛ وقيل المراد به نَفْيُ الحرج الذي كان على بني إسرائيل من الإصر والتشديد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية ٧٨] وإبراهيم صلوات الله عليه لم يكن أباً للأمة كلها؟

قلنا: هو أبو رسول الله (ص)، فكان

أباً لأمته، لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة، هذا إذا كان الخطاب لعامة المسلمين، وإن كان للعرب خاصة فإبراهيم أبو العرب قاطبة.

فإن قيل: متى سمّانا إبراهيم صلوات الله عليه المسلمين من قبل، كما ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الآية ٧٨]؟

قلنا: وَقْتَ دعائه عند بناء الكعبة حيث قال، كما ورد في التنزيل ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة/١٢٨] فكل من أسلم من هذه الأمة فهو ببركة دعوة إبراهيم (ع).

المعاني المجازية في سورة «الحج»(*)

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾.

وهذه استعارة. لأن حقيقة الزلزلة هي حركة الأرض على الحال المفزعة. ومِثْلُ ذلك قولهم: زَلْزَل الله قدمه. وكان الأصل: أزلَّ الله قدمه. بمعنى أزالها عن ثباتها واستقامتها، وأسرع تعثرها وتهافتها. ثم ضوعف[1] ذلك، فقيل: زَلْزَلَ الله قدمه. كما قيل: دَكَّهُ الله، وَدَكْدَكَهُ. فالمراد بزلزلة الساعة ـ والله أعلم ـ رجفان القلوب من الخوف... وزلات الأقدام من روعة موقعها. ويشهد بذلك قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ [الآية ٢] يريد تعالى من شدة الخوف والوجل، والذهول والوهل.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾ استعارة. لأن المراد ههنا باهتزاز الأرض، والله أعلم، تشبيهها بالحيوان الذي همد بعد حراكه، وخشع بعد إشرافه، لعلّة طرأت عليه، فأصارته إلى ذلك، ثم أفاق من تلك الغَمرة، وصحا من تلك السَّكرة، فتحرك بعد هموده وركوده. وكذلك حال الأرض إذا أماتها الجدب،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) التضعيف في تصريف الأفعال معروف مثل: زلزل في زل، وصلصل في صل.

وأهمدها المَحْلُ؛ ثم حالُها إذا نضحها الغيث بسجاله، وبلّها القَطْر ببلاله، واهتزت بالنبات ناضرةً، ورطبت بعد الجفوف متزيّنة[1]. ذلك تقدير العزيز العليم.

وقوله سبحانه: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٩] استعارة. والمراد بها، والله أعلم، الصفةُ بالإعراض عن سماع الرشد، ولَيّ العنق عن اتباع الحق. لأن المستقبل لسماع الشيء الذي لا يلائمه في الأكثر يصرف دونه بصره، ويَثني عنه عنقه. والعطف: جانب القميص، وبه سُمّي شق الإنسان عطفاً، لأن منه يكون ابتداء انعطافه، وأول انحرافه. ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء/ ٨٣ وفُصّلت/ ٥١].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الآية ١١] استعارة. والمراد بها، والله أعلم، صفة الإنسان المضطرب الدين، الضعيف اليقين، الذي لم تثبت في الحق قدمه، ولا استمرت عليه مريرته، فأوهَى شبهةٍ تعرض له ينقادُ معها، ويفارق دينه لها، تشبيهاً بالقائم على حرف مهواة. فأدنى عارض يُزلقه، وأضعف دافع يَطْرحه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الآية ١٨] استعارة.

والمراد، والله أعلم، بسجود الشمس والقمر والنجوم والشجر، وما ليس بحيوان مميز، ما يظهر فيه من آثار الخضوع لله سبحانه، وعلامات التدبير، ودلائل التصريف والتسخير، فَيَحْسُن لذلك أن يسمّى ساجداً على أصل السجود في اللغة، لأنه الخضوع والاستكانة. أو يكون ذلك على معنى آخر، وهو أن الذي يظهر في الأشياء التي عددها، من دلائل الصنعة، وأعلام القدرة، يدعو العارفين الموقنين إلى السجود، ويبعثهم على الخضوع، اعترافاً له سبحانه بالاقتدار، وإخباتاً له بالإقرار. وذلك كما تقدّم من قولنا في تسبيح الطير والجبال.

---

(١) في الأصل «متزيلة».

وفي قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الآيــة ١٩] استعارة. والمراد بها أن النار، نعوذ بالله منها، تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان، حتى لا يَسْلَمُ منها عضو من أعضائهم، ولا يغيبُ عنها شيء من أجسادهم.

وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بذلك، والله أعلم، أن سرابيل القَطِرانِ التي ذَكَرها سبحانه، فقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [ابراهيم/ ٥٠] إذا لبسوها واشتعلت النار فيها صارت كأنها ثياب من نار، لإحاطتها بهم واشتمالها عليهم.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ استعارة. لأن المراد بها ذهول القلب عن التفكّر في الأدلّة التي تؤدي إلى العلم. وذلك في مقابلة قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم] فإذا وُصف القلب عند تبيين الأشياء بالرؤية والإبصار، جاز أن يوصف عند الغفلة والذهول بالعمى والضلال. وإنما جعلت القلوب ههنا بمنزلة العيون، لأن بالقلوب يكون تحصيل المعلومات، كما أن بالعيون يكون إدراك المرئيات. ولأن الرؤية ترد في كلامهم بمعنى العلم. ألا تراهم يقولون: هذا الشيء مني بمرأى ومَسمَع. أي بحيث أعرفه وأعلمه، ولا يريدون بذلك نظر العين، ولا سمع الأذن.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ معنى عجيب، وسر لطيف. وذلك أنه سبحانه لم يُرد نفي العمى عن الأبصار جملة. وكيف يكون ذلك وَمَا يعرض من عَمَى كثيرٍ منها أشهر من أن نومئ إليه، وندل عليه؟ وإنما المراد، والله أعلم، أن الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق، واتصال الشعاعات لم يجُز أن لا ترَى ما لا مانع لها من رؤيته. والقلوب بخلاف هذه الصفة بها، قد يكون فيها آلة التفكر والنظر من سلامة البنية، وصحة الروية وزوال الموانع العارضة، ثم هي مع ذلك لاهية عن النظر، ومتشاغلة عن التفكر. فلذلك أفردها الله سبحانه بصفة العمى عن الأبصار على الوجه الذي بيّناهُ مع الفائدة.

فأما الفائدة في قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾،

والقلب لا يكون إلا في الصدر، فإن هذا الاسم الذي هو القلب لما كان فيه اشتراك بين مسمّيات كقلب الإنسان، وقلب النخلة، والقلب الذي هو الصميم والصريح. من قولهم هو عربيّ قَلْباً[1]، والقلب الذي هو مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبا، حَسُنَ أن يُزال اللّبس بقوله تعالى: ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾، احترازاً من تجويز الاشتراك.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ من أحسن الاستعارات. لأن العقيم المرأة التى لا تلد، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار، لأن الزمان قد مضى، والتكليف قد انقضى. فجُعلت الأيام بمنزلة الولدان للّيالي، وجعُل ذلك اليوم من بينها عقيماً، لأنه لا ينتج ليلاً بعده، ولا يستخلف بدلاً له. وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد، والله أعلم، أن ذلك اليوم لا خير بعده، لمستحقي العقاب، الذين قال الله سبحانه في ذكرهم: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الآية ٥٥] فوصفه بالعقم لأنه لا ينتج لهم خيراً، ولا ينتج لهم فرحاً.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ [الآية ٧٢] استعارة، والمراد بها، والله أعلم، أن الكفار عند مرور الآيات بأسماعهم يظهر في وجوههم من الإنكار لسماعها والإعراض عن تأملها، مالا يخفى على المخالط لهم، والناظر إليهم. وذلك كقول القائل: عرفت في وجه فلانٍ الشّرّ. أي استدللت منه على اعتقاد المكروه، وإرادة فعل القبيح.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ ههنا وجهين: أحدهما أن يكون المنكر ما ينكره الغير من أمرهم. والآخر أن يكون ما ينكرونه هم من الهجوم عليهم، بتلاوة القرآن، وصوادع البيان.

---

(١) في «الأساس» للزمخشري: هو أعرابي قلب، أي محض واسط في قومه.

سورة المؤمنون

٢٣

أهداف سورة «المؤمنون»(*)

سورة «المؤمنون» سورة مكية، آياتها ١١٨ آية، نزلت بعد الأنبياء، وسميت سورة «المؤمنون»، لافتتاحها بفَلاح المؤمنين: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾.

المؤمنون والايمان

تبدأ السورة بذكر صفات المؤمنين، ويستطرد السياق منها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق؛ ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رُسُل الله، صلوات الله عليهم، مِنْ نوح (ع)، الى محمد (ص)، خاتم الرسل والنبيين، وشُبُهاتِ المكذِّبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتِهم عليها؛ ووقوفِهم في وجهها؛ حتى يستنصرَ الرُسُلُ ربَّهم، فيُهلِكَ المكذِّبين ويُنْجِيَ المؤمنين. ثم يستطرد السياق إلى اختلاف الناس بعد الرسل، في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد. ومن هنا يتحدّث عن موقف المشركين من الرسول (ص)، ويَسْتنكر هذا الموقف، الذي ليس له مبرر، وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة، يَلْقَون فيه عاقبة التكذيب، ويؤنَّبون على ذلك الموقف المُريب.

وتُختم السورة بتعقيب يقرر التوحيد المطلق، والتوجُّه إلى الله تعالى بطلب الرحمة والغفران. . . ، فهي سورة المؤمنين، أو هي سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته، والإيمان موضوع السورة ومحورها الأصيل.

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الأقسام الرئيسية في السورة

يمضي سياق سورة «المؤمنون» في أربعة أقسام رئيسية، تتناول تاريخ الدعوة، وحاضرها، وتَسُوق الأدلة الحسية، والنفسية، على الإيمان بالله.

القسم الأول:

يبدأ القسم الأول بتقرير الفَلاَح للمؤمنين: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١﴾.

ويبين السّياق صفات المؤمنين هؤلاء، الذين كُتب لهم الفلاح، ويُثنّي بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، فيعرض أطوار الحياة البشرية منذ نشأتها الأولى، إلى نهايتها في الحياة الدنيا، متوسّعاً في عرض أطوار الجنين، مُجْمِلاً في عَرْض المراحل الأخرى... ثم يتابع خط الحياة البشرية، إلى البعث يومَ القيامة، وبعد ذلك ينتقل من الحياة البشرية إلى الدلائل الكَوْنية: في إنزال الماء، وفي إنبات الزرع والثمار، ثم إلى الأنعام المسخّرة للانسان، والفُلْك التي يُحْمَل عليها، وعلى الحيوان، ويمتدُّ هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٢.

القسم الثاني:

يشير القسم الثاني الى قصة نوح (ع)، وهلاك الكافرين، ثم يَتبع ذلك بيان سُنّة الله في إرسال الرسل، لهداية الناس، وإبلاغهم كلمةَ الحق والإيمان، ودَعْوَتُهم الى الله، فيقول نوحٌ لقومه كما ورد في التنزيل:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الآية ٢٣].

ويقول هذه الحقيقةَ كلُّ نبي ورسول: يقولها موسى (ع)، ويقولها عيسى (ع)، ويقولها محمد (ص).

ويكون اعتراض المكذّبين دائماً:

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الآية ٣٣].

ويقدّم الكفار عدداً من الحجج والأدلة على تكذيبهم. فيلجأ الرسل الى ربّهم يطلبون نَصْرَه، فيستجيب سبحانه، ويُنْجِي المؤمنين، ويُهلك الكافرين قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٤٤﴾.

وينتهي هذا القسم، ببيان وحدة الرسالات، ووحدة الأمم المؤمنة، فالربّ واحد، والإيمان بالله وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانٌ واحد، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾.

ويستغرق هذا القسم الآيات [٢٣ - ٥٢].

القسم الثالث:

يتحدّث القسم الثالث، عن تفرّق الناس بعد وصول الرسل إليهم، وتَنازُعِهم حول تلك الحقيقة الواحدة التي جاء بها الرسل:

﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

ثم يتحدّث عن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة، واغترارهم بما هم فيه من مَتاع، بينما المؤمنون مشفقون من خَشْية ربهم، يعبدونه ولا يشركون به، ويَخْشَون غضبه، ويرجُون رحمته. وهنا يَرْسُم مشهداً لأولئك الغافلين المغرورين، يوم يأخذهم العذاب، فإذا بهم يجأرون، فيأخذهم التوبيخ والتأنيب:

﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾.

ويستنكر السياق، موقفهم العجيب من رسولهم الأمين، وهم يعرفونه ولا ينكرونه، وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجراً، فماذا ينكرون منه، ومن الحقّ الذي جاءهم به؟ وهم يسلّمون بملكية الله لمن في السموات والارض، وربوبيته سبحانه للسماوات والأرض، وسيطرتهِ على كل شيء في السماوات والأرض؛ وبعد هذا التسليم، هم ينكرون البعث، ويزعمون لله ولداً سبحانه! ويشركون به آلهة أخرى:

﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾.

ويستغرق هذا القسم الآيات [٥٣ - ٩٢].

القسم الرابع:

في القسم الرابع والأخير، حثٌّ للرسول (ص) أن يَدَعهم وشِرْكَهم وزَعْمَهم، وأن يدفع السّيئة بالتي هي أحسن، وأن يستعيذ بالله من الشياطين، فلا يَغْضَب ولا يَضِيق صدره بما

يقولون. ثم يرسم السياق مشهداً من مشاهد القيامة، يُصوِّر ما ينتظرهم هناك، من عذاب ومهانة وتأنيب. ويختم السورة بتنزيه الله سبحانه:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

ويَنفي الفَلاَح عن الكافرين، ليناسب ابتداءها بإثباته للمؤمنين. وفي آخر آية أمْرٌ للنبي (ص) أن يتوجّه إلى الله سبحانه بطلب المغفرة والرحمة:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

ويستغرق هذا القسم الآيات [٩٣ ـ ١١٨].

مظاهر عامة للسورة

جو السورة كُلُها جو البيان والتقرير، وجو الجدل الهادئ، والمنطق الوجداني واللَّمَسات الموحية للفكر والضمير. والروحُ الساري في السورة روح الإيمان. ففي مطلعها مشهد الخُشُوع في الصلاة، وفي وسَطِها مَدْحٌ للإيمان والإحسان:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

وفي اللمسات الوجدانية، تجد قوله سبحانه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

وكلّها، مظّللة بذلك الظل الإيماني اللطيف.

ترابط الآيات في سورة «المؤمنون»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نَزَلَت سورة «المؤمنون» بعد سورة الأنبياء، ونزلت سورة الأنبياء بعد الإسراء وقُبيل الهجرة، فيكون نزول سورة «المؤمنون» في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لقوله تعالى في أوّلها ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ وتبلغ آياتها ثماني عَشْرَةَ ومائةَ آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة بيان الشروط التي يفلح المؤمنون بها، ويُنْصَرون على أعدائهم، كما نُصِر الرسل وأتباعهم على أعدائهم مِنْ قَبْلهم. وقد اقتضى هذا ذِكْرَ أخبار بعض الرسل السابقين، وتذييلَها بما يناسب الغرض من ذكرها. وقد جاء في سورة الحجّ الإذنُ في القتال للمؤمنين، وَوَعْدُهُم بالنصر والفلاح في دنياهم وأُخْراهم، فجاءت هذه السورة بعدها، لبيان الشروط التي يتوقف عليها نصرهم وفلاحهم.

بيان شروط فَلَاح المؤمنين الآيات [١ ـ ٢٢]

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿خَٰشِعُونَ ۝٢﴾، فوعد بفلاح المؤمنين على سبيل التحقيق والتأكيد، وذكر، من الصفات التي يتوقف عليها فلاحهم، أنهم في صلاتهم خاشعون، إلى غير هذا مما ذكره من صفاتهم؛ ثم ذكر سبحانه أنهم، بهذه الصفات، إنما يرثون جَنّةَ الفِرْدَوْسِ التي أُعِدّت لهم، فيفوزون بها في الدنيا والآخرة؛ ثم ذكر من أدلة أُلوهِيَّتِهِ، عز وجلّ، ما يُثْبت قدرته على تحقيق وعده بذلك في الدنيا، وقدرتَه على بعثهم بعد موتهم، ليحقّ لهم ما وعدهم به في الآخرة؛ فذكر سبحانه أنه خلق الإنسان من سُلالة من طين، ثم جعله نُطْفة فعَلَقَة، فمُضْغة، إلى أن أنشاه خلقاً آخرَ يتكلّم ويعقل؛ ثم ذكر أنه خلق فوقنا سبع سماوات، وأنزل من السماء ماءً بِقَدَر، إلى أن ذكر خَلْقَ الأنعام وقال فيها: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾.

أخبار بعض الرسل
الآيات [٢٣ ـ ١١٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣﴾، فذكر، من أخبار بعض الرسل، ما يُثبت أيضاً وعده بفلاح المؤمنين، فَذَكَر خبر نوح مع قومه، وأنهم كذّبوه، وقالوا مَرّة كما ورد في التنزيل: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية ٢٤]. ومرة أُخرى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [الآية ٢٥]، فطلب منه أن ينصره عليهم، فأمره أن يصنع فُلكاً، ويحمل فيها أهله إلاّ من سبَقَ عليه القول منهم، ونهاه أن يخاطبه فيمن سَيُغرِقه بالطوفان من أعدائه؛ ثم ذكر أن في ذلك لآياتٍ على نَصْرِه للمؤمنين، وأن من شأنه أن يعاقب المكذّبين.

ثم ذكر سبحانه أنه أنشأ من بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل هم عَادٌ قوم هود، وقيل هم ثَمُودُ قوم صالح؛ وأنه أرسل فيهم رسولاً، ليأمرهم بعبادته وَحْدَه، فكذّبوه لأنه بشر مثلهم، وأنكروا ما أخبرهم به من بعثهم بعد موتهم؛ ثم ذكر أنه طلب منه أن ينصره عليهم، فأخذهم بالصيحة فأهلكهم.

ثم ذكر، جلّ شأنه، أنه أنشأ من بعدهم قرونا آخرين، وأنه أرسل رسله تَتْرى، رسولاً بعد رسول، فكذّبت كلُّ أمة رسولها، فأهلكهم أُمّةً بعد أمة. ثم ذكر سبحانه أنه أرسل موسى وهارون (ع) إلى فرعون وقومه، وأنهم

كذّبُوهما لأنهما بشر مثلهم، ومن قوم عابدين لهم، فأهلكهم كما أهلك مَنْ قَبْلَهم من الأمم. ثم آتى موسى التوراة ليهتدي قومُه بها، بعد أن نجّاهم من استعباد فرعون؛ ثم ذكر أنه جعل منهم عيسى بن مريم وأُمّه آيةً في ولادته منها بغير أب؛ وأن آيته كانت خاتِمةَ آياتهم.

ثم ذكر تعالى ما كان من أمر هؤلاء الرسل، بعد أن نَصَرَهم على أعدائهم، وأنّه أمرهم أن يتمتعوا بما رزقهم من الطيبات في دُنْياهم، وأن يعملوا صالحاً ينفَعُهم في آخِرتهم، وأن يعبدوه وحده، لأنّ شرائعهم واحدة، قائمة على أساس التوحيد؛ ثم ذكر أن أتباعهم لم يعملوا بهذا بَعْدَهم، بل اختلفوا فيه اختلافاً شديداً، واغتبط كلّ فريق منهم بما اتّخَذَه ديناً له، وأمر النبيّ (ص) أن يتركهم في غَفْلَتهم عما بُعِثَ به أولئك الرسل، إلى أن يَحينَ عذابهم؛ ثم ذَكَر أنهم إذا كانوا في نِعَم عظيمةٍ، فإنها ليست ثواباً مُعجَّلاً لهمّ على أديانهم، وإنما هي استدراج لهم في المعاصي ليبلغوا ما يبلغون من زيادة الإثم؛ ثم ذكر أنّ ما هم فيه من تلك النِّعَم والخيرات، ليس بخيرات على الحقيقة، وإنما الخيرات ما يسارع فيه المؤمنون من خَشْيَةِ ربّهم، إلى غير هذا مّما ذَكَر من أعمالهم؛ ثم ذَكَر سبحانه أنه لا يكلّف أحداً إلاّ وُسْعَه من تلك الأعمال، وأنّ لديه كتاباً يُسجّل تلك الأعمال، وينطق بالحق فيها، وأنّ المشركين في غفلة عنها، بما هم فيه من الكفر والضلال؛ ثم ذكر أنه إذا أُخِذ أصحاب تلك النِّعم منهم بالعذاب، جَأَرُوا من هوله، وأنه ينهاهم عن الجُؤار، لأنّه أنذرهم بذلك، فيما يُتلى عليهم من آياته، فكانوا يَنكِصون على أعقابهم، ويَسْمُرون بالطَّعْنِ في القرآنِ الذي يتلو ذلك عليهم، ثم قطع عذرهم، بأنه قد مكّن لهم من التدبُّر في القرآن، وما أنذرهم به فلم يتدبّروا، إلى غير ذلك مما ذكره في قطع عذرهم؛ ثم ذكر أنه جاءهم بالحق، وأنه لا يَحمِلُهم على تكذيبه إلا كراهتهم له، وأنه لم يأتِ على أهوائهم، ولو اتّبعَ الحقُّ أهواءهم، لفَسَدت السماواتُ والأرضُ ومن فيهما؛ ثم ذَكَر أنه قد أتاهم من ذلك بما فيه ذِكْرُهم وشَرَفُهم، وأن النبي (ص) لا يسألهم عليه أجراً، وأنه يدعوهم إلى صراط مستقيم، وأنهم عن ذلك الصراط ناكبون، وأنه لو سَمِع لجؤارهم، وكَشَف ما بهم من ضرّ،

لاستمروا في طغيانهم. ولقد أخذهم بعذاب قبل هذا العذاب، ثم كشفه عنهم فما استكانوا له. فلما أخذهم بهذا العذاب يَئِسُوا من كشفه عنهم؛ ثم ذكر ما كان يكفي لصرفهم عن تلك المبالغة في الإعراض؛ فذكر سبحانه أنه هو الذي أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأنه هو الذي جعلهم يتناسلون في الأرض، ثم يَحْشُرهم إليه وحْدَه، وأنه، جلّ جلاله، هو الذي يُحيي ويميت، ويخالف بين الليل والنهار؛ ثم ذكر أنهم مع هذا مَضَوا في إعراضهم، وتقليد آبائهم في إنكار بعثهم بعد موتهم، وزَعْمِهم أنهم قد وُعِدُوا بذلك هم وآباؤهم، فلم يحصل شيء منه؛ ثم رَدَّ عليهم بأنهم لا يستطيعون أن يُنْكِروا أن الله هو خالق الأرض ومن فيها، وهو ربّ السماوات السبع والعرش، وأنه سبحانه بيده ملكوتُ كل شيء، ومن يكون هذا شأنه يكون قادراً على بعثهم؛ ثم ذَكَر أنه أتاهم بالحق حين أثبت لهم أنه هو الذي خلقهم وحده، وأنهم إليه يُحشرون، لا إلى غيره من وَلَدٍ أو شريك، لأنه لم يَتَّخِذْ له ولداً ولا شريكاً، ولو كان معه إله غيره، لذهب كل إله بما خلق، ولَعَلَا بعضُهم على بعض، سبحانه عما يصفون، وتعالى عما يشركون.

ثم أمر (ص)، إذا أراه ما يُوعدُون من العذاب، أن يدعوه بأن يُنْجِيَه منه؛ وذكر أنه قادر على أن يُرِيَهُ ما يعِدُهمْ من ذلك، ثم أمره أن يحتمل ما يكون منهم، قِبَل ذلك من ضروب الأذى، وأن يستعيذ به، مما يهمز به الشيطان، من دَفْعِهم إلى إيذائه؛ ثم ذَكَر تعالى أنه إذا جاء أحدَهم الموتُ نَدِم على ذلك، وطلب من ربه أن يُرْجعه إلى الدنيا ليعمل صالحاً، وأنه يجاب بزجره عن هذا الطلب، لأنه لا سبيل إلى رجوعه، إلى أن يُبْعثَ من قبره؛ ثم ذكر أحوال يوم البعث وأنه يُنْفَخ فيه في الصُور، فيُبْعثون من قبورهم، لا يَعْرِف قريبٌ قريباً، ولا يَسْأَلُ شخص شخصاً؛ ثم يُحاسَبُون، فمن ثقُلت موازينه فهو من المُفْلِحين، ومن خفَّت موازينه فهو من الخالدين في جهنم. ثم ذكر أنهم ينادونه فيها، ويعتذرون بأن شِقْوتَهمْ غلبت عليهم، ويطلبون أن يخرجهم منها، فإن عادوا إلى العصيان فهم ظالمون، فيأمرهم بأن يَخْسَأُوا فيها، ولا يكلّموه في الخروج منها، ويُذَكّرُهم ما كان من سخريتهم بعباده

المؤمنين؛ ويُخبِرُهم بأنه جزاهم بصبرهم على سخريتهم، وجَعَلَهم من الفائزين؛ ثم يسألهم، على سبيل التوبيخ، عن عدد السنين التي لَبِثُوها في الأرض، لأنهم كانوا يعتقدون أنه لا لبثَ إلاّ في الدنيا، فَيُجِيبُونَ بأنهم لم يلبثوا فيها إلاّ يوماً أو بعض يوم، فَيُقِرُّهم على استقصارهم لمدة لَبْثِهم فيها، لأنها قليلة بالنسبة لما يَلْبَثُونه في الآخرة؛ ثم يوبّخهم على ظنّهم أنه خلقهم عبثاً، وأنهم لا يرجعون إليه، لأنه سبحانه الملِكُ الحقُّ الذي يتعالى عن العبث.

ثم خُتِمت السورة بنفي الفَلاَح عن الكافرين، ليناسب ابتداءها بإثباته للمؤمنين؛ وأَمَر النبي(ص) أن يتوجّه إليه بطلب المغفرة والرحمة، بعد تفصيل ذلك العذاب للكافرين، فقال سبحانه ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «المؤمنون»(*)

أقول: وجه اتصالها بسورة الحج: أنه تعالى، لما ختمها بقوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، وكان ذلك مجملاً، فصَّله في فاتحة هذه السورة، فَذَكَرَ سبحانه خصال الخير التي مَنْ فَعَلَها قد أفلح، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾.

ولما قال سبحانه في أول الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الآية ٥]، زاده هنا بياناً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾. فكل جملة أوجزت هناك في القصد، أُطنِبَ فيها هنا.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

مكنونات سورة «المؤمنون»(*)

١ - ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [الآية ٢٠].

قال الرَّبيع: هي الزيتون، أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٢ - ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [الآية ٥٠].

قال أبو هريرة: هي الرملة من فلسطين[١].

وقال الضَّحَّاك: هي بيت المقدس[٢].

وقال سعيد بن المُسَيِّب: هي دمشق.

وقال ابنُ زيد: هي مصر. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» عن مرة الزهري. قال الهيثمي في «معجم الزوائد» ٧/ ٧٢: «وفيه من لم أعرفهم». واستبعد الطبري في «تفسيره» ١٨/ ٢١ هذا التفسير لأن الرملة لا مَعِينَ بها؛ والله تعالى ذكره، وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومعين.

(٢) هذا القول هو الأظهر عند ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٤٦.

لغة التنزيل في سورة «المؤمنون»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾.

والسُلالة: الخلاصة لأنّها تُسَلّ من بين الكدر، و«فُعالة»: بناء للقلّة، ولبقايا الأشياء كالقُلامة، والقُمامة، والصُبابة، والحُشارة، وغير ذلك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾.

والقرار المكين، أي: المستقر، ذو المكانة، والمراد به الرَّحِم.

والمكين فعيل اشتق من «المكان»، وهذا يفيد أن العربية اشتقت الكثير من الأسماء الدالة على المعاني، أو على الذوات من الاسم، وهو «المكان».

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ [الآية ٢١].

أقول: أنظر: الآية: ٦٦، من سورة النحل.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [الآية ٢٧].

وقوله تعالى: «بأعيننا»، أي بحفظنا وكلاءتنا.

أقول: وما زال شيء من هذا التعبير في اللغة السائرة في العراق.

والذي أراه أن «العين»، في هذا الاستعمال تفيد الحفظ والمساعدة.

ولعلّ من «العين»، وهي عضو البصر في الأصل، أخذت العربية «العَون» بمعنى المساعدة، ولمّا كان لكلمة «العين» معنى مجازي، وهو

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

الحفظ والرعاية، فقد حوّلت هذه اللفظة من الياء إلى الواو لهذا الغرض.

وكنا قد أشرنا إلى شيء من هذا في مادة «غيث»، وكيف صارت «غوثاً».

وقوله تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾، أي: نأمرك كيف تصنع ونعلمك.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الآية ٢٧].

قالوا: التنور: وجه الأرض.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أقول: ذكر النحاة أن بعد هَيْهات اسم يرتفع بها هو الفاعل، ومن شواهدهم:

فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ وأهلُهُ

وهيهاتَ خِلٌ بالعقيقِ نُواصِلُهْ

وقال الزجاج في الآية: البُعْد لما توعدون.

وهذا التفسير في قول الزجّاج، يُشعرنا أنهم حاروا في اللام، لأن الآية لم ترفع الاسم الظاهر، بل وليها الاسم مجروراً باللام.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أقول: باعتبار الفعل الأول، تسبق، كانت الكلمة مؤنثة، وهي مؤنثة لفظاً، وباعتبار الفعل اللاحق لها، كانت الكلمة جمعاً مذكّراً، وذلك مراعاة للمعنى.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [الآية ٤٤].

«تَتْرى» على «فَعْلى»، والألف للتأنيث لأن الرسل جماعة.

وقُرِئَ: (تترًى) بالتنوين.

أقول: والتاء بدل من الواو، والأصل وتْرَى. ولعلّ الكلمة من الجموع التي أُميتَ واحدها، فهو «وتير»، مثل جريح وجَرْحى. ولكنّ «وتير» لم يرد في العربية، فهو مما أُهمِل وأُنسِيَ.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [الآية ٤٦].

والمراد بـ «عالين» أنهم متكبّرون.

أقول: والذي رَشَّح هذا المعنى المراد: أن في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾. والذي يقال في عربيتنا المعاصرة: «أنهم متعالون»، أي: متكبّرون.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [الآية ٤٧].

أقول: البشر واحد وجمع، فكونه مفرداً هو في قوله تعالى:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [آل عمران/٤٧].

وفي آياتٍ أخرى.

وأما كونه جمعاً، فكما في قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ [إبراهيم/١٠].

وفي آيات أخرى.

فأما الآية التي وقفنا عليها من هذه السورة، الآية ٤٧، فدلالتها على المفرد، ومن أجل ذلك بُنِيَ الكلام على التثنية.

ولا بد من الوقوف، من معنى كلمة «بشر»، على شيءٍ يَدُلُّ في ظاهره على الانسان، رجلاً كان أو امرأة، فأقول:

لو استقرينا قَدْراً من الآيات التي وردت فيها كلمة «بشر»، ومنها:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم/١١].

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ﴾ [الحجر/ ٣٣].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء].

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

أقول: لو استقرينا هذا القدر من آيات أخرى، لوقفنا على ما يحملنا على أن نقول: إن دلالة كلمة «بشر» على الكائن الهالك، الذي من شأنه أن يفنى ويموت.

ألا يحق لنا أن نقف على شيء من مادة «بشر»، فنجد «البَشَرة» وهي ظاهر جلد الإنسان التي مصيرها الفناء، وهي قبل أن تفنى يصيبها التلف، وهي تتفسَّخ بعد الموت! أليس هذا هو الفناء والهلاك؟

أقول: ومن هنا كان لي أن أذهب إلى أن «البشر» هو الفاني.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

والمَعِين: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. وقد اختُلف في زيادة ميمه وأصالته؛ فَوَجْهُ من جعله مفعولاً، أنه مُدرَك بالعين لظهوره، من عانَه: إذا أدركه بعينه، ووجه من جعَله

فعيلاً أنه نفّاع بظهوره وجريه، من الماعون، وهو المنفعة. وأرى: أن «معين» من «العين»، والميم زائدة على نحو المبيع والمدين وغيرهما، وذلك لأن دلالة «العين» على الماء معروفة، فالعَين عين الماء في إحدى دلالاتها الكثيرة، ومنها قالوا: عانت البئر عيناً، أي: كدُرَ ماؤها.

وعانَ الماءُ والدمعُ يعين عيناً وعَيَاناً: جرى وسال.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

و«الغَمرة»: الماء الذي يغمُرُ القامة؛ فضُرِبَتْ مثلاً، لما هم مغمورون فيه من جهلهم وعَمايتهم.

أقول: والغَمْر: الماء الكثير.

والغَمْرةُ أيضاً: الشدّة، وغمرات الهمّ والموت أي شدّتهما.

والمغمور من الرجال: الذي ليس بمشهور.

والغامر من الأرض خلاف العامر.

وهكذا يذهب المعنى في مادة «غمر».

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.

أي: تُدبرون، وتستأخرون، وترجعون القَهْقَرى مكذّبين.

أقول: وهذه الآية أورثت العربية قول القائل: فلان نكص على عَقِبيه، بهذا المعنى، والعبارة ما زالت جارية في عربية العصر.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [الآية ٧٠].

الجِنّة: الجنون وهو المصدر.

وتأتي «الجِنّةُ» بمعنى «الجنون» في آيات أخرى منها:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف/ ١٨٤].

كما تأتي بمعنى «الجِنّ» كقوله تعالى:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود].

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس].

أقول: الجِنُّ أصل المادة اللغوية، والجِنُّ عالَمٌ خَفِيٌّ، جاء ذكره وشيء من أمره في آيات كثيرة؛ وعلى رأس الجِنِّ إبليس اللعين الذي يُغوي الناس، كما جاء في التنزيل العزيز.

ولما كان «الجن»، وهو جمهرة هذه المخلوقات قد خَفِيَ عن النظر، ولا يبصره الناس، أفادت العربية من هذه المادة، مواد كثيرة، تُدُلُّ جميعها على الخفاء والتَستّر، فجاء الفعل «جن» بمعنى أخفى وستر، ومن أجل ذلك قيل: جَنَّ عليه الليلُ، أي: أخفاه وستره.

ومن هذا الأمر، قيل للمخلوق بعد النطفة والمضغة والعَلَقة في بطن الأم، «جنيناً»، وذلك لخفائه أيضاً.

ومن هذا قيل للقلب «جَنان» بفتح الجيم، لأنه مستور.

وقيل: للدّرع، يستر به المحارب صدره، جُنّة ومِجَنّ.

ثم اتسع الأمر أكثر من ذلك، فقيل لفاقد العقل «مجنون»، أو به جُنون أو جِنّة، وذلك من تصور العرب أن «الجِنّ» أغوته وأفقدته العقل.

والفعل مبنيّ للمفعول «جُنّ».

وبعد، فهذه المادة وُجدت في غير العربية من اللغات السامية؛ ولكن تلك اللغات، لم تتصرف في هذه المادة على النحو البديع، الذي ورد في العربية، وهذا شيء من عبقرية هذه اللغة.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [الآية ٧٢].

وقرئ: خرَاجاً فخراج، وخَرْجا فخَرْج...

والخرج ما يُخرجه الرجل إلى الإمام من زكاة الأرض، وإلى كلِّ عاملٍ من أُجرته وجُعْلِه.

وقيلَ: الخَرْج ما تَبَرَّعت به، والخَراج ما لَزِمَك أداؤه.

والوجه أن الخَرْجَ أَخَصُّ من الخراج، كقولك: خراج القرية، وخَرْجُ الكَرْدة، وزيادة اللفظ لزيادة المعنى، ولذلك حسنت قراءة من قرأ:

«خرجاً فخراج ربك»[1].

أقول: وهذا شيء من تصرف المعربين بمادة هذه اللغة؛ فقد أفادوا من مادة «خرج» الدالة على الخروج ضد الدخول، في وضع هذه المصطلحات الفنية.

١٦ ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا

(١) الزمخشري: الكشاف ٣/١٩٦.

عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴿٧٧﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُبْلِسُونَ﴿٧٧﴾﴾ أي: متحيّرون يائسون.

أقول: لعل الفعل «أبلس»، ومادة «بلس» أيضاً ذات علاقة بـ «إبليس»!

١٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الآية ٧٨].

أقول: لم يرد السمع إلاّ مفرداً، وهو مقترن بـ «الأبصار» جمعاً، في جميع آي القرآن، ما عدا قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴿٣٦﴾﴾.

وهذا ما لاحظناه وليس لنا أن نتكلم فيه، ولكلام الله أسرار وفوائد كثيرة.

١٨ ـ وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الآية ٩٦].

وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: الحُسنى إرادة التفضيل، ومن أجل ذلك لا يتحقّق إحكام المعنى، لو يقال: ادفع بالحسنة السيئة.

١٩ ـ وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

أريد بـ «الموازين» الأعمال الصالحات، والاستعارة جميلة، فثِقَل الموازين يدل على سعة العمل الصالح، ووزنه وقيمته. وبعكسه من كان خفيف الموزون من العمل الصالح، وقد كنا عرضنا لشيء من هذا في آية سابقة.

المعاني اللغوية في سورة «المؤمنون»(*)

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الآية ٥٢] بنصب ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على الحال. وقرأ بعضهم (أُمَّتُكُم أُمَّةٌ واحدةٌ) على البدل ورفع (أُمَّةٌ واحِدَةٌ) على الخبر[1].

وقال تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [الآية ٦٤] من «جَأَرَ» «يَجْأَرُ» «جُؤاراً» و«جَأْراً».

وقال سبحانه: ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [الآية ٦٦] و(تَنْكُصُون)[2]

وقال تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ [الآية ١٠٨] من «خسأ» «يَخْسَأُ» تقول: «خَسَأْتُهُ» فـ «خَسَأَ».

وقال سبحانه: ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [الآية ٦١] أي: من أجلها.

وقال تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الآية ١٤] والخالقون هم الصانعون[3]. وقال الشاعر[4] [من الكامل الأحذ، وهو

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) القراءة برفع ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ ونصب ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هي في معاني القرآن، إلى اهل الحجاز والحسن، وفي الطبري ١٨/ ٢٩، الى عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة، وفي التيسير ١٥٩ الى غير الكوفيين؛ وفي السبعة ٤٤٦ الى ابن كثير، ونافع وأبي عمرو. أمّا القراءة بنصب ﴿أُمَّتَكُمْ﴾، ورفع ﴿أُمَّةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، فهي في معاني القرآن ٢/ ٢٣٧ الى عاصم، والأعمش؛ وفي الطبري ١٨/ ٢٩، الى عامة قراء الكوفيين؛ وفي السبعة ٤٤٦ الى عاصم، وحمزة، والكسائي؛ وفي التيسير ١٥٩ الى الكوفيين.

(٢) في الجامع ١٢/ ١٣٦، والبحر ٤١٢، الى الامام علي (ع).

(٣) نقله في زاد المسير ٥/ ٤٦٤.

(٤) هو زهير بن أبي سُلمى المزني. ديوانه ٩٤، والكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ٢٨٩.

الشاهد الثالث والخمسون بعد المئتين]:

وَأَرَاكَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ
ضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثُم لاَ يَفْرِي[1]

وقال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ﴾ [الآية ٢٠] على ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾[2] ﴿وَشَجَرَةً﴾.

وقال سبحانه ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية ١١٤] أي: مَا لَبِثْتُمْ إِلاّ قَلِيلا. وفي حرف ابن مسعود (إِنْ لَبِثْتُمْ لَقَلِيلاً). وقال الشاعر[3]: [من الكامل وهو الشاهد الرابع والخمسون بعد المئتين]:

هَبِلَتْكَ أُمُّكَ إِنْ قَتَلْتَ لَمُسْلِماً
وَجَبَتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ المُتَعَمِّدِ[4]

---

(١) في الديوان: «ولأنت» بدل «وأراك».

(٢) في الآية التاسعة عشرة وهي ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

(٣) البيت لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، والبيت في رثاء زوجها الزبير بن العوام. الخزانة ٣٤٨/٤، وشرح شواهد المغني ٢٦، والدرر اللوامع ١١٩/١، والمقاصد النحوية ٢٧٨.

(٤) في شرح المفصل لابن يعيش ٨/ ٧١ بـ «الله ربك» بدل «هبلتك أمك»، وكذلك في ٧٢. وفي الخزانة ٣٤٨/٤ بـ «تالله ربك»، وفي الإنصاف ٣٣٦/٢، والمقرب ١١٢/١ ومغني اللبيب ٢٤/١، والدرر ١٩٩/١، والمقاصد النحوية ٢٧٨/٢، وشرح شواهد المغني ٢٦، وفي شرح المفصل لابن يعيش ٧٦/٨ بـ «شلت يمينك»، وفي الإنصاف ٣٣٦/٢ بـ «كتبت» بدل «وجدت» وفي سائر المصادر بـ «حلت».

لكل سؤال جواب في سورة «المؤمنون»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾. وحفظ الفرج إنما يعدى بعن لا بعلى، يقال فلان يحفظ فرجه عن الحرام، ولا يقال على الحرام؟

قلنا: «على» هنا بمعنى عن، كما في قول الشاعر:

إذا رَضِيَتْ عليّ بَنُو قُشيرٍ
لَعَمْرُ اللهِ أعْجَبَني رِضاها

الثاني: أنه متعلق بمحذوف تقديره: فلا يرسلونها إلا على أزواجهم.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ لِمَ خُصَّ الإخبار عن الموت، الذي لم ينكره الكفار، بلام التأكيد دون الإخبار عن البعث الذي أنكروه، والظاهر يقتضي عكس ذلك؟

قلنا: لمّا كان العطف يقتضي الاشتراك في الحكم، استغني به عن إعادة لفظ اللام، الموجبة لزيادة التأكيد، فإنها ثابتةٌ معنًى بالعطف، ولا يلزم على هذا عدم إعادة إنَّ، لأنها الأصل في التأكيد، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمسّ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [الآية ٢٠] والمراد بها شجرة الزيتون، وهي تخرج من الجبل الذي يسمى طور سيناء ومن غيره؟

قلنا: قيل إن أصل شجرة الزيتون من طور سيناء؛ ثم نقلت إلى سائر

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

المواضع. وقيل إنما أضيفت إلى ذلك الجبل، لأنّ خروجها في غيره من المواضع.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [الآية ٧٠]، خبر عن كفّار مكة، فَلِمَ قال تعالى في الآية نفسها: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي بالتوحيد، أو بالقرآن ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ ولم يقل وكلّهم، مع أنّهم كلّهم كانوا للتوحيد كارهين، بدليل قولهم، كما ورد في التنزيل ﴿بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؟

قلنا: كان فيهم مَنْ تَرَكَ الإيمانُ به أَنَفَةً واستنكافاً، من توبيخ قومه، لئلاّ يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق.

فإن قيل: لِمَ جَمَعَ سبحانه فقال ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ٩٩﴾ ولم يقل «ارْجِعْني»، والمخاطب واحد، وهو الله تعالى؟

قلنا: هو جمع للتفخيم والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس/١٢] وأشباهه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾. وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧﴾ [الصافات]؟

قلنا: يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، ففيه أحوال مختلفة، ففي بعضها يتساءلون، وفي بعضها لا ينطقون لشدة الهول والفزع.

المعاني المجازية في سورة «المؤمنون»[*]

في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ استعارة. لأن حقيقة السلالة هي أن تسلَّ الشيء من الشيء. فكأن آدم (ع)، لمّا خُلِق من أديم الأرض، كان كأنّه انسلَّ منها، واستُخرج من سرّها. وقد صار ذلك عبارة عن محصن الشيء ومُصاصه[1]، وصفوته ولُبَابه. ليس أن هناك شيئاً، استُلَّ من شيء على الحقيقة. وقد تُسمّى النطفة سلالة على هذا المعنى. ويسمى وَلد الرّجل سلالةً أيضاً، على مثل ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ استعارة. لأن المراد بالطرائق ههنا السماوات السبع، مشبّهةً بطرائق النّعل، وواحدتها: طرِيقَةٌ. وقد يجمع أيضاً على طريق. فهي قطع الجلود يُجعل بعضها فوق بعض وينتظم بالخرز. ويقال: طارقت النعل. من ذلك.

وفي قوله سبحانه: ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [الآية ٢٧] استعارة. والقولُ فيها كالقول في: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه/٣٩][2]، على حدٍّ سواء. فكأنه سبحانه قال: واصنع الفُلك

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) المُصَاصُ من الشيء: خالِصُهُ. يقال: فلانٌ مصاص قومه. إذا كان أخلصهم نسباً. انظر القاموس المحيط واللسان.

(٢) قد تقدّم الكلام عن هذه الآية في سورة طه.

بحيث نرعاك ونحفظك، ونمنع منك من يريدك.

أو يكون المعنى: واصنع الفُلْك بأعين أوليائنا من الملائكة، والمؤمنين، فإنّا نَمْنَعُك بهم، ونشدّك بمعاضدتهم، فلا يَصِلُ إليك مَن أرادك، ولا تَبْلُغك مرامي مَنْ كادك.

وفي قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٤١﴾﴾ استعارة.

والمراد بها، والله أعلم، أنه عَاجَلهم بالاستئصال والهَلاَك، فطاحوا كما يَطِيح الغُثَاء، إذا سال به السيل. والغُثَاءُ: ما حَمَلت السيولُ في ممَرها من أضغاث النبات، وهشيم الأوراق، وما يجري مجرى ذلك. فكأنّ أولئك القوم هلكوا، ولم يُحَسّ لهم أثر، كما لا يُحسُّ أثر ما طاح به السيل، من هذه الأشياء المذكورة.

والعرب يعبّرون عن هلاك القوم بقولهم: قد سال بهم السيل. فيجوز أن يكون قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾، كناية عن الهلاك، كما كَنوا بقولهم: سال بهم السيل عن الهلاك.

والمعنى: فجعلناهم كالغُثَاء الطافح في سرعة انجفاله[1]، وهوان فقدانه.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿٦٢﴾﴾ استعارة. والنطقُ لا يُوصف به، إلاّ من يتكلم بآلة.

وكان قاضي القضاة[2] أبو الحسن يجيب بذلك من يسأله: هل يجوز أن يوصف القديم تعالى بأنه ناطق، كما يوصف بأنه يتكلّم؟ فمنع من ذلك، وقال: ما قدّمت ذكره. فوصف سبحانه القرآن بالنطق، مبالغةً في وصفه بإظهار البيان. وإعلان البرهان، وتشبيها باللسان الناطق، في الإبانة عن ضميره، والكشف عن مستوره.

وفي قوله سبحانه: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [الآية ٦٣] استعارة. والمراد بها، أنّ القوم الذين قال سبحانه فيهم، أمام هذه الآية، هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي في حيرة تغمرها، وغمّة تسترها. والغَمْر جمع غَمرة. وهو ما وقع الإنسان فيه من أمرٍ

(١) الانجفال: الهرب في إسراع.

(٢) تقدمت ترجمتنا له عند الكلام في مجازات سورة الكهف.

منهل، وخطْب جلل، مشبه بغمرات الماء التي تغمر الواقع فيها، وتأخذ بكَظَم[1] المغمور بها.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الآية ٧١] استعارة. والمراد بها: ولو كان الحق موافقاً لأهوائهم، لعاد كلٌ إلى ضلاله، وأوقع كلٌ في بطله، لأن الحق يدعو إلى المصالح والمحاسن؛ والأهواء تدعو إلى المفاسد والمقابح. فلو اتبع الحقُّ قائد الهوى لَشَمَلَ الفساد، وعمَّ الاختلاط، وخُفِضت أعلام الهداية، ورُفِع منار الغواية.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴿١٠٣﴾﴾ استعارة على أحد التأويلين، وهو أن يكون معنى الموازين ههنا المعادلة بين الأعمال بالحق.

(١) الكظم بفتح الكاف والظاء: مخرج النفس. جمعه أكظام وكظام.

سورة النُّور

٢٤

أهداف سورة «النور»(*)

سورة النور سورة مدنية، وآياتها ٦٤ آية، نزلت بعد سورة الحشر، وسميّت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [الآية ٣٥].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية ٣٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [الآية ٤٠].

روح السورة

هذه سورة الآداب والأخلاق والتربية الإسلامية الهادفة، إنها الأخلاق والقِيَم المنبعثة عن إيمان المؤمن بالله، فإذا دخل نور الإيمان في القلب، اتّسع له الصدر، وانشرح له الفؤاد:

وإذا حلّت الهدايةُ قلباً
نشطت في العبادةِ الأعضاءُ

وقد ذُكر النور في هذه السورة بلفظه، كما ذكر بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، ممثّلةً هذه الآثارُ في بيان الفرائض والأحكام، التي يقوم عليها بناء السورة، وهي أحكام وآداب نفسية وعائلية وجماعية، تؤدي إلى طهارة الفرد وسلامة المجتمع. تبدأ سورة النور بإعلان قويّ حاسم عن تقرير هذه السورة وفَرْضِها، بكل ما فيها من حدود وتكاليف، من آداب وأخلاق:

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾.

فيدُلُّ هذا البدء الفريد، على مدى اهتمام القرآن، بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر، وأصالتِه في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الاسلام عن الحياة الإنسانية...

والمحور الذي تدور عليه السورة كلُها: محور التربية، التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وتَرِقُّ إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة، التي تَصِل القلب بنور الله.

والهدف واحد في الشدّة واللين: تربيةُ الضمائر، واستجاشة المشاعر، ورفع المقاييس الأخلاقية للحياة، حتى تَشِفّ وتّصل بنور الله.

وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة، بوصفها نابعةً كلّها من مَعينٍ واحد، هو العقيدة في الله، متّصلةً كلّها بنور واحد، هو نور الله.

فقرات السورة

يجري سياق سورة النور في خمس فقرات:

الفقرة الأولى:

تتضمن الفقرة الأولى الإعلانَ الحاسم الذي تبدأ به، ويليه بيانُ حَدِّ الزنا، وتفظيعُ هذه الفِعْلة، وتقطيعُ ما بين الزُناةِ والجماعة المسلمة، فلا هي منهم ولا هم منها، ثم بيانُ حدّ القَذْف وعلّةِ التشديد فيه، واستثناءِ الأزواج من هذا الحدّ، مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة، ثم حديثُ الإفك وقصّته، وتنتهي هذه الفقرة، بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات، ومشاكلة الطيِّبين للطيّبات، وبالعَلاقة التي تربط هؤلاء بهؤلاء؛ وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ٢٦.

الفقرة الثانية:

تتناول الفقرة الثانية وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغِواية. فتبدأ بآداب البيوت، والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر، والنهي عن إبداء الزِّينة لغير المحارم، والحضّ على إنكاح الأيامى، والتحذير من دفع الفتيات إلى البِغاء... وكلها أسبابٌ وِقائية، لضمانة الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور، وَدفْعِ المؤثرات،

التي تَهِيجُ الميولَ الحيوانية، وتُزهق أعصاب المتحرّجين المتطهّرين، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية؛ وتستغرق هذه الفقرة الآيات [٢٧ ـ ٣٤].

الفقرة الثالثة:

تتوسط هذه الفقرة، مجموعة الآداب التي تضمنتها السورة، فتربطها بنور الله، وتتحدث عن أطهر البيوت، عن الرجال المؤمنين الذين يَعْمُرون بيوت الله.

وفي الجانب المقابل: الذين كفروا، وأعمالهم الشبيهة بِسرابٍ من اللّمعان الكاذب، أو بظلماتٍ بعضُها فوق بعض ثم تكشف الآيات عن فُيُوضٍ من نور الله في الآفاق: في تسبيح الخلائق كلّها لله، وفي إزجاء السحاب، وفي تقليب الليل والنهار، وفي خَلْقِ كلّ دابة من ماء، ثم اختلاف أشكالها، ووظائِفِها، وأنواعِها وأجناسها، ممّا هو معروض في صفحة الكون، للبصائر والأبصار؛ وتستغرق هذه الفقرة الآيات [٣٥ ـ ٤٦].

الفقرة الرابعة:

تتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله (ص)، في الطاعة والتحاكم، وتُصَوّر أدبَ المؤمنين الخالص، وطاعتَهم؛ وتَعِدُهم، على هذا، الاستخلافَ في الأرض، والتمكينَ في الدين، والنصرَ على الكافرين؛ وتستغرق هذه الفقرة الآيات [٤٧ ـ ٥٧].

الفقرة الخامسة:

تستأنف هذه الفقرة الحديث عن آداب الاستئذان والضيافة، في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء، وتتحدّث عن آداب الجماعة المسلمة كلّها، كأسرة واحدة، مع رئيسها ومربيها، رسول الله (ص).

وتكتمل السورة، بإعلان ملكية الله سبحانه لِمَا في السموات والأرض، وعِلْمِه بواقع الناس، وما تنطوي عليه حناياهم، ورَجْعتِهم إليه، وحسابِهم على ما يعلمه من أمرهم، وهو بكل شيء عليم. وتستغرق هذه الفقرة الآيات [٥٨ ـ ٦٤].

أثر السورة في حفظ المجتمع

نَلْحَظ أن سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بنور الله وذكره، وتَذَكُّرِ

جلاله وعظمته. وهي سياجٌ للفرد والمجتمع، من الانحلال والتردي في الخطيئة، فقد أمرت بغضّ البصر، وحِفْظ الفرج، ونهت عن دخول البيوت بغير إذن وإيذان، ونهت عن قذف المُحْصَنات، وبيّنت عقوبة البهتان، وإلصاقِ التهم الكاذبة بالمستقيمين، وذمّت إشاعة الفاحشة، وأظهرت عجائب صُنْعِ الله في إرسال المطر ، وتفصيل أصناف الحيوان، وحثّت على التوبة والإنابة، وبذلك أخذت بيد الإنسان، إلى الطريق الصحيح، ورفعت عنه عوامل الإحباط والانتكاس، وبيّنت أن الله مطلّع على كل شيء؛ فقد ختمت بهذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «النور»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة النور بعد سورة الحشر، ونزلت سورة الحشر بين صلح الحُدَيبية وغزوة تبوك، فيكون نزول سورة النور في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في الآية ٣٥ منها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وتبلغ آياتها أربعاً وستين آية.

الغرض منها وترتيبها

غَرَضُ هذه السورة بيان بعض الأحكام العملية، التي تتعلق بحفظ الفروج والأعراض، كحكم الزنا والقذف والنظر، وغيره من الأحكام الآتية فيها، وقد جاء فيها، من الاستطراد، ما قُصِدَ به تنويع أسلوبها، على عادة القرآن، إذا أخذ في بيان هذه الأحكام.

وقد ذُكرت هذه السورة بعد السورة السابقة، لأنها ابتُدِئت بذكر بعض أحكام الإيمان العملية، على سبيل الإجمال، وكان من ضمنها حفظ الفروج إلا على الأزواج أو نحوهم؛ فجاءت هذه السورة بعدها، لتفصيل الأحكام المتعلّقة بحفظ الفروج والأعراض.

حكم الزّنا
الآيات [١ ــ ٣]

قال الله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾ فبيَّنَ أنه أنزل هذه السورة وقدَّرَ فيها ما قدر من الحدود والأحكام. وهذه الآية فيها براعةُ مطلعٍ للغرض من السورة؛ ثم ذكر تعالى حدّ الزنا، من جَلْدِ كلٍ من الزاني والزانية مِائة جلدة، وَحرَّم زواج الزاني على المؤمنة العفيفة، وزواج الزانية على المؤمن العفيف.

حكم القذف
الآيات [٤ ـ ٢٦]

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ فَذَكَر حدّ القذف، وهو ثمانون جلدة، ثم ذكر أن من يقذفون أزواجهم بالزنا، وليس لديهم أربعةُ شهداء على زِنَاهُن، يُلاعِن كلٌ منهم الآخر، فيدرأ لعانه حدُّ القذف عنه، ويدرأ لِعانَها حدُّ الزنا عنها، وهذا من فضله تعالى ورحمته بهما.

ثم ذكر، سبحانه، أنّ حديث الإفك كان شراً كبيراً، وأوعد الذي تولّى كِبَرَه بعذاب عظيم يوم القيامة، ولام من استمعه من المؤمنين ولم يزجر من قاله، ثم وعظهم ألاّ يعودوا إلى مثله إن كانوا مؤمنين، وأنذر الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، بعذاب أليم في الدنيا والآخرة، ونهاهم عن اتّباع خطواتِ الشيطان، لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر؛ وذَكَرَ لهم سبحانه، أنه، لولا فضله عليهم، لأوقعهم الشيطان في هتك أعراضهم، فلا يزكو أحد منهم أبداً؛ ثم أمرهم أن يعاملوا القاذفين بعد إقامة الحدّ عليهم بالعفو والصفح، فمن كان منهم فقيراً أو كانت له قرابة بالمقذوف وأهله، فَلْيَمْضُوا في الإحسانِ إليه، ولا يقطعوه عنه؛ ثم عاد إلى إنذار من يقذف المُحْصَنات الغافلات، باللعن في الدنيا والآخرة، وبعذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، بما كانوا يعملون، ثم ختم ذلك بدليل قاطع في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهو أن الخبيثات يَكُنّ أزواجاً للخبيثين والعكس أيضاً يكون، والطيبات يكن أزواجاً للطيبين والعكس أيضاً يكون، ولو كانت عائشة خبيثة ما اختيرَتْ زَوْجاً للنبي (ص).

حكم دخول البيوت
الآيات [٢٧ ـ ٢٩]

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فنهاهم عن دخول بيوتٍ غير بيوتهم، إلاّ بعد الاستعلام والسلام على أهلها، وأباح لهم أن يدخلوا البيوت التي لا تُتَّخَذُ للسكنى، من غير استئذان، إذا كان فيها متاع لهم.

حكم النظر
الآيتان [٣٠ ـ ٣١]

ثم قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فأَمَرَ الرجال بغضِّ البصر عن النساء، وحِفْظِ فروجهم؛ وأَمَرَ النساء بغض البصر عن الرجال، وحِفْظِ فروجهنّ؛ ونهاهُنَّ أن يُظهرن زينتهن إلا ما ظهر منها؛ وأَمَرَهُنَّ أن يَضرِبْن بخُمُرِهنَّ على جيوبهنّ؛ ونهاهنّ أن يُظْهِرْنَ زينتهنّ إلا لبعولتهنّ، أو غيرهم ممن ذكرهم سبحانه، وأن يَضرِبْنَ بأرجلهنّ ليُعلم ما يُخفين من زينتهنّ.

أحكام أخرى
الآيات [٣٢ ـ ٥٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ فأَمَرَهُمْ بإنكاح مَنْ تأيَّم منهم من الأحرار والحرائر، ومن كان فيه صلاح للنكاح من الغلمان والجواري؛ وأَمَرَ مَنْ لا يجد مَهْراً، أن يصون نفسه حتى يغنيه؛ وأمر بمكاتبة الأرقّاء إن علموا فيهم خيراً؛ ونهاهم عمّا كانوا يفعلونه من إكراه فتياتهم على البِغاء.

ثم التفت السياق إلى التنويه بشأن القرآن، الذي نزل بمثل تلك الأحكام، بجعله نوراً من الله تعالى أضاءَ به السماوات والأرض؛ وذَكَرَ جلَّ وعلا أنّ مَثَلَ نورهِ كمِشكاةٍ فيها مصباحٌ موضوعٌ في زجاجة، كأنها كوكب دُرِّيٌ، يوقد من زيتونةٍ، يكاد زيتها يضيءُ، ولو لم تَمْسَسْهُ نار؛ وذكر أنه يهدي لهذا النور مَنْ يشاء، من رجالٍ لا تُلْهِيهم تجارة ولا بَيْعٌ عن ذكره؛ ثم ضَرَب مثلا لظلمة الكفر به، فذكر أنه كسرابٍ بِقِيعَةٍ، يَحْسَبُه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، أو

كظلماتٍ في بحر لُجّي، يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ، من فوقه سحابٌ الخ.

ثم أتبَعَ ذلك، بذكر بعض الآيات الكونية، التي تدلّ على صدْق ما يدعو إليه من الإيمان به، فذكر سبحانه أنه يَخْضَع له مَنْ في السماوات والأرض وما بينهما، إلى غير هذا ممّا ذكره من تلك الآيات.

ثم ذكر من ذلك الكفر أشدّه ظلمة، وهو النفاق الذي يصير بأهله إلى إظهار الإيمان والطاعة، فإذا دُعوا إلى الله ورسوله، لِيَحْكُمَ بينهم أعرَضُوا عنه، إن لم يكن لهم الحق، وإن كان لهم الحق أتَوْا إليه مذعنين؛ ثم ذكر أنهم يُقْسِمون به، لئن أمرهم بالخروج إلى القتال لَيَخْرُجُنَّ إليه؛ ونهاهم عن ذلك، لأن المطلوب منهم طاعة معروفة، لا أيمانٌ كاذبة؛ ثم أمر الرسول (ص) أن يأمرهم بتلك الطاعة، فإن أعرضوا بعد ذلك، فقد أدّى رسالته، وليس عليه إلا أن يؤدّيها لهم؛ ثم وَعَدَ مَنْ يُطيعه، أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الطائعين قبلهم؛ وأمرهم أن يُقِيموا الصلاة، ويُؤتوا الزكاة، ويطيعوا الرسول (ص) في كل ما يأمرهم به؛ ونهاه أن يظنّ أن أولئك الكفار يُعْجِزونه عن إدراكهم، ليحقّق وعده لمن آمن به: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

حكم دخول البيوت للغلمان ونحوهم الآيات [٥٨ ـ ٦١]

ثم قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ﴾ [الآية ٥٨] فأباح لمن ملكت أيمانهم، ومن لم يبلغ منهم أن يدخلوا عليهم بغير إذن إلا في ثلاثة أوقات: الوقت الذي يكون قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة الذي يضعون فيه ثيابهم، والوقت الذي يكون بعد صلاة العشاء، فلا يدخلون عليهم فيها إلاّ بإذن؛ ثم ذكر سبحانه، أنه لا حرج على من انقطعت الرغبة في نكاحهن، لِكِبَرِهِنّ، أن يضعن خُمُرَهُنّ عن رؤوسهن، ولكنّ التستّر خير لهن؛ وذكر جلّ شأنه، أنه لا حَرَجَ على الأعمى، والأعرج، والمريض، في دخول البيوت، والأكل منها لحاجتهم، ولا حرج عليهم أن يأكلوا من بيوت أزواجهم، أو بيوت آبائهم، أو نحوهم

ممّن ذكرهم؛ ثم أمرهم إذا دخلوا بيوتاً أن يسلّموا على أهلها: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

حكم الاجتماع في بيوت الندوة
الآيات [٦٢ ـ ٦٤]

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [الآية ٦٢]. فذكر أنه، إذا اجتمع النبيّ (ص) والمؤمنون، للتشاور في أمرٍ يهمهم، لم يجز لهم أن يخرجوا حتى يستأذنوه، وأمره إذا استأذنوه في الخروج لبعض شأنهم، أن يأذن لمن يرى له عذراً منهم، ثم نهاهم أن يتخلّفوا عن دعوته إذا دعاهم للتشاور في أمر من الأمور، وحذّر الذين لا يجيبون دعوته أن تصيبهم فتنة، أو يصيبهم عذاب أليم: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «النور»(*)

أقول: وجه اتصالها بسورة «قد أفلح»، أي سورة «المؤمنون»: أنه لما قال تعالى في الآية الخامسة منها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، ذَكَرَ في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر[1]، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، وحِفْظِ فَرجه، ونَهَى عن إكراه الفتيات على الزنا[2].

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) الزانية والزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [الآية ٢]. إلى ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وجاء القذف في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [الآية ٤] الى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾. وهو شامل لأحكام اللِّعان.

وقصة الافك هي التي أرجف بها المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حتى برأها الله تعالى، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [الآية ١١] الى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وجاء غض البصر في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [الآية ٣٠] إلى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(٢) جاء الأمر بالنكاح، والاستعفاف لغير القادر، وعدم إكراه الفتيات على البغاء في الآيتين [٣٢ ـ ٣٣].

مكنونات سورة «النور»[*]

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ [الآية ١١].

حَسَّان بنُ ثابت، ومِسْطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، وعبد الله بن أُبيّ؛ وهو الذي تولى كِبره. كما أخرجه الشيخان[*] وغيرهما.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(*) البخاري (٤١٤١) في المغازي من «صحيحه»، ومسلم في التوبة باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠).

لغة التنزيل في سورة «النور»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

«كِبْره» قُرِئَ بضم الكاف وكسرها، وكُبْر الشيء عظمه، أي: والذي تَحَمَّل معظم الشر في حديث الإفك هو عبد الله بْنُ أُبَيّ، رأس النفاق مع جماعته؛ أقول: والكِبْرُ بالكسر على أنه العِظَم والمُعْظم من باب ما جاء على «فِعْل» بكسر الفاء من الأسماء الثلاثية، كالذِّبح والنِّقْض والمِسْخ وغير ذلك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ للتعجب من عِظَم الأمر.

أقول: إن «سبحان»، مصدر أفاد التعجب في هذه الآية، كما أفاد معاني أخرى في غيرها.

وقولنا: «سبحانَ الله» معناه: تنزيهاً لله من الصاحبة والولد، وقيل: تنزيه الله تعالى عن كل مالا ينبغي له أن يُوصف به.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء/الآية الأولى].

معناه: أُسَبِّحُ الله تسبيحاً.

أقول: فما معنى قول بعض النحويين إنه اسم فعل مضارع؟ لعلهم لم يذهبوا إلى هذا إلاّ بسبب تفسيرهم له، أي: أنه بمعنى أُسبِّح. ولعل تفسيرهم بالمصدر جَرّأهم على ذلك.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ [الآية ١٧].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

والمعنى: كراهة أن تعودوا لمثله. وحذف المصدر هذا المُبَيِّن للسبب والعلة كثير في القرآن، وقد مرّ بنا شيء منه.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [الآية ٢١].

أقول: قوله تعالى ﴿أَبَدًا﴾، أي: إلى الأبد، وهو الزمن الدائم المتصل، ونصبه على الظرفية. وَذِكْرُ الظرف هنا أفاد تأبيد النفي بـ «ما». وقد ورثنا هذا الأسلوب في النفي في عربيتنا المعاصرة حتى كأن (أبداً) في استعمال المعاصرين شيء من حواشي النفي وضروراته.

وكما ترد «أبداً» في حشو النفي لإرادة التأبيد، ترد أيضاً في الإثبات فيقال مثلاً: أشتاقُه أبداً.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [الآية ٣١].

الجُيُوب: جمع جَيْب، والجَيب جيب القميص والدرع.

وجَيَبْتُ القميصَ: قوَّرْتُ جَيْبَه.

أقول: والجَيْب له دلالة جديدة في عصرنا، واستعماله، بهذا المعنى الجديد، رُبَّما عُرِفَ قبل عصرنا هذا.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية ٣١].

الطفل: اسم جمع ويكون للواحد. وانظر [الحج/ ٥].

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [الآية ٣٢].

أقول: الأيامَى: جمع أيِّم، رجلاً كان أو امرأة، وقد آم الرجلُ وآمَت المرأة: إذا لم يتزوَّجا، بِكرَيْن كانا أو ثيِّبَيْن.

والمراد أنكِحوا من تأيَّم منكم من الأحرار والحرائر، والخطاب للمذكر على وجه التغليب.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [الآية ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: وليجتهد في العفّة وظَلْف النفس، كأن المستعفف طالبٌ من نفسه العَفاف وحاملها عليه.

وهذا من فوائد زيادة الهمزة والسين والتاء في الفعل.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [الآية ٣٥].

أقول: وينبغي أن ننظر إلى هذا الاستعمال البليغ في معناه الرشيق في خفة لفظه، ألا ترى أننا نقول في مثل هذا في العربية المعاصرة: . . . حتى ولو لم يكن له حاجة، أو نقول: حتى وإن لم تكن له حاجة. . .

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [الآية ٣٩].

والقِيعة: بمعنى القاع، ولعلها جمع القاع، وهو المنبسط المستوي من الأرض وهي مثل جيرة في جار.

أقول: وهذا الجمع في «قاع» من الجموع العزيزة: ذلك أن المشهور المعروف في جمعها: «قيعان».

١١ ـ وقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الآية ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الخِلال: جمع خَلَل مثل جبال وجَبَل.

وقُرِئ: من خَلَله.

وقد جُرَّت «خلال» بـ «من» لبيان الخروج وبدايته. ولتضمن «الخَلَل»، و«الخِلال» معنى المكانية، قربت «خلال» من الظرفية التي تُقوَّى بالحرف «في» فيقال: ومرّ في خلال أو من خلال ذلك، مثلاً.

وقد شاع هذا الاستعمال الذي يومِئ إلى الظرفية فاستغني عن الخافض، فصار المعربون يقولون: «حدث خلال ذلك»، أي: «في خلال». وقد جَدَّ في هذا الاستعمال المعاصر، شيء آخر، وهو أن الكلمة قد اتُّسِع فيها، فدلَّت على الظرفية الزمانية، بعد أن كانت تفيد المكان، على أن المعاصرين رُبما استعملوها للمكان أيضاً، فقالوا مثلاً: يجري الماء في خلال الشجر، أو من خلاله.

ومثل «خلال» هذه، كلمة «أثناء»، وهي جمع «ثِنْي»، وهو اسم يعني ما يُثْنَى من أشياء مختلفة. وليس في «ثِنْي» ولا في «أثناء» ما يفيد الظرفية الزمانية، ولكن هذه الظرفية استفيدت من استعمال الأداة «في» كقولنا: حَدَثَ في أثناء ذلك كيت وكيت.

وعلى عادة المعربين في كل العصور، يميلون إلى الإيجاز والتخفّف ممّا هو قد عُرِفَ واشْتَهَرَ، فيقولون: حدثَ أثناء ذلك كيت وكيت، فهم يسقطون الأداة «في» إيجازاً لمعرفتها.

ومثل هاتين الكلمتين في إفادة

الظرفية «خلال، أثناء» قولهم: «غضون» والغُضون: جمع «غَضْن»، وهو ما تغضَّنَ، أي: تكسَّر في الجلد والثوب ونحوهما.

وكما قلنا: في كلمة «أثناء»، نقول: في هذه الكلمة، أي: أنها لا تدل على الظرفية الزمانية، إلا بعد استعمال الأداة «في»، فنقول: وحَدَثَ في غضون ذلك، والمراد: وحَدَثَ في أثناء ذلك أو في خلال ذلك.

وقد نبَّهَ أهل التصحيح، للخطأ اللغوي، فقالوا بخطأ قولهم: حدث خلال أو أثناء، والصحيح عندهم استعمال الأداة «في» قبلهما للدلالة على الظرفية.

والذي أراه: أن الكلمة أو التركيب «في خلال»، «وفي أثناء»، لما شاع فيها الدلالة على الظرف، وعُرف حتى غلب على الدلالة في الأصل، جاز أن يستعمل ظرفين من غير أن يُسبَقا بـ «في»، التماساً للإيجاز.

وبعد، ألم نقل: دخل فلان الدارَ، والأصل: دخل فيها؟[1].

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أقول: في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾، جاءت «إذا» التي تفيد الفجاءة، ويتلوها جملة اسمية؛ وهذا هو الأسلوب، الذي جرت عليه لغة التنزيل، فأمّا قول المعربين في عصرنا وقبله، بعدة قرون مثلاً: خرجت فإذا بي أمام حادثةٍ مُروِّعة، فهو أسلوب آخر غير ما جاء في فصيح العربية، وأولها لغة التنزيل؛ فقد جُرَّ الاسم بعدها بالباء، وقالوا في هذه الباء انها زائدة، والتقدير: فإذا أنا أمام...

ومثل هذه الآية قوله تعالى:

(١) والرَدُّ على من يقول إن «أثناء» لا يمكن أن تكون ظرفاً إلا مع الخافض «في»: قولهُ تعالى: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء/٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ [النمل/٦١].

و«خلال» هذه مثل «أثناء»، في كونها جَمعاً لاسم، ولكنها رُشحت للظرفية بالخافض، ثم حُذف هذا الخافض لشيوع الظرفية فيها.

ومما تجب ملاحظته، أن المعاصرين يستعملون «من خلال» بمعنى بوساطة كقولهم مثلاً: نحن نتبين هذه المسألة من خلال دراستنا لنتائجها، وهذا القول ترجمة لشيء من الانكليزية.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس].

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الآية ٥٣].

وقد مرّ بنا مثل هذه الآية في [المائدة/ ٥٣]، وفي [الأنعام/ ١٠٩]. وفي [النحل/ ٣٨].

وهي مفيدة أنهم بالغوا في اليمين وبلغوا الغاية.

المعاني اللغوية في سورة «النور»(*)

قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [الآية ١٧] فهذه ممّا يوصل باللام تقول: «إنْ عُدْتَ لِمَثْلِهِ فإنك ظالِمٌ».

وقال سبحانه: ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [الآية ٣٢] أي «مِنْ عَبِيدِكُم»، كما تقول: «هُمْ عِبَادُ اللهِ» و«عَبِيدُ اللهِ».

وقال تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [الآية ٣٥] أي: كمثل مشكاة. قال سبحانه: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [الآية ٣٥]، بجعله من «الدُّرّ» و(دِرّيء) من «دَرَأ» بالهمز وبجعلها «فِعّيل»، وذلك من تَلأْلُئِهِ.

وأمّا ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية ٣٥]، فالمصباح، في المعنى، أنّ مَثَلَ ما أنار من الحق في بيانه، كَمَثَلِ المشكاة. ليس لله مَثَلٌ تبارك وتعالى.

وقال تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ [الآية ٣١] بجعل (الطفل) جماعة، كما قال سبحانه: ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر/٤٥].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

لكل سؤال جواب في سورة «النور»(*)

فإن قيل: لِمَ قدّمت المرأة في آية حد الزنا، وقدّم الرجل في حدّ السرقة؟

قلنا: لأن الزنا، إنما يتولّد من شهوة الوقاع، وشهوة المرأة أقوى وأكثر؛ والسّرقة إنما تتولد من الجسارة والجراءة والقوة، وذلك في الرجل أكثر وأقوى.

فإن قيل: لِمَ قُدّم الرجل في قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [الآية ٣]؟

قلنا: لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتهما على ما جنيا؛ والمرأة هي الأصل في تلك الجناية، لما ذكرنا. والآية الثانية سبقت لذكر النكاح، والرجل هو الأصل فيه عرفاً، لأنه هو الراغب والخاطب والبادئ بالطلب؛ بخلاف الزنا، فإن الأمر فيه بالعكس غالباً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [الآية ٣] أي لا يتزوج ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [الآية ٣] ونحن نرى الزاني ينكح العفيفة والمسلمة، والزانية ينكحها العفيف والمسلم؟

قلنا: قال عكرمة نزلت هذه الآية في بغايا موسرات كنّ بمكة، وكان لا يدخل عليهن إلا زانٍ من أهل القبلة، أو مشرك من أهل الأوثان، فأراد جماعة من فقراء المهاجرين أن ينكحوهن، فنزلت هذه الآية زجراً لهم عن ذلك.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

فإن قيل: ما الحكمة في دخول «من» في غض البصر، دون حفظ الفرج في قوله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [الآية ٣٠]؟

قلنا: الحكمة فيه الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج، ولهذا يحل النظر في ذوات المحارم، والإماء المستعرضات، إلى عدّة من أعضائهن، ولا يحل شيء من فروجهن.

فإن قيل: ما حكمة ترك الله تعالى ذكر الأعمام والأخوال في قوله سبحانه ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [الآية ٣١] يعني الزينة الخفيّة ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [الآية ٣١]، وهم من المحارم، وحكمهم حكم من استثني في الآية؟

قلنا: سئل الشعبي عن ذلك فقال: لئلاّ يَصِفَها العمّ لابنه، وهو ليس بمَحْرم لها، وكذا الخال فيفضي إلى الفتنة؛ والمعنى فيه أنّ كلّ من استثني يشترك، هو وابنه في المَحْرَمية، إلا العم والخال، وهذا من الدّلالة البليغة على وجوب الاحتياط في سترهن. ولقائل أن يقول: هذه المَفْسدة محتملة في آباء بعولتهن، لاحتمال أن يذكُرها أبو البعل عند ابنه الآخر، وهو ليس بمَحْرم لها؛ وأبو البعل أيضاً نقض على قولهم: إن كل من استثني يشترك هو وابنه في المحرمية.

فإن قيل: لم قال تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [الآية ٣٣] مع أن إكراههن على الزنا حرام في كل حال؟

قلنا: لأن سبب نزول الآية، أنهم في الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا، مع إرادتهن التحصّن، فورد النهي على السبب، وإن لم يكن شرطاً فيه. الثاني أنه تعالى إنما شَرَطَ إرادة التحصّن، لأنّ الإكراه لا يُتَصَوَّرُ إلاّ عند إرادة التحصّن، لأنّ الأَمَةَ، إذا لم ترد التحصّن، فإنها تزني بالطبع، لأن رغبتها في الجماع مستمرة في جميع الأحوال طبعاً، ولا بدّ له من أحد الطريقين. الثالث أن «إن»، بمعنى «إذ»، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]. الرابع: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره: وأنكحوا الأيامى منكم، الصالحين من عبادكم وإمائكم، إن أردن تَحَصُّناً،

ويبقى قوله تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [الآية ٣٣] مطلقاً غير معلق.

فإن قيل: لِمَ مَثَّلَ الله تعالى نُورَه، أي معرفته وهُدَاه في قلب المؤمن، بنور المصباح، في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية ٣٥] ولم يمثّله بنور الشمس، مع أن نورها أتم وأكمل؟

قلنا: المراد تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن بالمصباح: وهو الضوء أو الفتيلة في الزجاجة، والزجاجة في الكوّة التي لا منفذ لها، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا في ما ذكر. الثاني: أن نور المعرفة له آلات، يتوقّف على اجتماعها، كالذهن والفهم والعقل واليقظة وانشراح القلب، وغير ذلك من الخصال الحميدة؛ كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة، وغير ذلك. الثالث: أنّ نور الشمس يُشرق متوجها إلى العالم السفلي، لا إلى العالم العلوي؛ ونور المعرفة يشرق متوجهاً إلى العالم العلوي، كنور المصباح. الرابع: أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار، ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار، كنور المصباح.

الخامس: أن نور الشمس يعمّ جميع الخلائق، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم، كنور المصباح الموصوف.

فإن قيل: إنه تعالى لم يمثّله بنور الشمس لما ذكرتم، فكيف لم يمثله بنور الشمع، مع أنّه أتم وأكمل وأشرق، من نور المصباح؟

قلنا: إنما لم يمثله بنور الشمع، لأن في الشمع غشاً لا محالة، بخلاف الزيت الموصوف، ولو مثّله تعالى بنور الشمع، لتطاول المنافق المغشوش، إلى استحقاق نصيب في المعرفة. الثاني: أنه تعالى، إنما لم يمثله بنور الشمع، لأنه مخصوص بالأغنياء، بخلاف نور المعرفة فإنه في الفقراء أغلب.

فإن قيل: التجارة تشمل الشراء والبيع، فما الحكمة في عطف البيع عليها في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٧]؟

قلنا: التجارة هي الشراء والبيع، الذي يكون صناعةً للإنسان مقصوداً به الربح، وهو حِرْفَةُ الشخص الذي يُسَمّى تاجراً، والبيع أعمّ من ذلك؛ وقيل: المراد بالتجارة هنا، مبادلة الآخرة بالدنيا، كما في قوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة/١٦] والمراد بالبيع مبادلة الدين بالدنيا، كما في قوله تعالى ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة/٩]. وقيل إنما عطف سبحانه البيع على التجارة، لأنه أراد بالتجارة الشراء، إطلاقاً لاسم الجنس على النوع. وقيل: إنما عطف عليها للتخصيص والتمييز، من حيث أنه أبْلَغُ في الإلهاء؛ لأن البيع الرابح يُعْقِبُه حصولُ الربح، بخلاف الشراء الرابح، فإن الربح فيه مظنون، مع كونه مترقَّباً منتظراً. وقيل: التجارة مخصوصة بأهل الجلب، بخلاف البيع.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [الآية ٤٥]، وبعض الدواب ليس مخلوقاً من الماء، كآدم عليه السلام، وناقة صالح وغيرهما؟

قلنا: المراد بهذا الماء: الماء الذي هو أصل جميع المخلوقات، وذلك أن الله تعالى - على حدّ قول بعضهم - خَلَقَ قبل خلق الإنسان جوهرة، ونظر إليها نظر هيبة، فاستحالت ماء، فخلق من ذلك الماء جميع الموجودات؛ وقد سبق مثل هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء/٣٠].

فإن قيل: إذا كان الجواب هذا، فما الحكمة في تخصيص الدّابة بالذكْر، أو تخصيص الشيء الحيّ؟

قلنا: إنّما خُصّت الدّابة بالذكر، لأنّ القدرة فيها أظهر وأعجب منها في الجماد وغيره.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [الآية ٤٥] وقال أيضاً: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [الآية ٤٥] وهي مما لا يعقل؟

قلنا: لمّا كان اسم الدابة، يتناول المميّز وغيره، غلب المميّز على غيره، وأُجري عليه لفظه.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [الآية ٤٥] وذلك إنّما يسمى زحفاً لا مشياً، فلا يسمّى مشيا إلاّ ما كان بالقوائم؟

قلنا: هو مجاز بطريق المشابهة، كما يقال: مشى هذا الأمر، وفلان لا يتمشّى له أمر، وفلان ما مَشِيَ له الحال.

فإن قيل: لِمَ أمر الله تعالى

بالاستئذان، للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [الآية ٥٨] أي من الأحرار؟

قلنا: هو في المعنى، أمر للآباء والأمهات، بتأديب الأطفال وتهذيبهم، وليس أمراً للأطفال.

فإن قيل: لِمَ أباح تعالى، للقواعد من النساء، وهن العجائز، التجرّد من الثياب، بحضرة الرجال، بقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية ٦٠].

قلنا: المراد بالثياب هنا، الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار، لا جميع الثياب، وقوله تعالى ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [الآية ٦٠] أي غير قاصدات بوضع الثياب، الثياب الظاهرة، إظهار زينتهن ومحاسنهن، بل التخفيف؛ ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [الآية ٦١] مع أن انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته معلوم، لاشك فيه ولا شبهة؟

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي من بيوت أولادكم، لأنّ ولد الرجل بعضه، وحكمه حكم نفسه، فلهذا عبّر عنه به، وفي الحديث: «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»؛ ويؤيد ذلك أنه تعالى قد ذكر بيوت جميع الأقارب، ولم يذكر بيوت الأولاد. وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي من مال أولادكم، وأزواجكم الذين هم في بيوتكم، ومن جملة عيالكم. وقيل المراد بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ البيوت التي يسكنونها، وهم فيها عيال لغيرهم، كبيت ولد الرجل وزوجته وخادمه، ونحو ذلك.

فإن قيل: معنى السلام هو السلامة والأمن، فإذا قال الرجل لغيره: السلام عليك، كان معناه سلمت مني وأمِنت، فما معنى قوله تعالى ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [الآية ٦١]؟

قلنا: المراد به فإذا دخلتم بيوتكم، فسلّموا على أهلكم وعيالكم. وقيل معناه إذا دخلتم المساجد، أو بيوتاً ليس فيها أحد، فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، يعني مِنْ ربّنا.

فإن قيل: لم قال الله تعالى

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [الآية ٦٣]، وإنّما يقال خالف أمرَهُ ؟

قلنا: «عن» زائدة؛ كذا قاله الأخفش. الثاني: أن فيه إضماراً تقديره: فليحذر الذين يخالفون الله تعالى، ويعرضون عن أمره؛ أو ضمن المخالفة، معنى الأعراض، فَعُدّيَ تعديته.

المعاني المجازية في سورة «النور»(*)

. . . وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿٢٤﴾﴾. وهذه استعارة على أحد التأويلات الثلاثة، وهو أنه سبحانه يجعل في الأيدي التي بُسِطت إلى المحظورات، والأرجل التي سعت إلى المحرمات، علامةً تقوم مقام النطق المصرّح، واللسانِ المفصِح، في الشهادة على أصحابها، والاعتراف بذنوبها.

فأما شهادةُ الألسنة، فقد قيل إن المراد بها إقرارُهم على نفوسهمْ بما واقَعُوه من المعاصي، إذ علموا أن الكَذِب لا ينفعُهم، والجحودَ لا يُغني عنهم.

وليس ذلك بمناقض لقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٦٥﴾﴾ [يس]، لأنه قد قيل في ذلك: إنه جائز أنْ تخرج ألسنتُهُمْ من أفواههم، فتنطق بمجرَّدها، من غير اتصال بجوزاتها ولهوَاتِها. فيكون ذلك أعجبَ لها، وأبلغَ في معنى شهادتها. ويختم في تلك الحال على أفواههم.

وقيل: يجوز أن يكون الختم على الأفواه، إنما هو في حال شهادة الأيدي والأرجل، بعد ما تقدّم من شهادة الألسن.

وأمّا التأويلان الآخران، في معنى شهادة الأيدي والأرجل، فالكلام

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

يخرج بهما عن حدّ الاستعارة إلى الحقيقة. وذلك أنهم قالوا: إن الله سبحانه يَبْني الأيدي والأرجُلَ، بنيةً تكون هي الناطقة بما تشهد به عليهم، من غير أن يكون النطق منسوباً إليهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [الآية ٣١] وهذه استعارة. والمراد بها: إسبال الخُمُر، التي هي المقانع على فُرجات الجيوب، لأنها خَصاصات[1] إلى الترائب والصدور، والثُدِيّ والشعور. وأصل الضرب من قولهم: ضرَبْتُ الفسطاط إذا أقمته بإقامة أعماده، وضرْب أوتاده. فاستُعير ههنا كناية عن التناهي في إسبال الخُمُر، وإضْفَاءِ الأُزُر.

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٣٥] وهذه استعارة. والمراد بذلك، عند بعض العلماء، أنه هادي أهلِ السموات والأرض بصوادع برهانه، ونواصع بيانه، كما يُهتدَى بالأنوار الثاقبة، والشُهبِ اللامعة.

وقال بعضهم: المراد بذلك، والله أعلم، الله مُنوِّر السموات والأرض بمطالع نجومها، ومشارق أقمارِها وشموسها.

وقوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [الآية ٣٥] وهذه مبالغة في وصف الزيت بالصفاءِ والخلاصةِ، على طريق المجاز والاستعارة، حتى يقارب أن يُضيء، من غير أن يتصل بنار، ويناط بذلك.

وقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [الآية ٣٧] وهذه استعارة.

والمراد بتقلّب القلوب ههنا: تغيُّرُ الأحوال عليها، من الخوف والرجاء، والسرور والغمّ، إشفاقاً من العقاب، ورَجاءً للثواب. والأولى صفة أعداء الله، والأخرى صفةُ أولياء الله.

وأمّا تقلُّب الأبصار، فالمراد به تكرير لحظ المؤمنين إلى مَطالع الثواب، وتكرير لحظ الكافرين إلى مطالع العقاب.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾.

(١) الخصاصات: جمع خصاصة وخصاص بفتح الخاء، وهو الخرق في الباب أو البرقع وغيرهما.

قوله تعالى: (وَوَجَدَ الله) استعارة ومجاز. والمعنى: فوَجد وعيد الله سبحانه، عند انتهائه إلى منقطع عمله السيئ، فكالَه بصُواعِهِ، وجازاه بجزائه. وذلك يكون يوم المعاد، وعند انقطاع تكليف العباد.

وقد قيل أيضاً: إنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ يعود إلى الكافر لا إلى عمله، فكأنه تعالى قال: فوجَدَ الله قريباً منه، أي وَجَدَ عقابه مُرصِداً له، فأخَذَه مِنْ كَثَب، وجازاه بما اكتسب. وذلك كقول القائل: الله عند لسان كل قائل. أي يجازيه على قول الحق بالثواب، وعلى قول الباطل بالعقاب. والقولان جميعاً يَؤُولان إلى معنى واحد.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية ٤٣].

وهذه استعارة على بعض التأويلات. لأنّ الجبال ههنا، يُراد بها السحاب الثِّقال، تشبيهاً لها بكثائف أطوادِها، ومشارف هضابها. ويكون الضمير في قوله سبحانه: ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ عائداً على السماء، لا على الجبال. فكأنّ التقدير: وينزّل من جبال من السماء من بَرَدٍ، يريد من السحاب المشبّهة بالجبال. وتكون الفائدة في قوله تعالى: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ في السماء، تخصيصَ تلك الجبال من جبال الأرض؛ لأنّا لو جعلنا الضمير الذي فيها عائداً على الجبال، أوْهَمَ أنها جبال تنزل إلى الأرض من السماء. فإذا جعلنا الضمير عائداً إلى السماء أُمِنَ الالتباس، وكان في ذلك أيضاً تعجُبٌ لنا، من وصف جبال في السماء على طريق التشبيه؛ لأنّ الجبال على الحقيقة لا تكون إلا في قرارات الأرض، وصفحات التُّرَب.

وقوله سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [الآية ٤٤] وهذه استعارة. والمراد بها طَرْد النهار بالليل، وطَرْد الليل بالنهار. فَكَنّى عَنْ ذلك سبحانه باسم التقليب. وليس المراد تقليب الأعيان[٢]، بل تغاير الأزمان.

(٢) أي ليس المراد التقليب المادي للأشياء العينية الذاتية.

سورة الفُرْقان

٢٥

أهداف سورة «الفرقان» (*)

سورة الفرقان سورة مكية نزلت بعد سورة يس، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن. وكان نزول سورة الجن عند رجوع النبي (ص) من الطائف، وكان قد ذهب إليها سنة عشرٍ من بعثته، فيكون نزول سورة الفرقان في السنة العاشرة من البعثة، وتكون من السور التي نزلت بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء. وهي فترة تميزت بقسوة مشركي مكة وعنفهم ورغبتهم في القضاء على الدعوة بكل سبيل، ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناسٌ لرسول الله (ص)، وتسرية له وتطمين؛ وهو يواجه مشركي قريش، وعنادَهم وتعنُّتَهم معه، وجِدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى، وصَدِّهم عنه.

سورة تشد أزر الرسول

تنوّعت جوانب هذه السورة وتعددت لكنها، في جملتها، كانت مؤازرة لرسول الله، تمنحه الثقة والاطمئنان، وتفضح شُبُهات المشركين، وتدافع عن الدعوة والداعية بالعديد من السبل.

* * *

فهي، في لمحة منها، تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله، وكأنّما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رفيقاً، ويفيض عليه بالرِعاية واللطف والمودة.

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

وهي، في لمحة، تُصوِّر المعركة العنيفة مع البشرية الضالّة الجاحدة، المُشاقّة لله ورسوله، وتجادل في عنف، وتتعنت في عناد، وتجنح عن الهدى الواضح المُبين.

إنها البشرية الضالّة التي تقول عن هذا القرآن العظيم، كما ورد في التنزيل:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الآية ٤].

أو تقول:

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

والتي تقول عن محمد رسول الله:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

أو تقول باستهزاء:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾.

وهذا التكذيب كان سمة الناس من عهد نوح (ص) إلى عهد محمد (ص). لقد اعترض القوم على بشرية الرسول (ص)، واعترضوا على حظه من المال، فقالوا، كما ورد في التنزيل:

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الآية ٨].

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن، فقالوا، كما ورد في التنزيل:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الآية ٣٢].

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء، والافتراء والإيذاء. وعندما يئس النبي (ص) من أهل مكة توجه إلى الطائف وفيها قبائل ثَقِيف، وفيها نعمةٌ وغنى وزراعة وأعناب؛ حتى كان العرب يعتقدون أن طائفة من الجن نقلتها من اليمن السعيد إلى جنوب الحجاز.

ولمّا ذهب إلى الطائف، دعا أهلها للإسلام فردوه أسوأ رد، وأغرَوْا به السفهاء والعبيد يرجمونه بالحجارة، حتى دَمِيَتْ قدماه الشريفتان وأُغميَ عليه، فلما أفاق مد يده لله داعياً متضرعاً يقول:

«اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. يا ربَّ العالمين أنت ربُّ المُستضعَفين، وأنت ربي إلى من تَكِلُني، إلى عدو يتجهمني، أو بَعيدٍ ملَّكته أمري؟ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات

وصلُح عليه أمر الدنيا والآخِرة أن يَنْزل بي سخطك، أو يَحِلّ عليّ غضبك، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، عافيتك هي أوسع لي، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

* * *

وقد نزلت سورة الفرقان في أعقاب رحلة الطائف، فكانت حناناً ورحمة من الله لنبيه، تَمْسح آلامه وتُسَرّي عنه، وتُهَوّن عليه مشقة ما يَلْقَى من عنت القوم، وسوء أدبهم وتَطاوُلهم على من اختاره الله سبحانه، ليحمل رسالة الله إلى الناس؛ وتُعَزّيهِ عن استهزائهم بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

ويتكفل القرآن بالعون والمساعدة في معركة الجدل والمُحَاجة:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

ثم تعرض السورة أهوال القيامة ومشاهد المجرمين تهديداً ووعيداً:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

وتصف ندم هؤلاء الكفار يوم القيامة فتقول:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم تُقَدِّم السورة مسيرة الأنبياء وجهادهم وبلاءهم، تسليةً للرسول الأمين، ثم تَحُثّه على الصبر والمصابرة، وعلى جهاد الكفار بالحجة والبرهان:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

وهكذا تمضي السورة: في جانب منها إيناس وتَسْرية وعطف وإيواء من الله لرسوله، وفي جانب آخر مُشَاقّة وعَنَتٌ من المشركين لرسول الله؛ وتُقَدِّم السورة جوانب القدرة الإلهية، وتصف عجائب صُنْع الله في مد الظلّ، وتسخير الشمس، وخَلْق الليل والنهار، والظلام والنور، وإنزال المطر وإنبات النبات، وخَلْق الانسان والكواكب

والبروج والافلاك، وتتوعد المشركين بالعذاب والعقاب.

فإذا اقتربت السورة من نهايتها، وَصَفَت عباد الرحمن بالتواضع، وقيام الليل، والاقتصاد في النفقة، والاحتراز من الشرك والزّنى، وقتل النفس؛ وتَذْكُر فضل التوبة ومنزلة التائبين عند الله، وتختم السورة بتصوير هَوَانِ البشرية على الله لولا تلك القلوب المؤمنة التي تلتجئ إليه وتدعوه:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُرْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامَا﴿٧٧﴾﴾.

موضوعات السورة

رغم أن الخط الأساسي لسورة الفرقان هو العناية بالرسول (ص)، ومسح آلام الحزن عنه، وتثبيت قلبه، إلا انه يمكن أن نقسم هذه السورة إلى أربع فَقَرات أو أربعة موضوعات متمايزة:

الموضوع الأول:

بدأ الموضوع الأول من سورة الفرقان بتسبيح الله سبحانه وحَمْدِه على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وبتوحيد الله المالِكِ لما في السماوات والأرض، المدبّر للكون بحكمة وتقدير، ونَفْي الولد والشريك. ثم شَرَعَ في ذكر ما أورده الكفار من شُبَهٍ، فَذَكَر شُبهتهم الأولى:

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الآية ٤].

وَرَدَّ عليهم بأن ادّعاءَهم ظُلْمٌ وزور، لأنه تحداهم به فلم يُمْكِنُهم أن يأتوا بمثله.

ثم ذكر شُبْهَتهم الثانية وهي زَعْمُهم أن القرآن أساطير الأولين اكتَتَبَها. ورد عليهم بأن الذي أنزله هو خالق الإنسان، وهو العليم بأسراره وما يناسبه.

ثم ذكر اعتراضَهم على بشرية الرسول (ص)، وحاجَتِه للطعام والمشيِ في الأسواق، واقتراحَهم أن يُنَزَّل عليه مَلَك، أو يُلقَى اليه كنز، أو تكونَ له جنة يأكل منها.

ورد عليهم بأن الله لو شاء لجعل لنبيه في الآخرة جَنَّاتٍ وقصوراً، خيراً مما ذكروه مِن نِعَم الدنيا.

وكان الرسل جميعهم قبل محمد (ص) يأكلون الطعام ويمشون

في الأسواق، لأنهم بشر وذلك شأن البشر.

ويستغرق الموضوع الأول من أول السورة إلى الآية ٢٠ منها.

الموضوع الثاني:

بدأ الموضوع الثاني بذكر تَطاوُل المشركين، وزعمِهم أنه كان يجب أن يَنْزِل عليهم ملائكة تؤيد محمداً (ص) في دعواه، أو يَرَوْا ربّهم.

ثم عاجَلَهم بمشهد اليوم الذي يَرَوْن فيه الملائكة لا تحمل البُشْرَى، وإنما تحمل الإنذار والوعيد.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

ليكون في ذلك تسليةٌ للرسول (ص)، وهم يهجرون القرآن وهو يشكو لربه هذا الهجران.

ثم ذكر اعتراضهم على عدم نُزُول القرآن جملة واحدة، وردُّ عليهم بأنه نَزَل مُفرَّقاً لتثبيت قلب الرسول وللإجابة عن استفهام المستفهمين، وتوضيح الحق أمام السائلين.

ثم ذَكَر أنهم في الآخرة يمشون مقلوبين، وجوهُهم إلى تحت، وأرجلهم إلى فوق، فَيَضِلُّونَ في أُخراهم كما ضلُّوا في دنياهم.

ثم شرع في تأييد ذلك بتصوير عاقبة المكذِّبين من قَبْلِهم من قوم موسى وقوم نوح، وعادٍ وثمودَ، وأصحابِ الرَّسّ والقرون الكثيرة بين ذلك، ويَعْجَب من أمرهم وهم يَمُرّون على قرية لوط المدمَّرة، ولا يعتبرون. فيُهَوِّن، بذلك كله، من وَقْع تطاوُلِهم على الرسول (ص)، وقولِهم كما ذكر القرآن الكريم حكاية على لسانهم:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

ثم عَقَّب على هذا الاستهزاء بتحقيرهم ووضعهم في صف الأنعام بل دون ذلك: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

ويستغرق هذا الموضوع الآيات [٢١ ـ ٤٤].

الموضوع الثالث:

يبدأ الموضوع الثالث بعرض مظاهر القدرة الإلهية في نظام هذا الكون وإبداع صنعته ودِقّة ناموسه، فَيعرِضُ مشهد الظل، ويستطرد إلى تعاقب الليل والنهار، والرياح المُبَشِّرة بالماء المُحْيِي، وخَلْقِه البشرَ من الماء، ومع

هذا فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يَضُرهم، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم، فينصُرون الشيطان على ربهم الذي يريد أن يربّيهم ويَهْدِيَهم، ويتطاولون في قِحَةٍ إذا دُعُوا إلى عبادة الرحمن، وقد جعل الله الليل والنهار خِلْفَةً يخلف أحدهما الآخر، ويتعاقبان ليرى الإنسان الصباح المشرق والليل المظلم، فيتذكّر عظمة الله ويشكره، لكنهم لا يتذكّرون ولا يشكرون.

ويستغرق هذا الموضوع الآيات [٤٥ ـ ٦٢].

الموضوع الرابع:

يصف الموضوع الرابع عباد الرحمن الذين يَسْجُدون له ويعبُدونه ويسجل مُقَوّماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة، ويفتح باب التوبة على مِصْراعيه لمن يريد الإقبال على الله، ويصوّر جزاء المؤمنين الصابرين على تكاليف الإيمان والعبادة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

ويستغرق هذا الموضوع الآيات [٦٣ ـ ٧٧] فتُخْتَم السورة ببيان هَوَانِ البشرية على الله سبحانه لولا دعاء المؤمنين، وعبادةُ المتقين.

وفي هذا الهوان تَهْوينٌ لما يَلْقاه الرسول (ص) من عَنَت المشركين، فهو يتفق مع ظل السورة وجوّها، ويتفق مع موضوعها وأهدافها.

ترابط الآيات في سورة «الفرقان»(*)

تاريخ نزولها وَوَجْهُ تَسْمِيتها

نزلت سورة الفرقان بعد سورة يس، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن، وكان نزول سورة الجن في رجوع النبي (ص) من الطائف، وكان قد سافر إليها في السنة العاشرة من بعثته، فيكون نزول سورة الفرقان في السنة نفسها، وتكون من السُّوَر التي نزلت بين الهجرة إلى الحبشة وبين الإسراء.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى في أوّلها: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾.

الغرض منها وترتيبها

ترمي هذه السورة إلى بيان الغرض من نزول القرآن، وهو أن يكون نذيراً للعالَمين، والكلام فيها على هذا الغرض ينقسم إلى قسمين: أوّلُهما في دفع ما أوردوه عليه من شُبَهٍ وتأييدهِ بما وقع قبله من النُّذُرِ الأولى، وثانيهما في بيان عدم تأثرهم بذلك لتكبُّرهم وجَهْلهم.

وقد خُتمت السورة السابقة بتحذير المخالفين أن يصيبهم فتنة أو عذاب أليم، وهذا يناسب ما ابتُدئت به هذه السورة من الإنذار والتحذير.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

تنزيل القرآن للإنذار
الآيات [١ ـ ٤٠]

قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾، فذكر أنه نزَّل القرآن ليكون نذيراً للناس كافةً، وَوَصَف نفسه بأربعة أنواع من صفات الكِبْرياءِ، ليدل على قدرته على تحقيق إنذاره، فذكر ملكه للسماوات والأرض، وتنزُّهَهُ عن الولد والشريك، وخَلْقَه كلَّ شيء وتقديرَهُ له. ثم شرع في ذكر ما أوردوه على ذلك من شُبَهٍ، فَذَكَرَ شُبْهتَهم الأولى وهي قولهم كما ورد في التنزيل: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الآية ٤]، وردَّ عليه بأنه ظُلْم وزُورٌ، لأنه تحدَّاهم به فلم يُمْكِنْهم أن يأتوا بمثله، ولوكان من عنده لأمكنهم أن يأتوا به.

ثم ذَكَر شُبْهتهم الثانية وهي زعْمُهم بأنّه أساطير الأولين اكتتبها. ورد عليها بأن الذي أنزله هو الذي يَعْلَم السر في السماوات والأرض، ومثْلُه يُنزِل الحقائق لا الأساطير.

ثم ذكر شُبْهتهم الثالثة وهي زعْمُهم بأن مَنْ يُرْسَل للإنذار لا يكون بَشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وأنه كان يجب أن ينزل إليه ملَكٌ يُنْذِرُ معه، أو يُلقَى إليه كنز، أو تكونَ له جَنةٌ يأكل منها؛ ودَعْواه الرسالة، من غير ذلك، تَدُلُّ على أنه رجل مسحور لا يَصِحّ اتّباعُه، وردَّ سبحانه، على هذا بأنه إن شاء جعل له في الآخِرة جنّاتٍ وقصوراً خيراً مما ذكروه من نِعَم الدنيا، ولكنهم يُكَذّبون بالساعة فلا يَرْجُون ثواباً ولا عقاباً؛ ثم ذَكَرَ ما أعد لهم فيها من العذاب، وما وَعَدَ المتقين فيها من نعيم وثواب، وما يكون من تَبَرُّؤ آلهتهم منهم فيها، وعاد السياق بعد هذا إلى الرد على هذه الشبهة بأن الله سبحانه، لم يُرْسِل قبل هذا إلا رُسُلاً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

ثم ذكر شبهتهم الرابعة وهي زَعْمُهم أنه كان يجب أن يُنْزِل عليهم ملائكةً تَشهد بصدقه فيما يُنْذِر به، أو يَرَوْا ربَّهم فيُخبِرَهم بأنه أرسله لإنذارهم. ورد على هذا بأنه تعَنُّتٌ ظاهر وعُتُوٌ كبير، وبأن ما طلبوه من ذلك سيرونه يوم القيامة، ولكنهم يلْقَوْن منه ما يكرهون، ويلقى المؤمنون فيه ما يُحبّون؛ ثم ذكر ما يكون من نَدَمهم على كفرهم، ومن تَمَنّيهم أَنْ لو كانوا اتّخذوا مع الرسول سبيلاً، ولم يسمعوا

لِمَنْ أضلَّهم من خُلاَّنهم، وذكر ما يكون من شكوى الرسول مما كان من طَعْنِهم في القرآن، بأنه سِحْر وشِعْر وكَذِب وَهَذَيانٌ، ومن إجابته له بأن شأنهم في ذلك كشأن المجرمين قبلهم مع رسلهم.

ثم ذَكَر شُبهتهم الخامسة وهي قولهم كما ورد في التنزيل ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الآية ٣٢]. ورَدَّ على هذا بأنه نَزَّله مُفرَّقاً ليُثبّتَ به فؤاده، ويُرتِّله على تُؤَدَةٍ وتَمَهُّلٍ.

ثم عقَّبَ على ذلك كله بأنهم لا يأتونه بِمَثَلٍ من جنس تلك الشبهاتِ، إلا أتاهم بالحق الذي يدفعها ويبين وجه فسادها، وذكر أنهم في الآخرة يمشُون مقلوبين وجوهُهم إلى تحت، وأرجلُهم إلى فوق، فَيَضِلُّون في آخِرتهم كما ضلُّوا في دنياهم.

ثم شرع في تأييد ذلك بما حَصَل من النذر قبله، فذكر أنه آتى موسى التوراة وجعل معه أخاه هارون وزيراً له، وأنه أمرهما أن يذهبا إلى القوم الذين كَذَّبوا بآياته فدمرهم تدميراً، ثم ذكر أنه أغرق قوم نوح لَمَّا كذَّبوا رسله وأعَدَّ لهم عذاباً أليماً، إلى أن ذكر ما حصل لقرية سدوم التي يَمُرُّون عليها في متاجرهم إلى الشام، وهي من قرى قوم لوط ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠﴾.

عَمَايةُ الكفار عن الإنذار
الآيات [٤١ ـ ٧٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾، فذكر أنهم قابلوا ما أنذرهم به، وما ذكره في رد شُبُهاتهم بالسفاهة والاستهزاء بالنبي (ص)، لأنهم عَجَزوا عن رد ما ذكره في دفع شُبَهِهِم. وقد بلغ من قوته أن اعترفوا بأنه كاد يُضِلُّهم عن آلهتهم لولا أن صبروا عليها، ثم ذكر له أنهم اتخذوا هواهم إلَهَهم، وأنهم لا يسمعون ولا يَعْقِلون، ومن كان هذا شأنه لا يؤثر دليل فيه. ثم ذكر له أن يرى كيف مَدَّ الظِّلَّ ولو شاء لجعله ساكناً، إلى غير هذا مما لا تَخْفَى دلالته على من يسمع ويَعْقِل، لِيُثبِت له أنهم ليس لهم سمع ولا عقل. ثم ذكر أنه صَرَّفَ هذه الدلائل بينهم لِيذَّكَّرُوا ولكنهم يَنْفِرُون من سماعها، وأنه لو شاء لبعث بها نذيراً في كل قرية، ولكنه اختاره وحده

لذلك، فيجب أن يقابل هذا بالاجتهاد في الدعوة، ليقوم بأعبائها وحَدَهُ؛ ثم عاد إلى تلك الدلائل فذكر أنه هو الذي أجرى البحرين في مجاريهما بحيث يلتقيان، وأنه فَصَلَ بينهما بقدرته فَبَقِيَ هذا عَذباً وذلك مِلْحاً، إلى غير هذا مما ذكره من دلائل عظمته وقدرته.

ثم أشار إلى أنهم لا يتأثرون أيضاً بهذه الأدلة الظاهرة على توحيده، فيعبدون من دونه ما لا ينفَعُهم ولا يَضُرُّهم، ثم ذكر أنه لا شيءَ عليه من إعراضهم عنها، لأنه لم يرسله إلا مبشّراً ونذيراً، ولا يسألهم على ذلك مِنْ أجر، إلا مَنْ شاء أن يتقرّب بالإنفاق إلى ربه، ثم أَمَره أن يتوكل عليه في مجاهدتهم ودعوتهم، وذَكَرَ ما ذَكَر من عظمته وقدرته لِيدُل على أن من توكل عليه يَكْفيه عن غيره.

ثم ذكر أنهم مع عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرّهم، إذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن، قالوا وما الرحمن، عُتُوّا وتَكَبُّراً، واستعظموا أن يسجدوا لما يأمرهم مثله بالسجود له، ثم ذكر سبحانه، من أدلة عظمته وقدرته، أنه جعل في السماء بروجاً وهي منازل السيارات، إلى غير هذا مما لايصح معه أن يتَكَبَّروا عن السجود له، ثم ذكر أن للرحمن عباداً غيرهم لا يتكبّرون مثلهم، بل يمشون على الأرض هَوْناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، إلى غير هذا من صفاتهم. ثمّ خُتمت السورة بتحقير المتكبّرين وتهديدهم على تكذيبهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الفرقان»(*)

ظهر لي بفضل الله تعالى، أن نسبة هذه السورة الى سورة النور، كنسبة سورة الأنعام إلى «المائدة».

من حيث أن «النور» قد خُتمت بقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٦٤]، كما ختمت «المائدة» بقوله جلّ وعلا: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [الآية ١٢٠].

وكانت جملة «النور» أوجز من جملة «المائدة»، ثم فصِّلت هذه الجملة في سورة الفرقان، فافتُتِحت بقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ٢]، إلى قوله سبحانه من الآية نفسها: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾. كما افتتحت «الأنعام» بمثل ذلك[1].

وكان قوله تعالى عقبه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الآية ٣] إلى آخره، نظير قوله هناك: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾ [الأنعام].

ثم ذكر في هذه السورة جملة من المخلوقات، كَمَدِّ الظل، والليل، والنوم، والنهار، والرياح، والماء، والأنعام، والأناسي، ومرج البحرين، والإنسان، والنسب، والصّهر، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السماء، والسّراج، والقمر، إلى غير ذلك، مما هو تفصيل لجملة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2]. كما فصّل

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) افتتاح الأنعام قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

(٢) جميع هذه المعاني جاءت في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ الى قوله جلّ وعلا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾.

آخر «المائدة» في «الأنعام» بمثل ذلك[1]. وكان البَسْطُ في «الأنعام» أكثر لِطُولها.

ثم أشار في هذه السورة إلى القرون المُكذِّبة وإهلاكهم، كما أشار في «الأنعام» إلى ذلك[2]. ثم أفصح عن هذه الإشارة في السورة التي تليها وهي «الشعراء» بالبسط التام، والتفصيل البالغ[3]. كما أوضح تلك الإشارة التي في «الأنعام»، وفَصَّلها في سورة الأعراف التي تليها[4].

فكانت هاتان السورتان، الفرقان والشعراء، في المَثاني، نظير تينك السورتين، الأنعام والأعراف، في الطِوال، واتصالُهما بآخِر النور، نظيرَ اتصال تلك بآخِر المائدة، المشتملة على فصل القضاء[5].

ثم ظهر لي لطيفة أخرى، وهي: أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية، افتُتِح أولها بالثناء على الله، كـ «الأنعام» بعد «المائدة»، و«الإسراء» بعد «النحل»، وهذه بعد «النور»، و«سبأ» بعد «الأحزاب»، و«الحديد» بعد «الواقعة»، و«تبارك» بعد «التحريم»[6]، لِمَا في ذلك من الإشارة إلى نوع من الاستقلال، وإلى الانتقال من نوع إلى نوع.

---

(١) هذا التفصيل جاء في الأنعام مفرقاً في الآيات: ١٣، ١٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٥، ٧٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩.

(٢) تفصيل أحوال القرون المكذبة وإهلاكهم في «الفرقان» في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ [الآية ٣٦] الى ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾. وفي الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

(٣) جاء ذلك في الآيات ٦٤ ـ ١٨٩ حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم إياه، ووسيلة إهلاكهم.

(٤) تفصيل أحوال القرون المكذبة، جاء في «الأعراف» من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [الآية ٥٩] الى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

(٥) آخر المائدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ وهو يشتمل على فصل القضاء ضمناً. وأول الانعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الآية الأولى].

(٦) قول المؤلف: و«الإسراء» بعد «النحل»، لا يتفق مع قاعدته، فكلاهما مكّي، وقوله: و«الحديد» بعد «الواقعة»، عكس قاعدته، فالواقعة مكية، والحديد مدنية، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن، كـ «يونس» بعد «التوبة»، و«إبراهيم» بعد «الرعد»، و«النحل» بعد «الشعراء»، و«ق» بعد «الرحمن»، والثناء على القرآن ثناء على الله ضمناً.

وهناك مكيات بعد مدنيات لم تفتتح بالثناء على الله، كالواقعة بعد الرحمن.

مكنونات سورة «الفرقان»[*]

١ - ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الآية ٤].

عَنَوْا: يهود؛ فيما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن مجاهد.

وقيل: جَبْرا مولى الحَضْرَمِي. حكاه السُّهَيْلي.

٢ - ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾.

أخرج ابنُ أبي حاتِم عن ابن عبّاس، وسعيد بن المسيِّب ومُجاهِد، وقتَادة، والسُّدِّي، وغيرُهم؛ أن المراد بالظالم: عقبةُ بن أبي مُعيط؛ وبفُلان: أمية بن خَلَف[1].

وقال عَمْرو بن ميمون[2]: أُبَيّ بن خَلَف.

٣ - ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ [الآية ٤٠].

أخرج ابنُ أبي حاتِم عن عطَاء قال: هي قرية لوط[3].

وعن الحسن قال: هي بين الشام والمدينة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٩/٦.

(٢) عمرو بن ميمون الأوْدي؛ أبو عبد الله، مخضرم مشهور، وثقة عابد، نزل الكوفة، ومات سنة أربع وسبعين.

(٣) انظر «تفسير الطبري» ١٩/١١.

٤ - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الآية ٥٣].

قال الحسن: بحر فارس والروم. وقال سعيد بن المسيب: بحر السماء، وبحر الأرض. أخرجها ابنُ أبي حاتِم.

٥ - ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الآية ٥٥].

قال الشعبي: هو أبو جهل. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

لغة التنزيل في سورة «الفرقان»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾، أي: كَتَبَها لنفسه واخذها كما تقول:

استكب الماء واصطبّه، إذا سكَبَه وصَبَّه لنفسه.

أقول: والاكتتاب في عصرنا شيء آخر، يقال: اكتتبوا في بناء مدرسة، أي: جمعوا الأموال تبرّعاً وكتبوها مخصصة لبناء المدرسة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ۝١٨﴾.

البُور: الهلاك يُوصف به الواحد والجمع، ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ، وحائل وحول، وهو مصدر كالبوَر بالفتح والبَوار أيضاً.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢﴾.

أقول: وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾، أي: بيّناه وحققناه، وأرسلنا بعضه إثر بعض.

وقالوا: الترتيل: هو الترسُّل والتأنّي في القراءة، وإعطاء الأصوات حقها من البيان والنصاعة.

ومن حديث عائشة رضي الله عنها في صفة قراءته (ص) «لا كسَرْدِكُمْ هذا، لو أراد السامع أن يَعُدَّ حروفه يعدّها».

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الآية ٤٠].

مما تجب ملاحظته أن مادة «مطر»،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

قد استعملت في آي القرآن فعلاً فريداً «أمطر» في سبع آيات، كما استعملت اسماً في ثماني آيات، وفي هذه الآيات جميعها كان «المطر» شرّاً وعذاباً وحجارة من سجيل.

فإذا أُريد الرحمة والحياة، جاءت كلمة «الغيث»، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى/ ٢٨].

٥ - وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الآية ٤٨].

قُرئ: الريح والرياح.

وقرئ: نَشراً، أي: إحياء، ونُشُراً جمع نَشور وهي المُحيية. ونُشْراً تخفيف نُشُر.

و«بُشراً» تخفيف بُشُر جمع بَشور وبُشرى.

وأرى أن «بُشرى» تلائم ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾، أي: أن الرياح قدام المطر الذي عبر عنه بـ «الرحمة».

٦ - وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾.

أقول ويَحسُن بنا أن نعود قليلاً لنرى مسألة قوله تعالى: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، في الآية الكريمة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٢٢﴾.

ذكر سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروكٍ إظهارُها، نحو: مَعاذ الله، وقِعْدَكَ الله، وعَمْرَكَ الله. وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ موتور أو هجوم نازلة، أو نحو ذلك، يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه: أتفعل كذا وكذا، فيقول: حِجْراً، وهي من حَجَرَه إذا مَنَعه، لأن المستعيذ طالبٌ من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه، فكأن المعنى: أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً، ويَحْجُره حَجْراً.

وقوله تعالى: ﴿مَّحْجُورًا﴾ صفة لتأكيد الحَجْر، أي: المنع.

وأما في الآية: ٥٣، فالمراد من قوله جلّ وعلا ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي: أن كل واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾.

٧ - وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾.

الظهير: بمعنى المظاهر، وهو من باب فعيل بمعنى مُفاعل، كالعَوين والمعاون. ويجوز أن يُراد بـ «ظهيراً» الجماعة، كقوله تعالى:

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴿٤﴾﴾ [التحريم].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿سَآءَتْ﴾ فَعُلَ بمعنى أصبحت سيئة.

وقالوا: إنها في حكم «بئست»، وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ والمخصوص بالذم محذوف.

أقول: أرادوا أن يلحقوا هذا الفعل بما أسْمَوْه أفعال المدح والذم، فيكون إعرابها ما يقتضيه إعراب تلك الأفعال.

وأرى أنَّ الفعل «ساء» ليس، مثل «نِعْمَ» و«بِئْسَ»، وإن كان معناه الذم. وقوله تعالى: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾، أي: ساءت جَهَنَّمُ مستقَراً، كقولك:

حَسُن البيت مقاماً، وذُمَّ السِرداب سكناً، فهل نحمل هذين الفعلين على أفعال المدح والذم؟ والفاعل في الآية ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ يعود على «جهنم» في الآية السابقة.

المعاني اللغوية في سورة «الفرقان»(*)

قال تعالى: ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ [الآية ١٨] أي جماعة «البَائِر» مثل «اليَهُود» وواحدهم «الهَائِد» وقال بعضهم: «هي لغة على غير واحد، كما يقال «أَنتَ بَشَرٌ» و«أَنْتُمْ بَشَر».

وقال تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الآية ١٩] فحذف «عَن الكُفّار» وقد يكون ذلك عن الملائكة، والدليل على وجه مخاطبة الكفار، أنه جلّ وعلا قال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ [الآية ١٩] وقال بعضهم «يَعْني الملائكة».

وقال تعالى: ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الآية ٤٠] يقال «مُطِرْنَا» و«أُمْطِرْنَا».

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ﴾ [الآية ٥٧] استثناء خارج من الكلام بمعنى «لكن».

وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الآية ٦٢] أي: «يَخْتَلِفانِ».

وقال سبحانه ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الآية ٦٣]. فهذا ليس له خبر[1] إلاّ في المعنى، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ فـ «الإمام» هُهنا جماعة[2] كما في ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ [الشعراء/٧٧] ويكون على الحكاية كما يقول الرجل اذا قيل له: «مَنْ أميرُكم»: «هؤلاءِ أَمِيرُنا» وقال الشاعر [من الكامل وهو الشاهد

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٧٤٤ والمشكل ٢/ ٥٢٤ والجامع ١٣/ ٦٨.

(٢) نقله في المحتسب ٢/ ٣١٧ والجامع ١٣/ ٨٣.

الخامس والخمسون بعد المئتين]:

يَـا عَـاذِلاَتِـي لا تُـرِدْنَ مَـلامَـتـي
إنَّ الـعَـوَاذِلَ لَـيْـسَ لِـي بِـأَمِـيـر[1]

وقال تعالى: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ﴾ [الآية ٧٧] لأنها من «عَبَأْتُ بِهِ» فـ «أنا أُعْبَأُ بِهِ» «عَبْئاً».

وقال تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ [الآية ٤٩] مثقلة لأنها جماعة «الإِنْسِيّ».

(١) البيت في الخصائص ٣/ ١٧٤ بـ «السن» بدل «اليسر»، وهو كذلك في الصحاح «ظهر» وعجزه كذلك في مختار الصحاح «ظهر»، والبيت كذلك في مغني اللبيب ١/ ٢١١؛ والبيت بعد، في شرح شواهد المغني.

لكل سؤال جواب في سورة «الفرقان»(*)

إن قيل: الخلق هو التقدير؛ ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة/١١٠] أي تُقَدِّر، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ فكأنه تعالى قال: «وقدّر كل شيء فقدره تقديراً»؟

قلنا: الخلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث، فمعناه: وأوجد كل شيء مُقَدَّرا مُسوّى مهيّأ لِمَا يصلح له، لا زائداً على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة؛ ولا ناقصاً عن ذلك. الثاني أن معناه: وقدّر له ما يقيمه ويصلحه؛ أو قدّر رزقاً وأَجَلاً وأحوالاً تَجري عليه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وَصْف الجنة: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۝١٥﴾، وهي ما كانت بعد، وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر؟

قلنا: إنما قال: «كانت»: لأن ما وَعَدَهُ الله تعالى، فهو في تحققه كأنه قد كان، أو معناه: كانت في علم الله مكتوبة في اللوح المحفوظ أنها جزاؤهم ومصيرهم.

فإن قيل: ما الحكمة من تأخير الهوى، في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الآية ٤٣] والأصل اتّخذ الهوى إلهاً، كما تقول: «اتّخذ الصنم معبوداً»؟

قلنا: هو من باب تقديم المفعول الثاني على الأول للعناية به، كما تقول علمت منطلقاً زيداً لتظهر عنايتك بانطلاقه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الآية ٤٤]؟

قلنا: قد مر مثل هذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون].

فإن قيل: لِمَ شَبَّهَهُم سبحانه وتعالى بالأنعام في الضلال، بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الآية ٤٤] مع أن الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتُسَبِّحه بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء/ الآية ٤٤] وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة/ ١]؟

قلنا: المراد أولاً تشبيهُهُم بالأنعام في الضلال، عن فَهْم الحق ومعرفة الله تعالى، بواسطة دعوة الرسول (ص). ثانياً: أن المراد تشبيهُهُم، في الضلال والعمى عن أمر الدين، بالأنعام في ضلالها وعماها عن أمر الدين.

فإن قيل: إن كانوا كالأنعام في الضلال، فلِمَ قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾؟ وإن كانوا أضلّ من الأنعام، فلِمَ قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾؟ وإن كانوا كالأنعام في الضلال، وأضل منها أيضاً، فكيف يجتمع الوصفان؟

قلنا: المراد بقوله تعالى في الموضع الأول: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ التشبيه في أصل الضلال لا مقداره. والثاني: بيانٌ لمقداره. وقيل: المراد بالأول التشبيه في المقدار أيضاً، ولكن المراد بالأول طائفة، وبالثاني طائفة أخرى، وَوَجْهُ كونهم أضلَّ من الأنعام، أنَّ الأنعام تنقاد لأربابها التي تعلفها وتتعهّدها، وتعرف من يحسن إليها ممّن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرّها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم، من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يَتَّقون العذاب الذي هو أشد المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المَشْرَع الهَنِيّ والعذاب الروي[1].

فإن قيل: في قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً

(١) انظر الكشاف ج ٢ ص ٤١٠.

﴿مَّيْتًا﴾، لِمَ ذكّرت الصفة والموصوف مؤنث، ولم تؤنث الصفة كما أُنّث في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس/٣٣]؟

قلنا: إنما التذكير نظراً إلى معنى البلدة، وهو البلد والمكان لا إلى اللفظ.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ فإنزاله موصوفاً بالطهورية، وتعليل ذلك بالإحياء والسقي، يُشعر بأن الطهورية شرط في حصول تلك المصلحة، كما تقول: حملني الأمير على فرس سابق، لأصيد عليه الوحش، وليس كذلك.

قلنا: وصف الطهورية ذُكِر إكراماً للأناسيّ الذين شربهم من جملة المصالح التي أنزل لها الماء، وإتماماً للمنّة والنعمة عليهم، لا لكونه شرطاً في تحقيق تلك المصالح والمنافع، بخلاف النظير فإنه قَصَدَ بكونه سابقاً الشرطيةَ لأن صيد الوحش على الفرس لا يكون إلاّ بها.

فإن قيل: لِمَ خصّ تعالى الأنعام بذكر السقي دون غيرها من الحيوان الصامت؟

قلنا: أولاً لأن الوحش والطير تبعد في طلب الماء ولا يُعْوِزُها الشرب، بخلاف الأنعام. ثانياً: أن الأنعام قُنْية الأناسيّ وعامة منافعهم متعلّقة بها.

فإن قيل: لِمَ قدّم تعالى إحياء الأرض وسَقْيَ الأنعام على سقي الأناسي؟

قلنا: أولاً لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم. ثانياً: أن سَقْيَ الأرض بماء المطر سابق في الوجود على سقي الأناسي به.

فإن قيل: ما وجه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾؟

قلنا: هو استثناء منقطع تقديره: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه. وقيل تقديره: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، بإنفاق ماله في مرضاته تعالى، فليفعل ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى هنا: ﴿قُلْ مَآ

﴿أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي أجراً، لأن «من» لتأكيد النفي وعمومه. وقال في آية أخرى: ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى/٢٣] فأثبت سؤال الأجر عليه؟

قلنا: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ/٤٧] رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والصحيح الذي عليه المحققون أنها غير منسوخة، بل هو استثناء من غير الجنس، تقديره: لكن أذكركم المودة في القربى.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ ولم يَقُلْ أئمة؟

قلنا: مراعاة لفواصل الآيات، وقيل تقديره: واجعل كل واحد منا إماماً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ وهما بمعنى واحد، ويؤيده قوله تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ وقوله (ص) «تحيّة أهل الجنة في الجنة سلام».

قلنا: قال مقاتل: المراد بالتحية سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسلام أن الله تعالى سلّمهم ممّا يخافون وسلّم إليهم أمرهم.

وقيل: التحية من الملائكة أو من أهل الجنة، والسلام من الله تعالى عليهم، لقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس]. وقيل التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف والسلام بالقول. وقيل: التحية الدعاء بالتعمير، والسلام الدعاء بالسلامة، فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض، أو يلقون ذلك من الله تعالى، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كل آفة.

المعاني المجازية في سورة «الفرقان»(*)

في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ⑫﴾ استعارتان. إحداهما قوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ وهو في صفة نار جهنَّم، نعوذ بالله منها، ولا تصحُّ صفةُ الرُّؤْية عليها. وإنما المراد، والله أعلم، إذا كانت منهم بمقدار مسافة لو كان بها مَنْ يوصف بالرؤية لرآهم. وهذا من لطائف التأويل، وغرائب التفسير.

وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى ذلك: إِذا قَرُبَتْ منهم، وظهرت لهم. من قولهم: دُورُ بَني فلان تتراءى. أي تتقارب. وفي الحديث: (لاَ تَتَرَاءَى نَاراهُمَا)(١) أي لاَ تتدانى.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرَّخ.

(١) الحديث بأكمله في «صحيح أبي داود» الجزء الأول، باب على مايقاتل المشركون، كتاب الجهاد، ص ٢٦١، ونصه: «حدثنا هناد بن السرى ثنا أبو معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله. قال: بعث رسول الله (ص) سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود، فأسرع فيهم القتل قال: فبلغ ذلك النبي (ص)، فأمر لهم بنصف العقل، وقال: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا يا رسول الله لم؟ قال: لا تتراءى ناراهما»

وفي سنن النسائي جـ ٢ ص ٢٤٥، جاء هذا الحديث في باب القود بغير حديدة، كتاب القسامة. وقد أورد المؤلف هذا الحديث في كتابه «المجازات النبوية»، وتحدث عما فيه من مجاز حديثاً رائعاً. صفحة ٢٠٠ من المجازات النبوية، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ سنة ١٩٣٧، وجاء هذا الحديث في «لسان العرب» وفسره صاحب اللسان ثم قال: وقال أبو عبيد: معنى الحديث أن المسلم لا يحل له أن يسكن بلاد المشركين، فيكون معهم بقدر ما يرى كل واحد منهم نار صاحبه.

﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ وهاتان الصفتان من صفات الحيوان، ويختص التغيظ بالإنسان، لأن الغيظ من أعلى منازل الغضب، والغضبُ لا يوصف بحقيقته إلا الناسُ. والزفير قد يشترك الإنسان وغير الإنسان في الصفة به. وإنما المراد بهاتين الصفتين المبالغة في وصف النار بالاهتياج والاضطرام، على عادة المَغِيظ والغضبان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ استعارة، لأن صفة القُدُوم لا تصح إلاّ على من تجوز عليه الغَيْبة، فتجوز منه الأَوْبة. واللهُ سبحانه شاهد غير غائب، وقائمٌ غير زائل. فالمعنى: وقصدنا إلى ما عملوا، أو عمدنا إلى ما عملوا. وذلك كقول القائل: قامَ فلان بفلان في الناس، إذا أظهر ذمّه وعيبه، وليس يريد أنه نهض عن قعود، وتحفّزَ بعد استقرار وسكون، وإنما يريد أنه قصد إلى سَبّه، وتظاهر بثَلْبه. وقال الشاعر[1]:

فإنَّ أباكُمْ تارِكٌ ماسألْتُمْ
فمهما أتيتم فاقْدَمُوه على عِلْمِ

يقال: قَدِمْت هذا الأمر، وأنا أقْدَمه: إذا أتيته وقصدته. وقد ذكر بعض العلماء في ذلك وجهاً آخر. قال: إنما قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾: لأنه عاملهم معاملة القادم من غيبة. أو كان، بطول إمهاله لهم، كالغائب عنهم ثم قَدِمَ، فرآهم على خلاف ما أمرهم به، واستعملهم فيه، فأحبطَ أعمالهم الفاسدة، وعاقبهم عقاب العاند عن الطاعة، المرتكس في الضَّلالة. والمعتمَدُ القول الأول.

وفي قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ مجاز آخر. وذلك أنه لم يجعل عملهم على الحقيقة هباءً منثورا، وهو الغبار الدقيق ههنا. ومنه الهابي. وإنما أراد سبحانه أنه أبطل ذلك العلم فعفَا رسْمهُ، وسقط حكمه، وبَطَل بُطلان الغبار الممحَق، والغثاء المتفرق.

وفي قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ استعارة. لأن المَقِيل من صفات المواضع التي يُنام فيها، ولا نوم في

(١) لم نعثر على اسم صاحب هذا البيت.

الجنة. وتقدير الكلام: وأحسَنُ موضع للقائلة. فكأن ذلك المكان من وثارة مهاده، وبَرْد أفيائه، يصلُح أن يُنَامَ فيه لو كان ذلك جائزاً. وهذا كقوله سبحانه في ذكر أصحاب الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم] أي مثل أوقات البُكْرة والعَشيّ المعهودين في حال الدنيا. لأن الجنة لا يوصف زمانها بالأيام والليالي، لأن ذلك من صفات الزمان الذي تتعاقب عليه الشمس طالعة وغاربة، فيسمّى نهاراً بطلوعها، ويسمّى ليلا بقبوعها[1].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ استعارة. والمراد بها، والله أعلم، على أحد القولين، صفةُ السماء في ذلك اليوم بتعاظم الغمام فيها، وانتشارِه في نواحيها. كما يقول القائل: قد تشققت الغمائم بالبرق، وتشققت السّحائب بالرعد، إذا كثر ذلك فيها، ليس أن هناك تشققاً على الحقيقة، في قول أهل الشرع. وقيل أيضا: إن المراد بذلك انتقاض بنية السماء وتغيُّرُها إلى غير ما هي عليه الآن، كما تظهر في البناء آثار التداعي، وأعلام التهافت، مِنْ تَثَلُّم أطراف، وتفطُّر أقطار، فيكون ذلك مؤذناً بانقضاضه، ومنذراً بانتقاضه.

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [ابراهيم/٤٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2] [الأنبياء/ ١٠٤]. ويكون انتقاضُ بِنْية السماء عن ظهور الغمام الذي آذَنَنَا سبحانه بمجيئه يوم القيامة، إذ يقول عزّ مِن قائِل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة].

ومعنى تَشَقَّقُ السماء بالغمام: أي عن الغمام، كما يقول القائل: رَمَيتُ بالقوس، وعن القوس، بمعنى واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ استعارة على أحد التأويلين: وهو أن يكون في الكلام تقديم وتأخير. فكأنه تعالى قال: أرأيت من اتّخذ هواه إلٰهَهُ. معنى ذلك أنه جعل هواه آمِراً يطيعه، وقائداً

(١) القبوع: الاختفاء ومنه: قبع النجم أي ظهر ثم خفي.

(٢) وقد سبق الحديث عن قراءة «للكتاب» و«للكتب» بالمفرد والجمع، في سورة الأنبياء.

يَتْبَعهُ، فكأنه قد عَبَدَهُ لفَرط تعظيمه له.

ومن أمثالهم: الهوى إلهٌ معبود، على المعنى الذي ذكرنا. وذَكَرَ أحمد بن يحيى البَلاذُري[1] في كتاب (الأشراف) أن هذه الآية نزلت في الحارث بن قيس بن عَديّ السَّهْمي، وهو من عَبَدَة الأوثان؛ لأنه كان كلما رأى حَجَراً أحسنَ من الذي اقتناه لعبادته، أخذه واطَّرحَ ما عَبَدهُ.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾. في الآية الأولى استعارتان، إحداهما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الآية ٤٥]، أي ألم تر إلى فعل ربك، أو إلى حكمة ربك في مدِّ الظل، فحذف هذه اللفظة لدلالة الكلام عليها، إذ كان الله سبحانه لا يدرَك بالمشاعر، ولا يُرَى بالنواظر. وقد يجوز أن يكون معنى الرؤية ههنا معنى العِلْم. فكأنه سبحانه قال: ألم تعلم حكمة ربّك في مدّ الظل؟ وإنما أقام سبحانه، الرؤية ههنا مقام العلم، لتحقُّق المخاطَب الذي هو النبي (ص) وجْهَةَ الله تعالى في ذلك الفعل، فقامت معرفة قلبه مقام رؤية عينه، قطعاً باليقين، وبُعداً عن الظنون.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ وهي استعارة على القلب. لأن الظل في الشاهد يدل على الشمس، وذلك أن الظل لا يكون إلا وهناك شمس طالعة، فيوصف ما لم تطلع عليه لحاجز يَحْجُز، أو مانع يَمْنع، بأنه ظل. وقد قيل: إن الظل ما كان بالغداة، والفيء ما كان بالعشيّ. وقيل: إن الظل ما نسخته الشمس، والفيء ما نَسَخَ الشمس، فعلى هذا القول يجوز أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي دائما لا تردُ الشمس عليه فتزيله وتذهب به، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً. أي دللناها عليه، فهي تتحيّف من أقطاره، وتنتقص من أطرافه، حتى تستوفي أجْمَعَهُ، وتكونَ

(١) هو المؤرّخ الجغرافي النسابة: جالَسَ الخليفة المتوكل العباسي، ومدح المأمون، ومات في أيام المعتمد، سنة ٢٧٩ هـ. ومن كتبه «فتوح البلدان» وهومصدر وثيق للفتوحات الإسلامية: وقد طبع في أوروبا والقاهرة. وكتاب «الأشراف».

بدلاً منه. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴿٤٦﴾﴾.

ويجوز أن يكون معنى دلالة الشمس على الظل، أنه لولا الشمس لم يُعرف الظل. ويجوز أن نقول: لولا الظل لم تعرف الشمس.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴿٤٧﴾﴾ استعارتان. فإحداهما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾. والمراد باللباس ههنا، والله أعلم، تغطية ظلام الليل النُّشوزَ والقيعان، وأشخاصَ الحيوان كما تغطّي الملابسُ الضّافية، وتسترُ الجُنَنُ الواقية. وهذه العبارة من أفصح العبارات عن هذا المعنى.

ومعنى السُّباتِ: قَطْعُ الأعمال، والرَّاحةُ من الأشغال. والسَّبْت في كلامهم: القَطع.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾. والنشورُ في الحقيقة: الحياة بعد الموت. وهو ههنا مستعار الاسم لتصرُّف الحي وانبساطه، تشبيهاً للنوم بالممات، واليقظة بالحياة. وذلك من أوقع التشبيه، وأحسن التمثيل.

وفي قوله سبحانه: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الآية ٤٩] استعارة. وقد مضت الإشارة إلى نظيرها في سورة «الأعراف».

وَوَصْفُ البلدة بالموت ههنا محمول على أحد وجهين: إما أن تكون إنما شبّهتْ بالميت من فرْط يَبَسِها، لتسلُّط المحْل عليها، وتأخّر الغيث عنها. أو يكون فيها من النبات والشجر، لَمَّا مات لانقطاع الماء عنه، حَسُنَ أن توصف هي بالموت لموت بنيها، لأنها كالأم التي تَكْلَفُهُ، والظِّئْرِ التي تُرْضِعُهُ.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الآية ٥٣] استعارة. والمراد بذلك، والله أعلم، أنه خلاّهما من مذاهبهما، وأرسلهما في مجاريهما، كما تُمْرَجُ الخيل أي تُخَلى في المروج مع مراعيها.

فكان وجه الأعجوبة من ذلك، أنه سبحانه، مع التخلية بينهما في تقاطعهما، والتقائهما في مناقعهما، لا يختلط الملح بالعذب، ولا يلتبس العذب بالملح.

ولغة أهل تهامة «مَرَجَهُ»، ولغة أهل نجد «أَمْرَجَهُ». وقال أبو عبيدة[1]: إذا تركت الشيء وخلّيته فقد مَرَجْتَهُ. ومنه قولهم: مَرَجَ الأمير الناسَ: إذا خلاهم بعضهم على بعض. والأمر المَرِيج: المختلط الملتبس.

وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾، وقد قُرِئ: سُرُجاً، على الجمع. وهي قراءة حَمزةَ والكسائي من السبعة. والباقون يقرأون: سراجاً على التوحيد.

فمن قرأ «سُرُجاً» أراد النجوم، ومن قرأ «سراجاً» أراد الشمس، ويقوّي ذلك قوله سبحانه في موضع آخر: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح]. ويقوّي قراءةَ مَنْ قرأ «سُرُجاً» أن النجوم من شعائر الليل، والسُّرُجُ بأحوال الليل أشبه منها بأحوال النهار.

وإنما شبهت النجوم بالسُّرج لاهتداء الناس بها في الظَّلماء، كما تهتدي بالمصابيح الموضوعة، والنيران المرفوعة.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ استعارة، ومعنى خِلْفةً، في بعض الأقوال، أي جعل الليل والنهار يتخالفان، فإذا أتى هذا ذَهَب هذا، وإذا أدبر هذا أقبل هذا.

وقيل: خلْفة أي يخلُف أحدهما الآخر، فيكون ذلك من الخلافة لا من المخالفة.

وقيل: خِلْفَة، أي أحدهما أسود، والآخر أبيض. وهو أيضاً راجع إلى معنى المخالفة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ استعارة. والمراد، والله أعلم، لا يصمُّون عن قوارع النُّذر، ولا يَعْشَوْن عن مواقع العِبَر.

(١) هو مَعْمَر بن المُثنى النحوي البصري، كان إماماً في اللغة والأدب. وقال فيه الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. واشتهر بحفظ حديث رسول الله. وقد استقدمه الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه. وتوفي سنة ٢٠٩هـ.

سورة الشعراء

٢٦

أهداف سورة «الشعراء»(*)

سورة الشعراء سورة مكية وآياتها ٢٢٧، نزلت بعد سورة الواقعة، وسميت بهذا الاسم لذكر الشعراء فيها، في قوله تعالى.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾.

موضوع السورة

موضوع سورة «الشعراء» هو موضوع السور المكية جميعاً، وهو تثبيت العقيدة وتلخيص عناصرها الأساسية ويتوافق ذلك مع دعوة السورة إلى توحيد الله:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ٢١٣﴾.

وبيان قدرة الله الفائقة ونعمه السابغة على لسان إبراهيم الخليل (ع) حين يقول، كما ورد في التنزيل:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾.

وتتطرّق السورة إلى وعيد المكذّبين بعذاب الدنيا، أو بعذاب الآخرة.

حيث تقول:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٦﴾ وتقول:

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾.

ذلك إلى تسلية الرسول (ص)

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ _ ١٩٨٤.

وتعزيته عن تكذيب المشركين له وللقرآن:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

وإلى طمأنينة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين، وتثبيتهم على العقيدة مهما أوذُوا في سبيلها من الظالمين، كما ثُبِّتَ مَنْ قَبْلَهم من المؤمنين.

القَصَص في سورة الشعراء

القَصَص غالب على سورة الشعراء، يَشْغَل معظم السورة: فمجموع آياتها ٢٢٧ آية، منها ١٨٠ آية تحتوي على قَصَص هادف يَمَسّ شِغَاف القلوب، ويبين رعاية الله للأنبياء والمرسَلِين. ذكرت قصة موسى وفرعون في الآيات [١٠ ـ ٦٨].

وفيها سبعة مشاهد، أولها: مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى وربه؛ وثانيها: مواجهة موسى لفرعون ومَلَئِه، وتأييد موسى بآيَتَي العَصَا واليد البيضاء؛ وثالثها: مشهد التآمر وجمع السَّحَرة وحشد الناس للمباراة الكبرى؛ ورابعها: مشهد إيمان السَّحَرَة وتهديد فرعون ووعيده؛ وخامسها: مشهد إيحاء الله لموسى أنْ يَسْري بعباده ليلاً؛ وسادسها: مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشِرِين يَجْمَعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل؛ وسابعها مشهد المواجهة أمام البحر، ونهاية القِصّة بانفلاق البحر وغَرَق الظالمين ونجاة المؤمنين.

قصة ابراهيم

تستغرق قصة إبراهيم الآيات: [٦٩ ـ ١٠٤]، والحلقة التي تعرض هنا من قصة إبراهيم (ع) هي حلقة الرسالة إلى قومه، وحواره معهم حول العقيدة، وإنكار الآلهة المُدَّعاة، والاتّجاه بالعبادة إلى الله، وبيان صفات الله وفضله وعظيم نعمائه، فهو الذي يخلق ويُطْعم ويَسقي، ويَشفي ويُحيي ويُميت، ويَغْفر الذنب ويُحاسب الناس، ويُكافئ المؤمنين ويعاقب الغاوين.

وفي أعقاب قصة إبراهيم، مشهد كامل من مشاهد القيامة، يتنكّر فيه المشركون لآلِهتِهم، ويندمون على الشِّرْك الذي انتهى بهم إلى ماهم فيه، وكأنهم قد صاروا فعلاً في موقف الحساب والجزاء، وهنا عبرة القصة للمشركين.

ومن ثَمَّ يتوسع السياق في الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد، وفساد عقيدة الشرك، ومصير المشركين في يوم الدين، لأن التركيز متجه إليه، وتختصر السورة ما عدا ذلك مما يُفَصَّل في سُوَرٍ أخرى.

قصة نوح

تستغرق قصة نوح (ع) الآيات [١٠٥ ـ ١٢٢] ونَلْحَظ أن القَصَص في سورة الشعراء لا يتّبع التسلسل التاريخي، فقد عُرِضت قصة موسى (ع)، ثم قصة إبراهيم (ع)، ثم قصة نوح (ع). ولو أراد أن يتّبع التسلسل التاريخي لَعَرَض قصة نوح أولاً، ثم قصة إبراهيم، ثم قصة موسى.

لكنه، أي القَصَص، في هذه السورة، كان يذكر الأحدَث ثم يرجع في الزمن من قصة إبراهيم إلى قصة نوح. لأن الخط التاريخي ليس هو المقصودَ هنا، بل المقصودُ هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب.

وقصة نوح، ومِنْ قَبْلها قصة موسى وقصة إبراهيم، قد عُرِضت في سُوَر شتى سابقة.

لكن الجانب الذي يعرضه من القصة يأتي مناسباً لسياق السورة، وللعظة والعبرة المقصودة منها.

وتُعْرض قصة نوح، غالباً في سلسلة من قِصَص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين.

وأظهرُ ما في الحلقة المعروضة في سورة الشعراء هنا: دعوةُ نوح قومَه إلى تقوى الله، وإعلانُه أنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى، وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء، وهذا ما كان يواجهه رسول الله (ص) في مكة سواء بسواء، ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه، واستجابة الله له بإغراق المكذِّبين وإنجاء المؤمنين.

قصة هود

تستغرق قصة النبيّ هود (ع) الآيات [١٢٣ ـ ١٤٠] وقبيلة عاد، وهم قوم هود، كانوا يسكنون الأحقاف وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن. وقد جاؤوا بعد قوم نوح، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة الطوفان، الذي طَهَّر الأرض من العصاة.

واتخذت عاد المساكن المرتفعة،

والمصانع المشيدة، وبلغت شأواً بعيداً من الحضارة الصناعية، وزادتها القوة بطراً وقسوة، فكفرت بنعم الله وتطاولت وتجبّرت ونسيت الخالق الرزاق، وكَذّبوا نبيَّ الله هوداً فأهلكهم الله ودمر مصانعهم ودورهم، وصبَّ عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم، وتركهم عبرة لكل طاغية:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

قصة ثمود

تستغرق قصة ثمود الآيات [١٤١ ـ ١٥٩] وقد دعاهم صالح (ع) إلى عبادة الله وذكرهم بمافيه من نعمة، وكانوا يسكنون بالحِجْر بين الشام والحجاز، وقد مر النبي (ص) بِدُورهم المدمرة مع صحابته في غزوة تبوك، فاستحث راحلته وحَنَى ظهره، وَجَلاً وخُشوعاً لله، وقال للمسلمين: (لا تمروا على قرى القوم الذين ظَلَموا أنفسهم إلاّ وأنتم مشفقون، خشية أن يصيبكم ما أصابهم).

لقد كانت ثمود في نعمة، فكفروا بنعمة الله عليهم، وذكّرهم صالح بقدرة الله، فطلبوا منه مُعْجِزةً، فأعطاه الله الناقة على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوماً للناقة ويوماً لهم، وحَذّرهم صالح أن ينالوا الناقة بسوء على الإطلاق، وإلاّ أَخَذَهم عذابُ يوم عظيم.

ولكنّهم استمروا في عنادهم وظُلْمهم، فنحروا الناقة، وكذّبوا صالحاً، وأحسُّوا الندم بعد فوات الأوان، فأخذهم عذاب الله العادل:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

قصة لوط

تستغرق قصة لوط (ع) الآيات [١٦٠ ـ ١٧٥] وقد كان قوم لوط يسكنون عدة قرى في وادي الأردن، واشتهر بينهم الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور وترك النساء، وهو انحراف شنيع منافٍ للفطرة. فقد بَرَأ الله الذكر والأنثى، وفَطَرَ كُلاً منهما على الميل الى صاحبه، لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة، من طريق النسل الذي يتحقق باجتماع الذكر والأنثى، فكان هذا المَيْل طرفاً من الناموس الكوني العام.

ولكنّ قوم لوطٍ خرجوا على الفطرة،

واستباحوا الفاحشة، وهدّدوا لوطاً بالطّرْد والنفي، فَخَسَفَ الله قراهم وغطّاها الماء، ومنها قرية سدوم، ويُظن أنها ثاوية تحت البحر الميّت في الأردن.

أصحاب الأيكة

تستغرق قصة أصحاب الأيكة الآيات [١٧٦ ـ ١٩١].

والأيكة: الشجر الكثيف الملتف، وهم أهل مَدْيَن ونبيُّهم شعيب (ع). وكان شأنهم تطفيف الكيل والميزان. وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط وحسن المعاملة، فكذّبوا نبيهم فأخَذَهم عذابُ يوم عظيم في يوم حار خانق، يكتم الأنفاس ويُثقل الصدور، ثم تراءت لهم سحابة فاستظلّوا بها، فوجدوا لها برداً، ثم إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تُفزعهم وتدمّرهم تدميراً، وكان ذلك يوم الظُّلَّةِ، فالظّلّة كانت سمة اليوم المعلوم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾.

في أعقاب القَصَص

الآيات الأخيرة من سورة الشعراء تعقيبٌ على قصص المرسلين فيها، وتأكيد على بعض أهداف الرسالة السماوية فقد ذكر الله في هذا القَصَص قضية الرسل والرسالات، وقصة التكذيب والإعراض، وقصة التحدي والعقاب. وتمثلت هذه المعاني في قصة موسى مع فرعون، وقصة ابراهيم مع أبيه وقومه، وقصة نوح مع قومه، وقصة هود مع عاد، وقصة صالح مع ثمود، وقصة لوط مع قومه، وقصة شعيب مع أصحاب الأيكة. فلما انتهى القَصَص عاد السياق إلى موضوع السورة، وهو العقيدة والإيمان بالله ورسله واليوم الآخِر. وقد جاء التعقيب الأخير في السورة يتحدّث عن القرآن، فيؤكد أنه تنزيل من رب العالمين.

ويشير إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن: لأنه مذكور في كتب الأوّلين، ولكن المشركين يعاندون الدلائل الظاهرة، ويزعمون أنه سِحْر أو شعر، ولو أن أعجمياً لا يتكلّم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين، لأن العناد هو الذي يقعد بهم عن الإيمان، لا ضعف الدليل، وما تنزلت الشياطين بهذا

القرآن على محمد (ص)، كما تتنزل بالأخبار على الكهّان؛ وما هو كذلك بشعر، فإن له منهجاً ثابتاً، والشعراء يهيمون في كل واد وفق الانفعالات والأهواء. إنما هو القرآن المُنْزَل من عند الله تذكيراً للمشركين قبل أن يأخذهم الله بالعذاب، وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون:

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وقد استغرق هذا التعقيب الأخير على القصص الآيات [١٩٢ ـ ٢٢٧]، وخُتم هذا التعقيب بهذا التهديد المخيف الذي يلخص موضوع السورة.

اشتملت تلك السورة على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم، واستهتارهم بالوعيد، واستعجالهم بالعذاب، كما شملت مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون.

ترابط الآيات في سورة «الشعراء»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الشعراء بعد سورة الواقعة، ونزلت سورة الواقعة بعد سورة طه، وكان نزول سورة طه فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة الشعراء في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لذكر الشعراء في قوله تعالى في الآية ٢٢٤ منها: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾. وتبلغ آياتها سبعاً وعشرين ومائتي آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة التنويه بشأن القرآن، وقد جاء أولها في تهديدهم على التكذيب به، وجاء آخرها في إثبات تنزيله، والتمييز بينه وبين ما تلقي الشياطين على الكُهّانِ والشعراء.

وقد خُتمت السورة السابقة بإنذارهم بأن عذابهم سيكون لزاماً. فجاءت هذه السورة بعدها، وفي أولها أنه سبحانه، إن يشأ يُنْزِلْ عليهم آية عذاب تخضع لها أعناقهم.

التنويه بشأن القرآن
الآيات [١ ـ ١٩١]

قال الله تعالى: ﴿طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ فنوّه بشأن القرآن وحُسن بيانه، ونهى الرسول (ص) أن

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

يبالغ في الحزن على تكذيبهم به، وذكر أنه إنْ يشأ يُنْزِل عليهم آية عذابٍ تخضع لها أعناقهم، وأنه سوف يأتيهم أنباءُ ما يستهزئون به من إنذارهم بوقوع العذاب عليهم، ثم أثبت ذلك بأمرين: أولهما ما يرونه من إنباته في الأرض كلْ زوج كريم، ففي ذلك آية من آيات القدرة الإلهية على تحقيق إنذاره لهم، ثم ذكر أنه عزيز لا يَعجز عن تعذيبهم، وأنه رحيم يُمْلي برحمته لهم. وثانيهما ما حصل من ذلك، للأمم قبلهم، وقد ذكر في هذا السياق موسى مع فرعون، وقصة إبراهيم مع أبيه وقومه، وقصة نوح مع قومه، وقصة هودٍ مع عَادٍ، وقصة صالح مع ثَمودَ، وقصة لوطٍ مع قومه، وقصة شُعَيْبٍ مع أصحاب الأيكة، وقد ذُكرت هذه القِصص قبل هذه السورة، ولكنها هنا تخالف ما سبق منها في سِياقِها، وفي بعض زيادات فيها وتغييرات في أسلوبها، ومن هذا تذييل كل قصة منها بما يبيّن الغرض من ذِكْرها، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾.

إثبات تنزيل القرآن
الآيات [١٩٢ ـ ٢٢٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٩٢﴾ فَذَكَر بعد تهديدهم على تكذيبه أنه تنزيله، وأن جبريل روحه الأمين نَزَلَ به على رجل منهم لِيُنذرهم بلسانهم، ثم أثبت ذلك بما جاء من البشارة به في كتب الأولين، وبشهادة علماء بني إسرائيل بصدقه، وذكر أنه لو نزّلهُ على بعض الأعجمين فقرأه عليهم لم يؤمن به أحد منهم، لنزوله بغير لسانهم.

ثم ذكر تمكُّن التكذيب به في قلوب المجرمين من المشركين، وأنهم لا يؤمنون به حتى يأتيهم ما ينذرهم به من العذاب الأليم، ثم وبّخهم على استعجالهم ذلك العذاب الأليم، وذكر أنه سيمتّعُهُم سنين قليلةً، ثم يأخذهم به فما يغني عنهم شيئاً ما تمتّعُوا به، وأنه لا يُهْلك قريةً إلا بعد إنذارهم، ليكون إهلاكها تذكرة وعبرة لغيرها.

ثم أبطل ما يذكرونه من أنه من إلقاء الشياطين كسائر ما يُلقونه على الكهّان والشعراء، فذكر أنه لم تتنزّل به الشياطين، لأن مثله مما لا يستطيعه مثلهم، ولأنهم معزولون عن السمع فلا

يمكنهم أن يتلقوه كما تتلقاه الملائكة، ثم ذيَّلَ ذلك بنهي الرسول (ص) عن أن يدعو معه إلهاً آخر لئلاّ يقع فيما ينذرون به من العذاب، ويأمره أن يكتفي بإنذار عشيرته الأقربين، وأن يَخْفِضَ جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، فإن عَصَوْه فليتبرأ مما يعملون، وليتوكل على العزيز الرحيم، فإنه يرى قيامه وصلاته، ويسمع دعاءه ويعلم حاله.

ثم عاد السياق إلى إبطال زَعْمهم أنه من إلقاء الشياطين، فذكر أن الشياطين لا تتنزّل إلاّ على كلّ كذّاب أثيم، فيلقون على الكهّان ما يزعمون أنهم سمعوه من السماء من أكاذيبهم. وذكر أن أمر أكثر الشعراء كأمر الكهان، فهم ضالون يهيمون في كل واد، ولا يتورعون عن الكذب في المدح والهجاء وغيرهما من فنون الشعر، ولا يستحون أن يقولوا ما لا يفعلون: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الشعراء»(*)

أقول: وجه اتصالها بسورة «الفرقان» أنه تعالى لما أشار فيها إلى قِصَص مجملة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان]. شرح هذه القِصَص، وفصّلها أبلغ تفصيل في الشعراء التي تلي «الفرقان»، ولذلك رتبت على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة، فبدئ بقصة موسى (ع)[1]، ولو رتبت على الواقع لأخرت قصة موسى كما في «الأعراف».

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذي منّ الله بإلهامه.

ولما كان في الآيات المذكورة قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الآية ٣٨]، زاد في «الشعراء» تفصيلاً لذلك قصة قوم إبراهيم (ع)، وقوم لوط (ع)، وقوم شعيب (ع).

ولما قال سبحانه في «الفرقان»:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) بدئ بقصة موسى من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الآية ١٠] وما بعدها.
ثم نوح (ع) في قوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ وما بعد هذه الآية. ثم قبيلة عاد في قوله جلّ وعلا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾. وهكذا على ترتيب آيات الفرقان.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾، ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]، فختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك، واستثنى منهم مَنْ سَلَكَ سبيل أولئك، وبَيَّن ما يُمْدح من الشعر، ويدخل في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمًا﴾. وما يُذَم منه، ويدخل في اللغو(١).

(١) وذلك من قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ الى آخر السورة [الآية ٢٢٧].

مكنونات سورة «الشعراء»(*)

١ - ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الآية ٣٨].

أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن ابن عباس قال: كان السَّحَرَةُ سبعين رجلاً.

وعن كعب قال: كانوا اثني عشر ألفاً.

وعن أبي ثُمامة قال: كانوا سبعة عشر ألفاً.

وعن محمد بن كعب القُرظي: كانوا ثمانين ألفاً.

وعن السُّدِّي قال: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً.

وعن ابن جرير قال: ابن زيد(*) إن اجتماعهم كان في الإسكندرية.

وسَمَّى ابنُ إسحاق رؤساءهم: سابور، وعازور، وخطحط، ومصفي، وشمعون.

٢ - ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ [الآية ٤٥].

أخرج ابنُ أبي حاتِم عن ابن عباس قال: عصا موسى اسمها: ماشا.

وقيل: نَبْعة. حكاه في «الكشاف».

٣ - ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الآية ٥٤].

أخرج ابنُ أبي حاتم، عن طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كان أصحابُ موسى ستمائة ألف. وأخرج مثله عن ابن مسعود وغيره.

وأخرج، من طريق آخر، عن ابن مسعود: أنهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(*) زيادة من «تفسير الطبري».

وعن قتادة: أنهم خمسمائة وثلاثة آلاف وخمسمائة.

وعن السُدّي: ستمائة ألف وعشرون ألفاً.

٤ ـ ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية ١٩٧].

أخرج ابنُ أبي حاتِم، وابنُ سعد، عن عطية في هذه الآية قال: كانوا خمسة: أسد، وأسيد، وابن يامين، وثعلبة، وعبدالله بن سَلام.

لغة التنزيل في سورة «الشعراء»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

فقالوا: كيف صح مجيء «خاضعين» خَبَراً عن «الأعناق»؟

الجواب: أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين فأقحمت «الأعناق» لبيان موضع الخضوع.

وقُرئ: (فظلَّت أعناقهم لها خاضعة).

أقول: والقراءة الصحيحة التي توافق العربية القراءة الأخيرة، غير أني أرى أن في القراءة المُثْبتة في المصحف، وهي موضع درسنا، مراعاةً للتناسب في فواصل الآيات، فقد بنيت هذه الفواصل على أن تنتهي بالنون في كلمات موزونة على بناء واحد أو متشابه وهي: مؤمنين، خاضعين، معرضين، يستهزئون، كريم، رحيم، مؤمنين، ظالمين.

أقول أيضاً: إن مراعاة التناسب في الأصوات والأوزان مُتطلّبة في آي القرآن، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة]، قد جاء في هذا السياق؟.

فتقديم المفعول على (تقتلون)، يخدم ما أشرنا إليه لإحكام النظم وحُسن الأداء، وإحداث الأثر في النفوس.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الآية ٢٤].

أقول: إن احتساب السماوات

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

والأرض مُثنّى بدلالة الضمير في «بينهما» مثل قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء/ ٣٠].

وقد كنا قلنا في هذه المسألة ما فيه الكفاية في الآية التي أشرنا إليها من سورة الأنبياء.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقُرئ: أرجئه وأرْجِهْ: بالهمز والتخفيف، وهما لغتان. يقال: أرجأته وأرجيته إذا أخّرْتَه. ومنه المرجئة أصحاب المقولة المعروفة.

وقوله تعالى: ﴿حَٰشِرِينَ﴾، أي: شُرَطاً، جمع حاشر.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أن السَّحَرة حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رَموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين. والمعنى خرُّوا أو سقطوا؛ وإنما عُبِّر بالإلقاء عن هذا المعنى، لأنه ذُكِرَ مع الإلقاءات التي وردت في الآيتين اللتين سبقتا:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي: لجماعة قليلة، ومن ذلك قولهم، ثوب شَرَاذِم، أي: بَلِيَ وتقطّع قِطَعاً.

أقول: لقد وصِفت «الشِرْذِمة»، وهي الجماعة القليلة، بقوله تعالى ﴿قَلِيلُونَ﴾ مراعاة للمعنى، أي: أن الجماعة جماعة ذكور.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿حَٰذِرُونَ﴾: جمع حاذر وهو اليقظ والذي يجدّد حذره.

أقول: وقُرئ: حادِرون، بالدال المهملة، والحادر السمين القوي.

أي: أنهم أقوياء أشِدّاء.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾﴾.

أقول: ومن المفيد أن نلاحظ أن «عين الماء» لم تجمع في القرآن إلا على «عُيون»، في حين أن العين الباصرة جمعت على «أعين».

٨ ـ وقال تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الآية ٦٣].

الفِرْق: هو الجزء المتفرّق منه، وقُرِئ: «فِلْق».

أقول: ومجيء «فِرْق» بالكسر فالسكون لكونه اسماً، والمصدر على «فَعْل» بالفتح فالسكون، وكنا قد عرضنا لهذه المسألة غير مرة.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

ومثل هذه الآية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

وقوله جلّ وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

ومثله قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

أقول: لقد لحقت تاء التأنيث الفعل على أن الفاعل مؤنث، وعلى هذا تكون «عاد»، بمعنى أمّة، وكذلك ثمود. أما «قوم» فمعناها قبيلة أو جماعة. ولو رُوعي اللفظ لعُدّت مذكرة، كما ورد في آيات كثيرة، وكنا عرضنا لشيء من هذا.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

وقُرِئ: الجِبْلة بوزن الخِلْقة، والجُبُلّة بوزن الأُبُلّة، والمعنى واحد.

أقول: ووصف الجِبِلّة، وهي مؤنث بالأولين، جاء لمراعاة المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الآية ١٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أي: القرآن في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ أي: في سائر الكتب السماوية. والزُّبُر جمع زَبور وهو الكتاب المكتوب.

وكنا قد مررنا على هذه الكلمة في آية سابقة.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

أقول: وقوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ أي، واحد من الأعجمين، وهنا أفادت كلمة (بعض) الواحد بدلالة قوله جلّ وعلا: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾.

أقول: قرأ الحسن: «الشياطون»، ووجهه أنه رأى آخره كآخر يَبْرين وفلسطين، فتخيَّر بين أن يُجري الإعراب على النون، وبين أن يجريه على ما قبله فيقول: الشياطين والشياطون، كما تخيَّرت العرب بين أن يقولوا: هذه يَبْرون ويَبْرين، وفلسطون وفلسطين.

وحمل الفرّاء قراءة الحسن على الغلط.

المعاني اللغوية في سورة «الشعراء»(*)

قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الآية ٤]. يزعمون انها على الجماعات نحو «هذا عُنُقٌ من الناس» يعنُون «الكثير» أو ذَكَّرَ كَمَا يُذَكِّر بعض المؤنث لمّا أضافه الى مذكر. وقال الشاعر[1] [من الطويل وهو الشاهد السادس والخمسون بعد المئتين]:

بَاكَرْتُهَا والدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ
إِذَا مَا بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فَتَصَوَّبُوا[2]

فجماعات هذا «أعْناقٌ»، أوْ يكون ذكّره لإضافته إلى المذكر كما يؤنث لاضافته الى المؤنث نحو قوله[3] [من الطويل وهو الشاهد السابع والخمسون بعد المئتين]:

وَتَشْرَقُ بِالقَوْلِ الذي قَدْ أَذَعْتَهُ
كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ القَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

وقال آخر [من الرجز وهو الشاهد الثامن والخمسون بعد المئتين]:

لَمَّا رَأَى مَتْنَ السَّمَاءِ انْقَدَّتِ

وقال[4] [من الطويل وهو الشاهد

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو النابغة الجعدي. شعر النابغة الجعدي ٤، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٢٤٠، وشرح المغني للسيوطي ٢٦٥، واللسان «نعش»، والصاحبي ٢٥٠.

(٢) في الديوان «شربت بها» بدل «باكرتها»، وكذلك في شرح شواهد المغني للسيوطي والمغني ٢/ ٣٦٥، وفي مجاز القرآن ٢/ ٨٣ و٩٣ بـ «شربت» اذا ما الديك، وفي مجاز القرآن ١/ ٢٧٦ و٢/ ٣٨، و«اللسان» «الصحاح» «نمش» بـ «تمززتها» بدل «شربت بها».

(٣) هو الأعشى ميمون. الصبح المنير ٩٤، والكتاب وتحصيل عين الذهب ١/ ٢٥.

(٤) هو الفرزدق. ديوانه ٢/ ٥٥٢، والصحاح واللسان «قبض».

التاسع والخمسون بعد المئتين]:

إذَا القُنْبُضَاتُ السُّود طَوَّفْنَ بالضُحَى
رَقَدْنَ عَلَيْهِنَّ الحِجَالُ المُسَجَّفُ

و(القُنْبُضُ): القصير. وقال آخر[1] [من الطويل وهو الشاهد الستون بعد المئتين]:

وإنَّ امْرَءاً أهْدَى إلَيْكَ وَدُونَهُ
مِنَ الأرْضِ مَوْمَاةٌ وبَيْدَاءُ خَيْفَقُ[2]

لَمَحْقُوقَةٌ أنْ تَسْتَجِيبي لِصَوْتِهِ
وَأنْ تَعْلَمِي أنَّ المُعَانَ مُوَفَّقُ[3]

فأنّث. والمحقوق هو المرء. وانما أنث لقوله «أنْ تَسْتَجِيبي لِصَوْتِهِ» ويقولون: «بَنَاتُ عُرْسٍ» و«بَنَاتُ نَعْشٍ» و«بَنُو نَعْشٍ» وقالت امرأة من العرب «أنَا امْرُؤٌ لاَ أُحِبُّ الشَرَّ». وذكر لرؤبة رجل فقال «كانَ أحَدَ بناتِ مَساجِدِ اللهِ» كأنه جعله حصاة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية ١٦] وهذا يشبه ان يكون مثل «العَدُوّ» وتقول «هما عَدُوٌّ لي».

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ [الآية ٢٢] فيقال هذا استفهام كأنّه قال «أوَ تِلْكَ نِعْمَةٌ»، ثم جاء التفسير بقوله تعالى: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية ٢٢] وجعله بدلاً من النعمة.

وقال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ [الآية ٧٢] أي: «هَلْ يَسْمَعُونَ منكُم» أوْ «هَلْ يَسْمَعُونَ دعاءَكم». فحذف «الدعاءَ» كما قال الشاعر[4] [من البسيط وهو الشاهد الحادي والستون بعد المئتين]:

القَائِدُ الخَيْلَ مَنْكُوباً دَوابِرُها
قَدْ أُحْكِمَتْ حَكَماتُ القِدِّ والأبَقا[5]

يريد: أُحْكِمَتْ حَكَمات الأبَق. فحذف «حَكَماتِ» وأقامَ «الأبَقَ»

(١) هو الأعشى ميمون. الصبح المنير ١٤٩ ومجاز القرآن ١/ ٢٤٤ و٢/ ٣٩ و٤٧.

(٢) في الديوان «أسري» بدل «أهدى» و«فياف تنوفات» بدل من «الأرض موماة» وفي الإنصاف ١/ ٤٣ «أسرى» أيضاً. وفي مجاز القرآن ١/ ٢٤٤ «بهماء» بدل «بيداء». وفي مجاز القرآن ٢/ ٤٧ «سملق» بدل «خيفق».

(٣) في الانصاف ١/ ٤٢ «دعاءه» بدل «الصوته».

(٤) هو زهير بن ابي سلمى المزني. ديوانه ٤٩، والتهذيب ٩/ ٣٥٥ «ابق»، والصحاح واللسان «أبق» و«حكم». «وزهم».

(٥) البيت بهذه الصيغة في المصادر السابقة، وهناك بيت آخر لزهير أيضاً في ديوانه ٤٤ و١٥٣، والكامل ٢/ ٦٠٨، واللسان والصحاح «حكم» و«زهم» صدر كصدره؛ أما عجزه فهو: «منها الشنون ومنها الزاهق الزهم».

مُقامَها. و«الأَبَقُ»: الكِتّان[1].

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ [الآية ١٩٧]، اسم في موضع رفع مثل ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ [الجاثية/٢٥]. ولكن هذا لا يكون فيه إلا النصب في الأول ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ هو الذي يكون آية، وقد يجوز الرفع، وهو ضعيف[2].

وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ [الآية ١٩٨] واحدُهم «الأَعْجَمُ» وهو إضافة كالأَشْعَرِين.

وقال تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم﴾ ليس بمعطوف على (حتّى) وإنّما هو جوابٌ لقوله سبحانه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فلما كان جواباً للنفي انتصب، وكذلك ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ [الآية ٢٠٣] إنّما هو جواب للنفي.

وقال تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس][3] أي: فاسمعوا مني.

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٧٥٥ و٧٥٦ والجامع ١٣/ ١٠٩.

(٢) نصب (آية) قراءة نسبت في السبعة ٩٧٣، والكشف ٢/ ١٥٢، والتيسير ١٦٦، والجامع ١٣/ ١٢٩، إلى غير ابن عامر؛ أمّا القراءة برفع (آية) فنسبت في المراجع السابقة كلها الى ابن عامر وحده؛ وفي البحر ٧/ ٤١ زاد الجحدري.

(٣) لا مسوّغ لا يراد هذه الآية في هذا الموضع.

لكل سؤال جواب في سورة «الشعراء»(*)

إن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الآية ٤] والأعناق لا تخضع؟

قلنا: قيل أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله، كقولهم ذهبت أهل اليمامة، كأنّ كلمة أهل غير مذكورة. ومثله قول الشاعر:

رَأَتْ مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي
كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلَالِ

أو لمّا وصفت الأعناق بالخضوع، الذي هو من صفات العقلاء، جُمعت جمع العقلاء كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف/ ٤].

وقيل: الأعناق رؤساء الناس ومُقَدَّموهم، شُبهوا بالأعناق، كما قيل لهم الرؤوس والنواصي والوجوه، وقيل: الأعناق الجماعات؛ يقال: جاءني عنق من الناس أي جماعة، وقيل إن ذلك لمراعاة الفواصل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية ١٦] بالإفراد، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه/ ٤٧] بالتثنية؟

قلنا: الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته، ويكون بمعنى الرسالة التي هي مصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

لقَدْ كَذَبَ الواشون ما بحتُ عندَهُمْ

بِسِرٍّ وَلا أرسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

أي برسالة. الثاني: أنهما، لاتفاقهما في الأُخُوْة والشريعة والرسالة، جُعلا كنفس واحدة. الثالث: أن تقديره: أن كل واحد منا رسول رب العالمين. الرابع: أن موسى (ع) كان الأصل، وهارون (ع) كان تَبَعاً له، فأفرد إشارة إلى ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال موسى (ع)، كما ورد في التنزيل، معتذراً عن قتل القبطي: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والنبيّ لا يكون ضالاًّ؟

قلنا: أراد به وأنا من الجاهلين.

وقيل أراد من المخطئين، لأنه ما تعمد قتله. كما يقال: ضلّ عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ. وقيل من الناسين، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة/ ٢٨٢].

فإن قيل: لِمَ قال فرعون، كما ورد في التنزيل: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولم يقل ومن رب العالمين؟

قلنا: هو كان أعمى القلب عن معرفة الله سبحانه وتعالى، منكراً لوجوده؛ فكيف ينكر عليه العدول عن «من» إلى «ما». الثاني أن «ما» لا تختص بغير العاقل بل تطلق على العاقل وسواه، قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء/ ٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون/ ٣ و٥].

فإن قيل: لِمَ قال موسى (ع) كما ورد في التنزيل: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، علق كونه تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما، بشرط كون فرعون وقومه موقنين، وهذا الشرط منتفٍ، والربوبية ثابتة فكيف صح التعليق؟

قلنا: معناه الأول إن كنتم موقنين أن السموات والأرض وما بينهما موجودات، وهذا الشرط موجود. الثاني: أن «إن» نافية لا شرطية.

فإن قيل: إنّ ذكر السماوات والأرض وما بينهما قد استوعب ذكر المخلوقات كلها، فما الحكمة في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الآية ٢٨]؟

قلنا: أعاد ذكرها تخصيصاً لها وتمييزاً، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع، والنقل من هيئة إلى هيئة، ومن حال إلى حال، من وقت ولادته إلى وقت وفاته؛ ثم خص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها في الآخر، على تقدير مستقيم في فصول السنة، وحسابٍ مستوٍ، من أظهر ما يُستدلّ به على وجود الصانع. ولظهوره انتقل خليل الله صلوات الله عليه وسلامه، إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة/٢٥٨].

فإن قيل: لِمَ قيل أوّلاً: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴿٢٤﴾﴾ وقيل آخِراً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴿٢٨﴾﴾؟

قلنا: كان اللين واللطف أوّلاً، فلما برز عنادهم وإصرارهم كان قوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴿٢٨﴾﴾ ردّاً على افتراء فرعون، كما ورد في التنزيل حكاية على لسانه ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴿٢٧﴾﴾.

فإن قيل: القولُ: «لأسجننك» أوجز من ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴿٢٩﴾﴾ فلِمَ عَدَلَ عنه؟

قلنا: كان مراده تعريف العهد، فكأنه قال لأجعلنّك واحداً ممن عرفت حالهم في سجني. وكان إذا سَجَن إنساناً طرحه في هوة عميقة جدّاً مظلمة، وحده لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أوجع من القتل، وأشد نكاية.

فإن قيل: قصة موسى(ع) مع فرعون والسَّحَرَة ذُكرت في سورة الأعراف، ثم في سورة طه، ثم في هذه السورة، فما الحكمة من تكرارها وتكرار غيرها من القِصَص؟

قلنا: أولاً: تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز، كما أن المبارز إذا خرج من الصف، قال «نَزالِ نَزالِ هل من مبارز هل من مبارز»، مكرّراً ذلك. يقال: ولهذا سَمّى الله تعالى القرآن مثاني لأنه ثنيت فيه الأخبار والقصص.

فإن قيل: لِمَ كرر الله تعالى ذكر قصة موسى (ع) أكثر من قصص غيره من الأنبياء (ع)؟

قلنا: لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبي (ص) من أحوال غيره من

الأنبياء، في إقامته الحجج، وإظهاره المعجزات لأهل مصر؛ وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه، كما كان حال النبي (ص) مع أهل مكة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الآية ٦١] والتراني «تفاعُلٌ» مشتقّ من الرؤية، فيقتضي وجود رؤية كل جمع للجمع الآخر، والمنقول أن بعضهم لم يرَ بعضاً، فإن الله تعالى أرسل غيما أبيض، فحال بين العسكَرَيْن حتى مَنَعَ رؤيةَ بعضِهم بعضاً؟

قلنا: التراني يستعمل بمعنى التداني والتقابل أيضاً، كما قال (ص): «المؤمن والكافر لا يتراءيان»، أي لا يتدانيان، ويقال: دورنا تتراءى: أي تتقارب وتتقابل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى حكايةً على لسان إبراهيم (ع): ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [الآية ٨٠]، ولم يقل: «وإذا أمرضني»، كما قال قبله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾.

قلنا: لأنه كان في معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نِعَمه، فأضاف إليه الخير المحض حفظاً للأدب، وإن كان الكُلُّ مضافاً إليه، ونظيره، كما ورد في التنزيل، قولُ الخَضِر (ع) ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف/٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف/٨٢].

فإن قيل: هذا الجواب يَبْطُل بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ [الآية ٨١] وبقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ [الكهف/٨١].

قلنا: إنما أضاف الموت إلى الله تعالى لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته، فكان نعمة من هذا الوجه. وقيل: إنما أضاف المرض إلى نفسه، لأن أكثر الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ والمال الذي أنفق في طاعة الله تعالى وسبيله ينفع، والولد الصالح ينفع، والولد الذي مات صغيراً يشفع، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسُّنّة، خصوصا قوله (ص) «إذا مات ابن آدم ينقطع عمله إلاّ من ثلاث»، الحديث؟

قلنا: المراد بالآية أنهما لا ينفعان غير المؤمن، فإنه هو الذي يأتي بقلب سليم من الكفر، أو المراد بهما مال لم يُنفق في طاعة الله تعالى، وولد بالغ غيرُ صالح.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠)﴾ أي قربت، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تُحوَّل؟

قلنا: فيه قلب معناه: وأُزلف المتقون إلى الجنة، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا. وقيل معناه: أنها كانت محجوبة عنهم، فلما رُفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريباً لها.

فإن قيل: لِمَ جُمِعَ الشافع، ووُحِّدَ الصديق في قوله تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١)﴾؟

قلنا: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق؛ ولهذا روي أن أحد الحكماء سئل عن الصديق، فقال: هو اسم لا معنى له، أراد بذلك عِزَّة وجوده. ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو.

فإن قيل: لِمَ قُرِن بين الأنعام والبنين في قوله تعالى ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ (١٣٣)﴾؟

قلنا: لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها، فلهذا قرن بينهما.

فإن قيل: القولُ أَوَعَظْتَ أم لم تَعِظْ أوجز من: ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦)﴾، فكيف عدل عنه؟

قلنا: المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلاً؛ وهذا أبلغ في قلة الاعتداء بوعظه من القول أو لم تعظ.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لِمَ أخذهم العذاب بعد ما ندموا على جنايتهم، وقد قال (ص)«الندم توبة»؟

قلنا: قال ابن عباس رَضِي الله عنهما: ندموا حين رأَوا العذاب، وذلك ليس وقت التوبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء/ ١٨]. وقيل كان ندمهم نَدَمَ خوفٍ من العذاب العاجل، لا نَدَم توبة فلذلك لم ينفعهم.

فإن قيل: لِمَ طلب لوط (ع) تنجيته من اللِّواط، بقوله كما ورد في التنزيل: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)﴾ واللِّواط كبيرة من الكبائر، والأنبياء معصومون من الكبائر؟

قلنا: مراده رب نجّني وأهلي من عقوبة عملهم أومن شؤمه، والدليل على ذلك ضَمُّه أهلَه إليه في الدعاء، واستثناءُ اللهِ تعالى امرأتَه من قبول الدعوة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في قصة شُعيب (ع): ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الآية ١٧٧] ولم يقل أخوهم، كما قال تعالى في حق غيره هنا، وكما قال في حقه في موضع آخر؟

قلنا: لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم، وإنما كان من نسل مَدْيَن، كذا قال مقاتل. وفي الحديث أن شعيباً (ع) أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة. وقال ابن جرير الطبري: أهل مدين هم أصحاب الأيكة، فعلى هذا يكون حذف الأخِ تخفيفاً.

فإنْ قِيل: ما الفرق بين حذف الواو في قصة صالح (ع) وإثباتها في قصة شعيب، في قولهم كما ورد في التنزيل: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الآية ١٥٤] و﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الآية ١٨٦]؟

قلنا: الفرق بينهما أنه، عند إثبات الواو، يكون المقصود معنيين كلاهما منافٍ للرسالة عندهم: التَّسْخير والبشرية. وعند حذف الواو، يكون المقصود معنًى واحداً منافياً لها، وهو كونه مُسَحَّراً ثم قرروا التسخير بالبشرية، كذا أجاب الزمخشري رحمه الله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في وصف الكهنة والمتنبّئة كَشِقٍّ وسَطِيح ومُسَيْلمة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الآية ٢٢٣] بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك أثيم، والأفاك الكذّاب، والأثيم الفاجر، ويلزم من هذا أن يكونوا كلهم كذّابين؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ عائد إلى الشياطين لا إلى كل أفّاك.

المعاني المجازية في سورة «الشعراء»(*)

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وهـــذه استعارة. والمراد بها: العبارة عن التقارب والتداني. وإنما قلنا إن اللفظ مستعار، لأنه قد يحسُنُ أن يوصف به الجمعان، وإن لم يَرَ بعضُهم بعضاً بالموانع، من مُثَار العَجَاج، ورَهْج الطِّراد. لأن المراد به تقارُبُ الأشخاص، لا تلاحُظُ الأحداق، وذلك كقولهم في الحيَّيْن المتقاربين: تتراءى ناراهما. أي تتقابل وتتقارب، لكون النارين بحيث لو كان بَدَلاً منهما إنسانان لرأى كل واحد منهما صاحبه. وقد أومأنا إلى ذلك فيما مضى(1).

ويقال أيضاً: «قوم رِئَاءٌ»، على وزن فِعَال أي يقابل بعضهم بعضاً. وكذلك «بيوتهم رِئَاءٌ» إذا كانت متقابلة. ذَكَر ذلك أحمد بن يحيى ثعلب(2).

ومن هذا الباب الحديثُ المشهور عن النبي (ص)، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا بريءٌ مِنْ كل مسلم مع مُشرك». قيل: ولِمَ يا رسولَ

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) في الكلام في مجازات سورة الفرقان. الآية رقم ١٢.

(2) لم نجد لذلك ذكراً في «مجالس ثعلب» التي نشرتها «دار المعارف» بتحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. ووجدنا ذلك في «الأساس» للزمخشري. وثعلب هو إمام الكوفيين في النحو واللغة. اشتهر بالرواية والحفظ والصدق، وكان ثقة. ومات بصدمة فرس سقط بسببها في هوة، فتوفي على الأثر سنة ٢٩١هـ.

الله؟ قال: «لا تتراءى ناراهما». وقد استقصينا الكلام على معنى هذا الخبر في كتاب «مجازات الآثار النبوية».

وقوله سبحانه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وهذه استعارة. والمراد بها، والله أعلم، فاحكم بيننا وبينهم حكماً قاطعاً، وأمراً فاصلاً: بفتح الباب المبهم بعد ما استصعب رتاجُه، وأُعْضِل علاجُه.

ويقال للحاكم: الفتّاح، لأنه يفتح وجهَ الأمر بعد اشتباهه واستبهام أبوابه. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ/٢٦]. وقال بعض بني ذهل بن زيد بن نَهْد:

وعمّي الّذي كانتْ فِتاحَةُ[١] قَومِهِ
إلى بيتِه حتّى يجهِّز غاديا

أي كان الحُكْم بين قومه، فيه وفي أهل بيته، إلى حين وفاته. وقال فِتاحة قومه بكسر الفاء، لأنها في معنى الوِلاية والزعامة وما يجري مجراهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ وهذه استعارة. والمراد «بالهضيم» ههنا على بعض الأقوال، والله أعلم، الذي قد ضمن[٢] بدخول بعضه في بعض، فكأنَّ بعضه هضم بعضاً لفرط تكاثفه، وشدة تشابكه.

وقيل: الهضيم اللطيف. وذلك أبلغ في صفة الطَّلْع الذي يراد للأكل. وذلك مأخوذ من قولهم: فلان هَضِيم الحَشا. أي لطيف البطن. وأصله النقصان من الشيء. كأنه نقص من انتفاخ بطنه، فلطُفت معاقدُ خصره. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه] أي نقصاً وثلماً.

وقيل الهضيم الذي قد أينع وبلغ. وقيل أيضاً هو الذي إذا مُسّ تهافَت من كثرة مائِه، ورطوبة أجزائه.

والقولان الأخيران يخرجان الكلام عن حد الاستعارة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى

---

(١) وفي «اللسان» الفُتاحة بالضم: الحكم، والفتاحة والفتاحة أن تحكم بين خصمين. والفتاحة: الحكومة. قال الأشعر الجعفي:

ألا من مبلغٌ عمراً رسولاً ... فإني عن فتاحتكم غَنِيُّ

والفتّاح: الحاكم. وأهل اليمن يقولون للقاضي: الفتّاح.

(٢) هكذا بالأصل. ولعلها ضُمّ.

ٱلسَّٰجِدِينَ﴿٢١٩﴾﴾ وهذه استعارة. وليس هناك تقلُّب منه على الحقيقة. وإنما المراد به تقلُّب أحواله بين المصلِّين وتصرُّفه فيهم بالركوع والسجود، والقيام والقعود. وذهب بعض العلماء في تأويل هذه الآية مذهباً آخر، فقال: المراد بذلك تَقلُّبُ الرسول (ص) في أصْلاب الآباء المؤمنين. واستدل بذلك على أن آباءه إلى آدم (ع) مسلمون، لم تختلجهم خوالج الشرك، ولم تضرب فيهم أعراق الكفر، تكريماً له عليه السلام عن أن يجري إلا في منزَّهات الأصلاب، ومطهَّرات الأرحام. وهذا الوجه يَخرج به الكلام عن أن يكون مستعاراً.

وقوله سبحانه: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴿٢٢٣﴾﴾ وهذه استعارة على أحد التأويلين. وهو أن يكون المراد بها أنهم يَشْغلون أسماعهم، ويديمون إصغاءهم ليسمعوا من أخبار السماء ما يموِّهون به على الضُّلَّال من أهل الأرض، وهم عن السمع بمعزل، وعن العلم بِمَزْجَر. وذلك كقول القائل لغيره: قد ألقيتُ إليك سمعي. أي صَرَفته إلى حديثك، ولم أَشْغله بشيء غير سماع كلامك.

والتأويل الآخر أن يكون السَّمْع ههنا بمعنى المسموع، كما يكون العِلْم بمعنى المعلوم، فيكون التأويل أن الشياطين يُلقون ما يدَّعون أنهم يستمعونه إلى كل أفّاك أثيم، من أعداء النبي (ص)، على طريق الوسوسة واعتماد القَدْح في الشريعة. وهذا الوجه يخرج الكلام عن حد الاستعارة.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴿٢٢٥﴾﴾. وهذه استعارة. والمراد بها ، والله أعلم، أن الشعراء يذهبون في أقوالهم المذاهبَ المختلفة، ويَسْلكون الطرق المتشعّبة. وذلك كما يقول الرَّجل لصاحبه إذا كان مخالفاً له في رأي، أو مُباعداً له في كلام: أنا في وادٍ، وأنت في وادٍ. أي أنت ذاهب في طريق وأنا ذاهب في طريق. ومثلُ ذلك قولهم: فلانٌ يهبُّ مع كل ريح، ويطير بكل جَناح، إذا كان تابعاً لكل قائد، ومُجيباً لكل ناعق.

وقيل إن معنى ذلك تصرُّف الشاعر في وجوه الكلام من مدح وذم، واستزادة، وعتب، وغزل، ونسيب، ورثاء، وتشبيب، فشُبِّهت هذه الأقسام

من الكلام بالأودية المتشعبة، والسُبل المختلفة.

ووصف الشعراء بالهَيمَان فيه فَرْط مبالغة في صفتهم بالذهاب في أقطارها، والإبعادِ في غاياتها. لأن قوله سبحانه: ﴿يَهِيمُونَ﴿٢٢٥﴾﴾ أبلغ في هذا المعنى من قوله: «يسْعَون»، و«يَسيرون». ومع ذلك فالهَيمَان صفةٌ من صفاتِ مَنْ لا مُسْكةَ له ولا رجاحةَ معه، فهي مخالفة لصفات ذي الحِلْم الرزين، والعقل الرصين.

سورة النّمْل

٢٧

أهداف سورة «النمل»(*)

سورة النمل سورة مكية، آياتها ٩٣ آية، نزلت بعد سورة الشعراء. وسميت بسورة النمل، لاشتمالها على مناظرة النمل مع سليمان (ع)، الواردة في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

نظام السورة

هذه السورة مجاورة لسورة الشعراء، وهي تَمْضي على نَسَقِها في الأداء: مقدمةٌ وتعقيبٌ يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه، وقَصَص بين المقدمة والتعقيب يُعِين على تصوير هذا الموضوع، ويؤكده، ويُبْرِز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتّى الأمم، للعبرة والتدبّر في سُنَنِ الله وسنن الدعوات.

موضوع السورة

موضوع سورة النمل الرئيسي، كسائر السور المكية، هو العقيدة: الإيمان بالله، وعبادته وحده، والإيمان بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب، والإيمان بالوحي، وأن الغيب كلّه لله لا يعلمه سواه، والإيمان بأن الله هو الخالق الرزّاق واهب النعم؛ وتوجيه القلب إلى شكر أَنْعُم الله على البشر،

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله، وأنْ لاحول ولا قوة إلاّ بالله.

القصص في سورة النمل

يأتي القَصَص في سورة النمل لتثبيت أهداف السورة، وتصوير عاقبة المكذِّبين بها، وعاقبة المؤمنين.

تأتي حلقة من قصة موسى (ع) تَلِي مقدّمة السورة، حلقة رؤيته للنار، وذهابه إليها، وندائه من الملأ الأعلى، وتكليفه الرسالة إلى فرعون ومَلَئِه؛ ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله، وهم على يقين من صدقها، وعاقبة التكذيب مع اليقين:

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

واستغرقت هذه الحلقة، من قصة موسى، من الآية ٧ إلى الآية ١٤.

قصة داود وبلقيس

استغرقت الآيات [١٥ ـ ٤٤] في الحديث عن داود وسليمان وبلقيس. وبدأت بالإشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان عليهما السلام؛ ثم ذكرت قصة سليمان مع النملة، ومع الهدهد، ومع ملكة سبأ وقومها، وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان؛ وقيامهما بشكر هذه النعمة، وهي نعمة العِلْم والمُلْك والنُّبُوّة مع تسخير الجن والطير لسليمان؛ وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول.

قصة بلقيس

تبدأ قصة بلقيس بأن يتفقّد سليمان الطير، ويبحث عن الهدهد فلا يجده، ثم يجيء الهدهد بعد ذلك، وهو هدهد عجيب صاحب إدراك وذكاء وإيمان، وبراعة في عرض الأخبار، فيخبر سليمان أنه رأى ملِكَة ولها رعية كبيرة في بلاد سبأ، ورآهم في نعمة وغنًى، ولكنهم يسجدون للشمس من دون الله، فيكتب له سليمان رسالة ليلقيها إليهم، وفيها كما ورد في التنزيل:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فلما ألقاها على المَلِكَة، جَمَعَت قومها لتستشيرهم فيها. فذكروا لها أنهم أولو قوة وبأس شديد، وفوّضوا أمر ذلك إليها، فذكرت لهم أن عاقبة

الحرب إفساد الديار، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه، فلما جاءته الهدية لم يقبلها، وهدّدهم بأن يرسل إليهم جنوداً لا قِبَلَ لهم بها، فلم تجد المَلِكة مفراً من أن تُذْعن له وتسافر إلى مقرّ مُلْكه، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها، فأخبره عِفريتٌ من الجن بأنه يمكنه أن يأتِيَه به قبل أن يقوم من مجلسه، وأخبره عالِمٌ من علماء قومه بأنه يمكنه أن يأتيه به قبل مرور طرفة عين، فشكر سليمان ربه أنْ جعل في ملكه مِثْلَ هذا الرجل المؤمن المتصل بالله سبحانه.

وأمر سليمانُ قومه أن يُغَيّروا شيئاً من شكل العرش لِيَخْتَبِر ذكاءها، فانتهت الملكة إلى جواب ذكي أريب:

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [الآية ٤٢].

فهي لا تَنْفي ولا تُثْبت، ودلّت على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة، ثم تعرّضت بلقيس لمفاجأة أخرى، في قصر من البلّور أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لجّة. فلما قيل لها ادخلي الصرح، حسِبَت أنها ستَخُوض في لجة الماء وكشفت عن ساقيها، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها، وقال: «إنه صرح مملّس من زجاج».

ووقفت المِلِكَة متعجبة مندهشة أمام هذه العجائب التي تُعجِز البشر، وتَدُل على أن سليمان مُسَخَّر له قوى أكبر من طاقة البشر، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره، معلنةً إسلامها مع سليمان ـ لا لسليمان ـ ولكن لله رب العالمين.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قصة صالح ولوط
عليهما السلام

وفي أعقاب قصة بلقيس نجد الآيات [٤٥ ـ ٥٣] تتحدث عن نبي الله صالح ومكر قومه في حقه. ونجد الآيات [٥٤ ـ ٥٩] تتحدث عن نبي الله لوط وارتكاب قومه لفاحشة اللواط بالرجال، ومحاولة لوط تقديم النصيحة لهم دون جدوى، بل هددوه بالطرد والنفي، فأنجاه الله وأمطر قومه حجارةً من السماء فأهلكتهم، فبئس مطر الهالكين الخاطئين.

أدلة القرآن على وجود الله

في ختام سورة النمل نجد آيات قوية تتحدث عن قدرة الله ومظاهر العظمة والقدرة في هذا الوجود.

***

لقد استعرضت السورة في بدايتها حَلَقاتٍ من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط، عليهم السلام جميعاً، استغرقت الآيات [٧ ـ ٥٩] .

أما الآيات الأخيرة في السورة [٦٠ ـ ٩٣]، فإنها تَجُول جولة هادفة في تثبيت العقيدة، جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس وأطواء الغيب، وفي أشراط الساعة، ومَشَاهِدِ القيامة، وأهوال الحَشْر، التي يفزع لها من في السماوات والأرض إلاّ من شاء الله.

في هذه الجولة الأخيرة، يستعرض القرآن أمام الناس مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس، لا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبِّر القدير.

ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة، تأخذ عليهم أقطار النفس وأقطار المشاعر، وهو يطرح عليهم أسئلة متلاحقة: من خلق السماوات والأرض؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ من يجعلكم خلفاء الأرض؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر؟ من يرسل الرياح بُشْراً بين يدي رحمته؛ من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من يرزقكم من السماء والأرض؟ وفي كل مرة يُقَرِّعُهم: أإله مع الله؟ وهم لا يملكون أن يقولوا: إن إلهاً مع الله يفعل شيئاً من هذا كله، وهم مع هذا يعبدون أرباباً من دون الله!

وعقب هذه الايقاعات القوية التي تقتحم القلوب، لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم، أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم، يستعرض تكذيبهم بالآخرة وتَخَبُّطهم في أمرها، ويُعَقِّب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر ومافيه من هول فزع، ويرجع

بهم في ومضة خاطفة إلى الأرض، ثم يردهم إلى مشهد الحشر، وكأنما يهز قلوبهم هزاً ويرجُها رَجّاً.

***

وتختم السورة بحمد الله الذى يستحق الحمد وحده، وتكلهم إلى الله يريهم آياته، ويطّلع على أعمالهم ماظهر منها ومابطن:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «النمل»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة النمل بعد سورة الشعراء، ونزلت سورة الشعراء فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة النمل في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لورود اسم النمل في قوله تعالى في الآية ١٨ منها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، وتبلغ آياتها ثلاثاً وتسعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة التنويه بشأن القرآن أيضاً، ولهذا ذكرت بعد السورة السابقة، لأنها تشبهها في غرضها، وقد جاء أوّلها في بيان ما فيه من الهداية والبشارة للمؤمنين، والترهيب للكافرين؛ ثم انتقل السّياق منه إلى الترغيب والترهيب بذكر بعض قِصَص الأنبياء والصالحين، ثم انتقل منهما إلى التنويه بشأنها وشأن أصحابها، والموازنة بين من يُنَزِّل مثلها وبين آلهتهم في عجزها وضعفها، إلى غير هذا مما خُتمت به هذه السورة.

التنويه بشأن القرآن
الآيات [١ ـ ٦]

قال الله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾.

فنوّه بشأن القرآن وذكر جلّ شأنه، أنه هدًى وبشرى لمن يؤمن به، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويؤمن بالآخرة؛ وأنه سبحانه زيّن للذين لا يؤمنون بالآخرة أعمالهم، فضلّوا عنه، ثم ذكر أن لهم سوء العذاب، وأنهم في الآخرة هم الأخسرون: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

الترغيب والترهيب بقصص الأنبياء والصالحين

الآيات [٧ ـ ٥٨]

ثم قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ فذكر قصة موسى حينما أعطاه آية عصاه يلقيها فتهتزّ كأنها جانٌّ (حيةٌ صغيرةٌ)، وآيةَ يَدِهِ يدخلها في جيبه، فتخرج بيضاء من غير سوء؛ ثم أرسله بهما إلى فرعون وقومه، لأنهم كانوا قوماً فاسقين؛ فلما جاءهم بآياته، زعموا أنها سحر مبين: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم انتقل السياق منها إلى قصة دَاوُدَ وسليمان عليهما السلام، فذكر أنه سبحانه آتاهما علماً فعمِلا به وحَمِداه عليه، وأنه كان مما آتاه سليمان علم منطق الطير وتسخير كثير من الأشياء له، وأن سليمان جمع جنوده من الجن والإنس والطير، فساروا حتى إذا أتوْا على وادي النمل أمرت نملة جماعتها من النمل أن يدخلوا مساكنهم، لئلا يَحْطِمَهم سليمان بجنوده، ففهم سليمان أمرها وتَبَسَّمَ سروراً من إدراكه له، وطلب من الله عزّ وجلّ أن يُعينه في شكره على تلك النعمة العظيمة، ثم ذكر السياق أن سليمان تفقّدَ الطير فلم ير الهُدْهُد فسأل عنه، وكان قد طار إلى سَبَأ باليمن فلم يَمْكُث إلا قليلاً حتى رجع منها، وأخبره بأنه وجد امرأة تملك سبأ، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فكتب له رسالة ليُلْقِيَها إليهم ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. فلمّا ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها، فذكروا لها أنهم أُولُو قوة وبأس شديد، وفوّضوا أمر ذلك إليها، فذكرت لهم أن عاقبة الحرب إفساد الديار، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه؛ فلما جاءته الهدية لم يقبلها، وهَدَّدَهُمْ

بأن يرسل إليهم جنوداً لا قِبَلَ لهم بها، فلم تجد الملكة مفرّاً من أن تُذْعن له، وتسافر إلى مقرّ ملكه؛ فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها، فأخبره عفريتٌ من الجن بأنه يستطيع أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه، وأخبره عالِمٌ من علماء قومه بأنه يستطيع أن يأتيه به قبل أن يرْتدّ إليه طرفُه، فشكر الله أن جعل في ملكه من يستطيع إحضار ذلك العرش في هذا الزمن، وقد أمرهم أن يغيّروا شيئاً من شكله ليعرضه عليها، وينظر: أتعرف أنه عرشها أم لا تعرفه، ليختبر بذلك عقلها؛ فلما جاءت عُرض عليها وقيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت كأنه هو، وذكرت أنها آمنت بالله وبقدرته من قَبْلِ هذه الآية؛ ثم إنّ سليمان أمرها أن تدخل الصّرح، وكان قصراً من زجاج تحته ماء؛ فلما رأته حسبته لُجّة وكشفت عن ساقيها، فأخبرها بأنه صرح مُمَرَّدٌ من قوارير، فعجبت من ذلك، وآمنت بقدرة الله الذي أعطاه هذا الملك: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (44)﴾.

ثم انتقل السّياق إلى قصة صالح وقومه ثمود، وقصة لوطٍ وقومه، وهما هنا يخالفان ماسبق منهما في سياقهما وأسلوبهما، وفي ذكر بعض زيادات لم تسبق فيهما.

التنويه بهذه القصص وأصحابها
الآيات [٥٩ ـ ٩٣]

ثم قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)﴾ فأمر الله سبحانه، رسوله الأكرم (ص) أن يحمد الله على ماتلاه عليه من هذه القِصَص، وأن يسلم على من اصطفاه من أصحابها، وأن يسأل أولئك الذين لا يؤمنون بتنزيلها: آلله الذي ينزلها خيرٌ، أم آلهتهم التي لا تقدر على إنزال شيء منها؟ وقد ذُكِرَتْ موازنات أخرى بعد هذه الموازنة، إلى أن أُمِروا، أَمْرَ تعجيز، بأن يأتوا ببرهان على أنها آلهة إن كانوا صادقين في زعمهم؛ وذكر السياق أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله، جلّ جلاله، ومن عداه من آلهتهم وغيرهم لا يشعرون أيّان يُبعثونَ. ومع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة، ولكنهم شاكّون جاهلون، ومن أسباب ذلك فيهم أنهم يستبعدون أن يُبْعثوا بعد

أن يصيروا تراباً، ويزعمون أنهم قد وُعِدوا هذا هم وآباؤهم من قبلهم، فلم يحصل شيء منه، وقد أجاب تعالى عن هذا بأنْ أمَرَهم أن يسيروا في الأرض لينظروا كيف كان عاقبة المجرمين في الدنيا، فلا بدّ من أن يعاقبهم أيضاً في الآخرة؛ ثم ذكر استعجالهم ذلك على سبيل الاستهزاء، وأجاب عنه بأنه سيحصل لهم قريباً بعضٌ منه في الدنيا، بتسليط المؤمنين عليهم، وأن رحمته هي التي اقتضت عدم تعجيله لهم، ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون، ثم هدّدهم على ذلك، بأنه يعلم ما يُخفون وما يعلنون ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم أعاد التنويه بشأن تلك القِصَص، فذكر أن القرآن يقصُّ منها على بني إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه، فَيهديهم إلى ما غاب عنهم من الصواب فيها، ثم أمر الرسول (ص) أن يتوكّل عليه ولا يلتفت إلى أعدائه لأنه على الحق المبين؛ وذكر تعالى أن الرسول لا يؤثّر فيهم لأنهم موتى لا يسمعون، وعُميٌ لا يبصرون، وإنما يُسْمِعُ من يؤمن بآياته فهم مُسلِمُونَ؛ ثم ذكر تعالى ما يكون قبل يوم القيامة من خروج دابّة تخبر الناس بما كان من جحودهم بتلك الآيات، فتؤمن بما لم يؤمنوا به، وهي من العجماوات، ثم ذكر أنهم يحشرون إلى ربهم فيوبّخهم على تكذيبهم بآياته، وأنهم لا يجدون ما يعتذرون به، فلا يمكنهم أن ينطقوا بعذر، وذكر لهم آية واحدة تقطع عذرهم، وهي ما يرونه من أنه جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، وجَعَل لهم النهارَ مُبْصِراً؛ وإنما آثر هذه الآيةَ لأنهم يسكنون بالليل، ويُبعثون بالنهار، كما يُبعثون من الدنيا إلى الآخرة؛ ثم ذكر ما يكون أيضاً قبل يوم القيامة من النفخ في الصُّور، وأنه يفزع به من في السماوات ومن في الأرض فيأتون صاغرين إليه، وأنه يجازيهم على أعمالهم، فيكون لِمَنْ جاء بالحسنة خيرٌ منها، ومَنْ جاء بالسيِّئة يُكَبُّ في النار على وجهه.

ثم ختم السورة بأمر الرسول أن يخبرهم بأنه إنما أُمِر أن يعبد الله سبحانه، وحده؛ وأن يتلُو عليهم القرآن فمن اهتدى به، فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضَل، فليقل له إنما أنا من المنذِرينَ ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «النمل»(*)

أقول: وجه اتصالها بما قبلها، أنها كالتتمّة لها، في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان وداود (ع). وبَسَطَ فيها قصة لوط (ع) أبسط ممّا هي في «الشعراء»[1].

وقد روينا عن ابن عباس، وجابر بن زيد، في ترتيب السور: أن «الشعراء» أنزلت ثم «طه»، ثم «القصص»، ولذلك كان ترتيبها في المصحف هكذا.

وأيضاً فقد وقع فيها: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [الآية ٧] إلى آخره. وذلك تفصيل قوله تعالى في الشعراء: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(١) قصة داود وسليمان (ع) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [الآية ١٥] الى ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ وقصة لوط (ع) في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الآية ٥٤]، الى ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقول المؤلف: إن قصة لوط هنا أبسط منها في الشعراء مخالف للواقع، فهي في الشعراء أطول، ولكنها ذكرت في النمل مع بيان أقصى ما وصلوا إليه من الانحلال الخلقي والانتكاس العقلي؛ اذ عدُّوا طهارةَ لوطٍ مِنَ الشذوذ الجنسيّ جريمةً يستحق عليها النفي من البلاد. ولم يرد هذا التعليل في الشعراء. فلعلّ البسط في المعاني لا في المقدار.

مكنونات سورة «النمل»(*)

١ ـ ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [الآية ١٨].

قال قتادة: ذكر لنا أنه وادٍ بأرضِ الشام[1]. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٢ ـ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [الآية ١٨].

قال السُّهَيْلي: اسمها حرميا. وقيل: طاخية حكاه الزمخشري.

وقال صاحب «القاموس»: اسمها عَيْجَلوف؛ بالجيم.

قال ابنُ عَسْكَر: حُكي أن قَتَادة سُئل عن نملة سليمان أذَكَر هي أم أنثى؟ فأفحم! وكان أبو حَنيفة حاضراً فقال: أنثى، لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ﴾ بالتاء[2].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وادي النمل: الذي خاطب سليمان (ع) النمل فيه، قيل: هو بين جبرين وعسقلان، كما في «معجم البلدان» ٥/ ١٩٧.

(٢) ونقل هذه القصة الزمخشري في «الكشاف» ٣/ ١٣٧، وعلق عليها ابنُ المُنَيِّر السكندري في كتابه «الانتصاف من الكشاف» قائلاً: «لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة أن يثبت ذلك عنه؛ وذلك أن النملة كالحمامة والشاة، تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس، يقال نملة ذكر، ونملة أنثى، كما يقولون: حمامة ذكر وحمامة أنثى، وشاة ذكر، وشاة أنثى. فلفظها مؤنث ومعناه محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها وإن كانت واقعة على ذكر، بل هذا الفصيح المستعمل. ألا ترى الى قوله عليه الصلاة والسلام، «لا تضحي بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعني الإناث من الأنعام خاصة، فحينئذ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ روعي فيه تأنيث اللفظ. وأما المعنى فيحتمل على حد سواء، إنما أطلت في هذا وإن كان لا يتمشّى عليه حكم، لأنه نسبه إلى الامام أبي حنيفة على بصيرته باللغة. ثم جعل هذا الجواب معجباً لنعمان ـ أبي حنيفة ـ على غزارة علمة وتبصره بالمنقولات. ثم قرر الكلام على ماهو عليه مصوناً له، فيا لله العجب العجاب؛ والله الموفق للصواب».

٣ ـ ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الآية ١٩].

هما: داود، وأوريا؛ ذكره الكِرماني في «عجائبه».

٤ ـ ﴿لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [الآية ٢٠].

أخرج ابنُ أبي حاتِم عن الحسن قال: اسم هُدْهُدِ سُلَيْمان عنبر.

٥ ـ ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [الآية ٢٣].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن الحسن قال: هي بَلْقيس بنتُ شراحيل. وأخرج مثله عن قتادة.

وأخرج عن زُهير بن محمد قال: هي بَلْقيس بنتُ شراحيل بنِ مالك بنِ الريان، وأمُّها فارعة، الجنيّة.

وأخرج عن ابن جُريج قال: بلقيس بنت ذي سرح، وأمها بلقية[1].

وقال ابنُ عَسْكَر:

قيل: اسم أبيها اليشرح؛

وقيل: إيلي شرخ؛

وقيل: أمها بلمقة؛

وقيل: يلمغة؛

وقيل: يلمعة؛

وقيل: رواحة.

٦ ـ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى﴾ [الآية ٣٢].

أخرج ابنُ أبي حاتِم عن قتادة: أنَّ أهْلَ مشورتها، كانوا ثلاث مئة واثني عشر رجلاً.

٧ ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [الآية ٣٦].

---

(١) في «الدر المنثور» ٥/ ١٠٥: «بلفته» وعن ابن عباس قال، سئل رسول الله (ص) من سبأ، أرجل هو، أم امرأة، أم أرض؟ فقال رسول الله (ص): بل رجل ولد عشرة، سكن منهم اليمن ستة، والشام أربعة: فاليمانيون: مذحج، وكندة، والأنمار، والأزد، والأشريون، وحمير؛ وأما الشاميون: فلخم وجذام، وعاملة، وغسان.

وكانت بلقيس من أحسن نساء العالمين، وقال ابن الكلبي: كان أبوها من عظماء الملوك، وولده ملوك اليمن؛ وتسمى بلقيس بلقمة، ويقال: إن مؤخّر قدمها كان يشبه حافر الدابة، لذلك اتخذ سليمان عليه السلام الصرح الممدد، وكان بيتاً من زجاج، ويخيّل للرائي أنه يضطرب، فلما رأته كشفت عن ساقيها فلم ير غير شعر خفيف، ولذلك أمر بإحضار عرشها ليختبر عقلها ثم أسلمت؛ وعزم سليمان على تزوُّجها، فأمر الشياطين فاتخذوا الحمام والنورة، وهو أول من اتخذ ذلك؛ ثم تزوجها، وأرادت منه ردها إلى ملكها، ففعل ذلك، وأمر الشياطين فبنوا لها باليمن الحصون التي لم يُرَ مثلها، وهي: غمدان وسون، وغيرهما، وأبقاها على ملكها، وكان يزورها في كل شهر مرة من الشام على البساط والريح، وبقي ملكها إلى أن توفي، فزال بملكه، والله تعالى أعلم».

قلت: أفاد الزِّرِكْلي في «الأعلام» ٢/ ٧٤ في ترجمة «بلقيس» أنها توفيت في عهد سليمان (ع)، بخلاف ماذكر في الحاشية السابقة. والله تعالى أعلم.

اسم الجائي: منذر. ذكره الكرماني في «عجائبه».

٨ ـ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الآية ٣٩].

اسمه كَوْزَن. أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن شعيب الجَبَائي، ويزيد بن رومان.

٩ ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الآية ٤٠].

قال ابن عباس وقتادة: هو آصَف بن برخيا كاتِبُه.

وقال زهير بن محمد: هو رجل من الإنس، يقال له: ذو النّور.

وقال مُجاهِد: اسمه أسطوم.

وقال ابنُ لَهِيعة، هو الخَضِر.

أخرج كلَّها ابنُ أبي حاتِم.

وقيل، هو جبريل.

وقيل: هو مَلَكٌ أيّدَ الله به سليمان.

وقيل: هو ضَبّة؛ أبو القبيلة.

وقيل: رَجُلٌ زاهد، اسمه «مليخا».

حكاها الكرماني في «عجائبه».

وقيل: اسمه بلخ. حكاه ابنُ عَسْكَر

١٠ ـ ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [الآية ٤٨].

أخرج ابنُ أبي حاتم، من طريق السُدّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس قال: كانت أسماؤهم رُعمي، ورعيم، وهَرمي، وهريم، وداب، وصواب، ورئاب، ومسطع، وقدار بن سالف: عاقر الناقة.

وقد نظمهم بعضهم في بيتين فقال:

رياب وغَنْم، والهُذَيْل، ومِصْدَع
عُمير، سبيط، عاصم، وقُدار
وسمْعَان، رهط الماكرين بصالحٍ
ألا إن عدوان النفوس بوارُ

هكذا نقلته من خط الشيخ جمال الدين بن هشام في «تذكرته» وفيه مخالفة لقول ابن عبّاس[1].

وذكر ابنُ هشام أن أسماء آبائهم على الترتيب: مهرع، وغنم، وعبد رب، ومهرج، وكردة، وصدقة، ومخرمة وسالف، وصيفي.

١١ ـ ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ [الآية ٩١].

قال ابنُ عباس: يعني مكة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

(١) ذكر السيوطي في «بغية الوعاة» أن هذا الكتاب في خمسة عشر مجلداً، قال الأستاذ عبد الغني الدقر في مقدمته لـ «شرح شذور الذهب» لابن هشام ص ١٠: «ولم نطلع على شيء منه».

لغة التنزيل في سورة «النمل»(*)

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [الآية ٧].

وقوله تعالى: ﴿آنَسْتُ﴾، أي: أبصرت ورأيت.

أقول: ويحسن بي أن أقف وقفة طويلة على: ﴿آنَسْتُ﴾ فأقول: هي من مادة «الأنس».

وآنَسَ الشيء: أحَسَّه. وآنس الشخص واستأنَسَه: رآه وأبصره.

وأنستُ بفلان: فرحت به.

وفي التنزيل العزيز: ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص/٢٩] يعني أبصَرَ.

واستأنَسْتُ: استعلمت.

والاستئناس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور/٢٧].

قال الفراء: هذا مقدَّم ومؤخَّر، إنّما هو حتى تسلّموا وتستأنِسوا...

وقال الزجاج: معنى تستأنسوا تستأذنوا.

أقول: وجميع معاني «أنس» من الأفعال والمصادر تتصل بـ «الأنس» الذي هو جملة هذه المعاني من الإبصار والاستعلام والفرح والاستئذان، فلا بد من أن نجد لها أصلاً في أنّ الإنسان يألف أخاه الإنسان بطبعه، فإذا اتصل به وألفه استلّ منه فعلاً لهذه الحالة المعنوية من مادة «إنس»، أي: الإنسان، والإنس

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

مقابل الجن في طائفة من الآيات.

والإنسُ والإنسان شيء واحد، وزيادة الألف والنون لكمال صيغة جديدة.

ثم إذا وقفنا قليلاً وجدنا لغة قديمة في «الإنسان» هي «إيسان» وهذه اللغة الأخيرة ذات صلة وثيقة بمادة «أيس» الذي يعني الوجود. ولم يرد هذا إلا في قول الخليل بن أحمد: أن العرب تقول جيء به من حيث «أيسَ، وليسَ» لم تستعمل «أيسَ» إلاّ في هذه الكلمة، وإنما معناها كمعنى حيث، هو في حال الكينونة والوُجْد مصدر «وَجَدَ»، وقال: إنّ معنى «لا أيس» أي لا يوجد.

أقول: والذي يؤيّد هذا، ما نعرفه من أن في العبرانية من هذا شيئاً هو أن إيش بمعنى رجل، ويقابله إيث في الآرامية.

ولنرجع إلى العربية فنجد أن كلمة «شيء»، ومعناها معروف ليس بعيداً عن مادة «وجد»، فالشيء موجود بطبعه وحقيقته، وكأن الأصل هو مقلوب «أيش» الذي يذكرنا بـ «أيس»، الذي يفيد الوجود والذي بقي شيء منه في مادة «ليس»، أي «لا أيس».

وكان الفلاسفة على حق في التمسّك بـ «الأيس» و«الليس» للدلالة على الوجود وعدمه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [الآية ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يرجع، ويقال عقَّبَ المقابل إذا كرَّ بعد الفرار، قال:

فما عَقَّبُوا إذ قيلَ هل من مُعَقِّبٍ
ولا نَزَلُوا يومَ الكريهة مَنْزِلا

يصف قوماً بالجبن وأنهم إن قيلَ: هل من معقِّب وراجع على عقبه للحرب؟ فما رجعوا إليها، ولا نزلوا يوم الحرب، منزلاً من منازلها، أي: لم يقدموا مرةً على العدو.

أقول: وهذا من الكلم المفيد الذي كان ينبغي أن يكون له مكان في العربية المعاصرة، وذلك للحاجة إليه في أحوال مشابهة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

المبصرة: الظاهرة البيّنة، جَعَلَ الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمليها، لأنهم لابسوها، وكانوا منها بنظرهم وتفكيرهم فيها.

أقول: وهذا شيء من استعمالات لغة القرآن البديعة، التي تأتي بغير المألوف من إسناد الأفعال، وذلك يحقّق فوائد في إدراك المعاني وتصويرها، على نحو لم يلتفت إليه أهل النظر.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [الآية ١٨].

أقول جاء الفعل «يَحطِم» في هذه الآية فعلاً ثلاثياً.

ومثله ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

والفعل «قبح» في قوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ثلاثي أيضاً.

أقول: والفعلان في العربية المعاصرة مزيدان بالتضعيف ولا نعرف صيغة الثلاثي فيهما فيقال: حَطم القيد وحَطَّم الزُّجاج، على الحقيقة وحطَّم الأحوال، وفلان محطَّم أي: متعب مريض، على سبيل المجاز.

ومثله يقال: قبَّحه الله في الدعاء عليه.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الآية ١٩].

أي اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، أي: كُفَّني عن الأشياء إلاّ عن شكر نعمتك، وكُفَّني عما يباعدني عنك.

أقول: وهذا من الأفعال ذات المعاني المفيدة.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [الآية ٣٦].

حُذِفَت الياء من قوله تعالى: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ وحقها أن تثبت لأنها ضمير في موضع المفعول به، والاكتفاء بالكسرة من خط المصحف.

والاكتفاء بالكسرة ربما كان للاهتمام بالكلمة التالية، وهي ﴿بِمَالٍ﴾، فكأن قصر المد والاكتفاء بكسر النون يغري السماع، ويدفعه إلى الاهتمام بالكلمة اللاحقة.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ [الآية ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿لَّا قِبَلَ﴾ أي: لا طاقة.

أقول: لم يعرف أهل عصرنا المصدر «قِبَل»، وقد استعاضوا منه المصدر الصناعي «القابلية» بمعنى

الطاقة فهم يقولون: فلان يملك قابليات نادرة.

ولابد من الإشارة إلى أن «القابلية» عند أهل العلوم تعني درجة القبول لعمل من الأعمال كقولهم: قابلية هذه الأرض لامتصاص الماء.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

«والصاغرون» جمع صاغر وهو الذليل.

والصَّغار: أن يقعوا في الأسر والاستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً.

أقول: وقد فرّقت العربية في الأبنية باختلاف المعاني، فالمصدر صِغَر للدلالة على صغر الجسم طولاً وعرضاً. والصَّغار كما أشرنا، والفعل فيهما صَغُر.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿نَكِّرُواْ﴾، أي: اجعلوه متنكَّراً متغيِّراً عن هيئته وشكله، كما يتنكّر الرجل للناس لئلاّ يعرفوه.

أقول: والتنكير بهذا المعنى مما نعرفه الآن في لغتنا المعاصرة، فيقال مثلاً: جاء فلان متنكّراً، أي: متخفّياً مضلِّلاً من يراه لئلاّ يعرفه.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ رَدِفكم بعضه، وهو عذاب يوم بدر فزيدَت اللام للتأكيد كالباء في ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دنا لكُم وأزف لكم، ومعناه: وتبعكم ولحقكم، وقد عُدِّيَ بـ «من» قال:

فلما رَدِفْنا من عُمَير وصحبه
تَوَلَّوا سِراعاً والمنيَّة تعنِقُ

يعني دنونا من عُمَير

أقول: ومعنى «ردف»، في هذه الآية من كلم القرآن الذي لا نعرفه في لغتنا المعاصرة. على أن استعماله كان في موضعه في الآية، قد أدى المعنى أحسن الأداء.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

وقوله ﴿دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: صاغرين.

المعاني اللغوية في سورة «النمل»(*)

قال تعالى: ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ [الآية ٨] أي: نُودِي بذلك.

وقال تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [الآية ٧] بجعل «القَبَس» بدلا من «الشِّهاب» وإنْ أضيفَ «الشّهاب» الى «القَبَس» لم ينوّن «الشهاب» وكلٌّ حسن.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ [الآية ١١] لأن «إلاّ» تدخل في مثل هذا الكلام كمثل قول العرب: «ما أشتكي إلاّ خَيْراً» فلم يجعل قوله «إلاّ خَيْراً» على الشكوى، ولكنه علم اذا قال لهم «مَا أشتكي شيئاً» أنه يذكر من نفسه خيراً. كأنه قال «ما أذكُرُ إلاّ خَيْراً».

وقال تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [الآية ١٦] لأنها لما كانت تُكَلِّمهم صار كالمنطق. وقال الشاعر [من الخفيف وهو الشاهد الثالث والثلاثون بعد المئتين]:

صدّها منطق الدجاج عن القصد

وقال [من الرجز وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد المئتين]:

فَصَبَّحتْ والطَيْرُ لَمْ تَكَلَّمِ

وقال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ [الآية ٢٥] يقول: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الآية ٢٤] لـ «أن لاَ يَسْجُدُوا» وقرأ بعضهم ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ فجعله أمْراً كأنه قيل لهم: «ألاَ اسْجُدُوا» وزيد بينهما «يا» التي تكون للتنبيه ثم أذهبت ألف الوصل التي في «اسْجُدُوا» وأذهبت الالف التي في «يا» لأنها

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

ساكنة لقيت السين فصارت ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾؛ وفي الشعر[1] [من الطويل وهو الشاهد الثاني والستون بعد المئتين]

ألا يا سلمي يا دارميّ على البلى
ولا زالَ منهلاً بجرعائك القطرُ

وإنما هي: ألا يا اسلمي

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٠] على ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ﴾ [الآية ٢٩] ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾؛ و ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ مقدمة في المعنى.

وقال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [الآية ٤٠] أي: لينظرَ أأشكرُ أم أكفر. كقولك: «جئتُ لأنظرَ أزيدٌ أفضلُ أم عمرٌو».

وقال تعالى: ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [الآية ٤٧] بإدغام التاء في الطاء، لأنها من مخرجها، وإذا استأنفت قلت: «اطَّيَّرنا».

وقال تعالى: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [الآية ٤٨] والرهط جمع ليس له واحد من لفظه مثل «ذَوْدٍ».

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الآية ٦٠] ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ﴾ [الآية ٦٤] حتى ينقضي الكلام. ﴿مَّنْ﴾، هٰهنا ليست باستفهام على قوله سبحانه: ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إنما هي بمنزلة «الذي».

وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الآية ٦٥] كما قال:

﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء/٦٦] وفي حرف ابن مسعود «قليلاً» بدلاً من الأول لأنك نفيته عنه وجعلته للآخر.

وقال تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [الآية ٧٢] أي «رَدِفَكُمْ» وأدخلت اللام فأضيف بها الفعل، كما قال ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف] و﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف] وتقول العرب: «رَدِفَهُ أمرٌ» كما يقولون: «تبعَه» و «أتْبَعَهُ».

وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ [الآية ٨٢] أي: بأنَّ النَّاسَ، وبعضهم يقرأ (إنَّ

---

(١) هو لذي الرمة غيلان، ديوانه: ٥٥٩ ومجاز القرآن ٢/ ٩٤ ومختار الصحاح «الياء»، والإنصاف ١/ ٦٢، والصحاح، ولسان العرب «يا»، وأمالي الشجري ٢/ ١٥١، ومغني اللبيب ٢٣٤، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢١٠، والمقاصد النحوية ٢/ ٦، والدرر ١/ ٨١ و٢/ ٢٣ و٨٦.

النّاسَ) كما قال ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ [الزمر/٣] انما معناه يقولون: «ما نعبُدُهم».

قــــال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ فـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مؤخّرة لأن المعنى «فألْقه إليهم فانْظُرْ مَاذا يَرْجِعُونَ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهَمُ».

وقال تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [الآية ١٣] أي: إنها تُبَصِّرُهم حتّى أبْصَرُوا. وإن شئت قرأت: (مَبْصَرَةً)[1] بفتح الصاد، فقد قرأها بعض الناس، وهي جيدة؛ يعني مَبْصَرَةً مُبَيِّنَةً.

---

(١) في البحر ٧/٥٨ أنّ قتادة والإمام عليّ بن الحسين قرآ بفتح الميم والصاد، وكذلك في الكشاف ٣/ ٣٥٢.

لكل سؤال جواب في سورة «النمل»(*)

إن قيل: ما الحكمة في تنكير الكتاب في قوله تعالى ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ①﴾.

قلنا: الحكمة في التفخيم والتعظيم كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ⑤٥﴾ [القمر].

فإن قيل: العطف يقتضي المغايرة، فلِمَ عطف الكتاب المبين على القرآن، والمراد به القرآن؟

قلنا: قيل إن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ، فعلى هذا لا إشكال؛ وعلى القول الآخر، فنقول العطف يقتضي المغايرة مطلقاً إما لفظاً وإما معنى، بدليل قول الشاعر:

فألفى قولها كذباً ومَيْنا

وقولهم: جاءني الفقيه والظريف والمغايرة لفظاً أمر ثابت.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الآية ٤].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال/ ٤٨].

قلنا: تزيين الله تعالى لهم الأعمال بخلقه الشهوة والهوى وتركيبها فيهم، وتزيين الشيطان بالوسوسة والإغواء والغرور والنميمة، فصحّت الإضافتان.

فإن قيل: لِمَ قيل هنا ﴿سَآتِيكُم﴾ [الآية ٧] وقيل في سورة طه: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم﴾

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

[طه/ ١٠] وأحدهما قطع، والآخر ترجّ، والقصة واحدة؟

قلنا: قد يقول الراجي اذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الآية ٨] مع أنه لم يكن في النار أحد، بل لم يكن المرئي ناراً، وإنما كان نوراً في قول الجمهور، وقيل كان ناراً ثم انقلب نوراً؟

قلنا: قال ابن عباس والحسن رضي الله عنهما: معناه قدّس من ناداه من النار وهو الله عزّ وجلّ، لاعلى معنى أن الله تعالى يحل في شيء، بل على معنى أنه أسمعه النداء من النار في زعمه. الثاني: أن «من» زائدة؛ والتقدير بورك في النار وفيمن حولها، وهو موسى (ع) والملائكة. الثالث: أن معناه بورك مَنْ في طلب النار؛ وهو موسى (ع).

فإن قيل: إنما يقال بارك الله على كذا، ولا يقال بارك الله كذا؟ قلنا: قال الفراء: العرب تقول باركه الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ﴾ [الصافات/ ١١٣]. ولفظ التحيات: وبارك على محمد وعلى آل محمد.

فإن قيل: ما وجه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [الآية ١٠].

قلنا: فيه وجوه: أحدها أنه استثناء منقطع بمعنى لكن. الثاني: أنه استثناء متصل، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل رحمهم الله، ومعناه: إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة كآدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم، فإنه يخاف ممّا فعل مع علمه أني غفور رحيم، فيكون تقدير الكلام: «إلا من ظلم منهم فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم». ولهذا قال بعضهم: إن هنا وقفاً على قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وابتداء الكلام الثاني محذوف كما قدرنا. والثالث: أن «إلاّ» بمعنى «ولا»، كما في قوله تعالى ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة/ ١٥٠] أي «ولا الذين ظلموا منهم». الرابع: أن تقديره: أني لا يخاف لدي المرسلون ولا غير المرسلين ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [الآية ١١].

فإن قيل: لِمَ قال سليمان (ع) كما ورد في التنزيل ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ [الآية ١٦] بنون العظمة، وهو من كلام المتكبّرين؟

قلنا: لم يرد به نون العظمة، وإنما أراد به نون الجمع وعنى نفسه وأباه. الثاني: أنه كان ملكاً مع كونه نبيّاً فراعى سياسة الملك، وتكلم بكلام الملوك.

فإن قيل: كيف حَلَّ له تعذيب الهدهد، حتى قال كما ورد في التنزيل ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الآية ٢١].

قلنا: لعل ذلك أبيح له خاصّة، كما خُصّ بفهم منطق الطير، وتسخيره له، وغير ذلك.

فإن قيل: كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان (ع) حتى قال ولها عرش عظيم؟

قلنا: أولاً: يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة الى حال سليمان، فاستعظم لها ذلك العرش. ثانياً: أنه يجوز أن لا يكون لسليمان مثله، وإن عظمت مملكته في كل شيء، كما يكون لبعض الأمراء شيء لا يكون للملك مثله.

فإن قيل: لِمَ ورد على لسان الهدهد قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية ٢٣] مع قول سليمان صلوات الله وسلامه عليه كما ورد في التنزيل ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية ١٦]. فكأنه سوى بينهما؟

قلنا: بينهما فرق؛ وهو أن الهدهد أراد به، وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا؛ لأنه عطف على الملك، وسليمان أراد به وأوتينا من كل شيء من أسباب الدين والدنيا، ويؤيّد ذلك عطفه على المعجزة، وهي منطق الطير.

فإن قيل: كيف سوّى الهدهد بين عرشها وعرش الله تعالى في الوصف بالعظم، في قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ٢٣﴾ و﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ٢٦﴾؟

قلنا: بين الوصفين بَوْنٌ عظيم لأنه وصف عرشها بالعِظَم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله تعالى بالعظم بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض وما بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٢٨﴾.

إذا تولى عنهم، فكيف يعلم جوابهم؟

قلنا: أوّلاً: معناه ثم تولّ عنهم مستتراً من حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون. ثانياً: أن فيه تقديماً وتأخيراً تقديره: فانظر ماذا يرجعون، ثم تولّ عنهم.

فإن قيل: كيف استجاز سليمان (ع) تقديم اسمه في الكتاب على اسم الله تعالى، حتّى كتب فيه، كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾.

قلنا: لأنه أدرك أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان، فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول مايقع نظرها عليه، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى.

وقيل: إن اسم سليمان كان على عنوانه، واسم الله تعالى كان في أول طيّه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون آصف، وهو كاتب سليمان (ع) ووزيره، وليس بنبيّ يقدر على ما لا يقدر عليه النبيّ، وهو إحضار عرش بلقيس في طرفة عين؟

قلنا: يجوز أن يخصّ غير الرسول بكرامة لا يشاركه فيها الرسول، كما خصّت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة، وزكريا عليه السلام لم يرزق منها؛ وكما أن سليمان صلوات الله عليه خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقي، فقال لقومه: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان. وقد نقل أن النبي (ص) كان إذا أراد الخروج إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار: ادعوا لنا بالنصرة، فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم. ولم يكونوا أفضل منه (ص)، مع أن كرامة التابع من جملة كرامات المتبوع. قالوا: والعلم الذي كان عنده هو اسم الله الأعظم، فدعا به فأجيب في الحال، وهو عند أكثر العلماء، كما قال البندنيجي، اسم الله، ثم قيل هو ياحيّ ياقيوم، وقيل ياذا الجلال والإكرام، وقيل يا ألله يارحمن، وقيل يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت؛ فمن أخلص النيّة، ودعا بهذه الكلمات مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة فإنه يجاب لا محالة.

فإن قيل: لِمَ قالت كما ورد في التنزيل ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهي إنما أسلمت بعده على يده لا معه، لأنه كان مسلماً قبلها؟

قلنا: إنما عدلت عن تلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة، فلم تر أن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له، بإسلامها على يده، وإن كان الواقع كذلك.

فإن قيل: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه؟

قلنا: كأنهم اعتقدوا أنهم إذا جمعوا بين البيانين، ثم قالوا: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [الآية ٤٩] يعنون ما شهدناه وحده كانوا صادقين، لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الآية ٦٥] ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة، وكلّها غيب؟

قلنا: معناه لا يعلم الغيب بلا دليل إلا الله، أو بلا معلم إلا الله سبحانه، أو جميع الغيب إلا الله جلّ وعلا.

وقيل معناه: لا يعلم ضمائر السماوات والأرض إلا الله.

فإن قيل قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية ٦٦] أو «أدرك» على اختلاف القراءتين، هل مرجع الضمير فيه وفي ما قبله واحد أم لا؟ وكيف مطابقة الإضراب لما قبله، ومطابقته لما بعده من الإضرابين؟ وكيف وصفوا بنفي الشعور ثم بكمال العلم، ثم بالشك، ثم بالعمى؟

قلنا: مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ [الآية ٦٦] هو الكفّار فقط، وفيما قبله جميع من في السماوات والأرض، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ معناه بل تتابع وتلاحق واجتمع كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف/ ٣٨] وأصله تدارك، فأدغم التاء في الدال، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ معناه بل كمل وانتهى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد ما جهلوه في الدنيا علموه في الآخرة. وقال السعدي: يريد اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا. وقال مقاتل: يريد علموا في الآخرة ما شكوا فيه وعموا عنه في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ

﴿مِّنْهَا﴾ [الآية ٦٦] معناه بل هم اليوم في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ جمع عَم وهو أعمى القلب. ومطابقة الإضراب الأول لما قبله، أن الذين لا يشعرون وقت البعث، لما كانوا فريقين: فريق منهم لا يعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لا محالة، وهم المؤمنون؛ وفريق منهم لا يعلمون وقته، لإنكارهم أصل وجوده. أفرد الفريق الثاني بالذكر بقوله تعالى ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الآية ٦٦] تأكيداً لنفي علمهم في الدنيا، كأنه تعالى قال: بل فريق منهم لا يعلمون شيئاً من أمر البعث في الدنيا أصلاً، ثم أضرب عن الإخبار بتتابع علمهم، وتَلاحُقه بحقيقة البعث في الآخرة، إلى الإخبار عن شكهم في الدُنيا في أمر البعث والساعة، مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لا محالة؛ وأمّا وصفهم بنفي الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك، ثم بالعمى، فلا تناقض فيه، لاختلاف الأزمنة، أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة، وهي الشعور والعلم والشك والعمى.

فإن قيل: قضاء الله تعالى وحكمه واحد، فما معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [الآية ٧٨] وهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ [الآية ٧٨] بقضائه أو يحكم بينهم بحكمه.

قلنا معناه بما يحكم به وهو عدله المعروف المألوف، لأنه لا يَقْضي إلا بالحق والعدل، فسمى المحكوم به حكماً. وقيل معناه بحكمته، ويدل عليه قراءة من قرأ بحِكَمِه جمع حكمة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [الآية ٨٦] ولَمْ تراعَ المقابلة بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [الآية ٨٦] فيه؟

قلنا: روعيت المقابلة المعنوية دون اللفظية، لأن معنى مبصراً ليبصروا فيه، وقد سبق مايشبه هذا في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الآية ٥٩].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ مع أن في ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء؟

قلنا: إنّما خصّهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [الآية ٨٧] ولم يقل فيفزع، وهو أظهر مناسبة؟

قلنا: أراد بذلك الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، لأن الفعل الماضي يدل على الثبوت والتحقُّق قطعاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين أذلاء بعد البعث، مع أن النبيّين والصّدّيقين والشهداء يأتونه عزيزين مكرمين؟

قلنا: المراد به صَغار العبودية والرِّق وذلّهما لاذلّ الذنوب والمعاصي، وذلك يعم الخلق كلهم؛ ونظيره قوله تعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

المعاني المجازية في سورة «النمل»(*)

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [الآية ٧]، وهذه استعارة على القلب. والمراد بها، والله أعلم، إنّي رأيتُ ناراً فآنَسَتْني؛ فَنقَل فِعْل الإيناس إلى نفسه على معنى: وإنّي وَجَدْت النار مُؤنِسَةً لي، كما سبق من قولنا في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف/٢٨] أي وجدناه غافلاً، على بعض الأقوال.

وقريب من ذلك قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف/٥١] ولم تغرُّهم هي، وإنما اغتروا بها هم؛ فلما كانت سبباً للغرور، حَسُن أن يُنسب إليها ويُناطَ بها.

وحقيقة الإيناس، هي الإحساس بالشيء من جهةٍ يؤنَسُ بها؛ وما أنستَ به، فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه.

وقوله سبحانه حاكياً عن ملكة سبأ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾. وهذه استعارة. والمراد بقطع الأمر، والله أعلم، الرجوع بعد إجالة الآراء، ومَخْضِ الأقوال إلى رأي واحد يصحُ العزم على فعله، والعمل عليه دون غيره، تشبيهاً بالإسداء والإلحام في الثوب النسيج، ثم القطع له بعد الفراغ منه. فكأنها أجالت الرأي عند ورود ما ورَد عليها من دعاء سليمان (ع) لها إلى الإيمان به،

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرخ.

والاتباع له، فميّلت[1] بين الامتناع والإجابة، والمخاشنة والملاينة. فلما قَوِيَ في نفسها أمر الملاطفة عَزَمتْ على فعله، فحسُن أن يُعبّر بقطع الأمر، لما أشرنا إليه.

وعلى هذا قولُ الرجل لصاحبه: لا أقطعُ أمراً دُونَكَ. أي لا أقرر العزم على شيء حتّى أفاوضك فيه، وأوافقك عليه. وقد يجوز أن يكون ذلك كناية عن الاستعجال بفعل الأمر، تشبيهاً بسرعة قطع الشيء المستدقّ كالحبل وغيره. ومنه قولهم: صَرَمَ الأمر. أي فرغ مِنْ فِعْله بسرعة. والصّريمة من ذلك. وفَصْلُ الأمرِ أيضاً قريب منه.

وقوله سبحانه: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [الآية ٤٠].

وهذه استعارة: لأن المراد بارتداد الطّرف ههنا التقاءُ الجَفْنَيْنِ بعد افتراقهما. وذلك أبْلغُ ما يُوصفُ به في السرعة. وليس هناك على الحقيقة شيء ذَهَبَ عنه، ثمّ رجع إليه. ولكن جَفْن العين لّما كان ينفتح وينطبق، أقامَ الانفتاح مُقامَ الخروج، والانطباقَ مُقامَ الرجوع.

وقيل: في ذلك وجْهٌ آخرُ، وهو أنّ في مَجْرى عادة الناس، أن يقول القائل لغيره، إذا كان على انتظار أمر يَرِدُ عليه من جهته: أنا ممدود الطرف إليك، وشاخصُ البَصَرِ نحوكَ. فإذا كان امتداد الطرف بمعنى الانتظار مستعملاً، جاز أن يجعل ارتداده عبارة عن زوال الانتظار. فكأنه قال: أنا آتيك به قبل أن تتكلّف أمر انتظار، وتَعُدَّ الأوقات.

والقول الأول أولى بالاعتماد، وأخلَقُ بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾ وهذه استعارة. لأن العَمَى هنا ليس يراد به فقد الجارحة المخصوصة، وإنّما يُراد به التعامي عن الحق، والذهاب صَفْحاً عن النظر والفكر، إمّا قَصْداً وتعمُّداً، أو جَهْلاً وَعَمًى.

وإنّما أجري الجهل مُجْرى العَمَى في هذا المعنى، لأن كل واحد منهما يمنع بوجوده من إدراك الشيء على ما هو به. إذِ الجهلُ مضادٌّ للعلم والمعرفة، والعمى مُنافٍ للنظر والرؤية. وإنّما قال

---

(١) ميّلت: أي شكّت، انظر القاموس المحيط، مادة ميل.

سبحانه: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ ولم يقل: «عنها»، لأن المراد أنهم يشُكّون فيها، ويمترون في صحّتها، فهم في عَمًى منها: ولا يصلُحُ أن يكون، في هذا الموضع، «عنها» لأنه ليس المراد ذِكْرَ عماهم عن النظر إليها، وإنما القَصْدُ ذِكرُ عماهم بالشك فيها. وهذا من لطائف المعاني.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴿٧٢﴾﴾ وهذه استعارة: لأن حقيقة الرّدْف هي حَمْلُ الإنسان غيره مما يلي ظَهْرَه على مركوب.

فالمراد بقوله سبحانه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ هٰهنا، والله أعلم، أي عسى أن يكون العذاب الذي تتوقعونه قرُبَ منكم، وهو في آثاركم ولاحِقٌ بكم.

وقد قيل أيضاً إن المراد بـ «ردِفَ لكم» هو: رَدِفَكُمْ. فصار العذاب في الالتصاق بكم كالمرادف لكم. والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴿٧٦﴾﴾ وهذه استعارة. لأن القَصَصَ كلام مخصوص، ولا يوصف به إلا الحيُّ الناطقُ المميِّز. ولكن القرآن لمّا تضمنَّ نَبَأَ الأوّلين، ومَصادِرَ أمور الآخرين؛ كان كأنّه يقصُّ على من آمن به عند تلاوته له، قصص من تقدّمه.

سورة القَصَص

٢٨

أهداف سورة «القصص»(*)

سورة القصص سورة مكّيّة، وعدد آياتها ٨٨. نزلت بعد سورة النّمل، وكان نزولها في الفترة المكّيّة الأخيرة، فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء.

وقد سمّيت بسورة القصص، لاشتمالها على القَصص الذي حكاه موسى (ع) لنبي الله شعيب (ع) في قوله سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾.

قصة موسى

تستغرق قصة موسى (ع)، حيّزاً كبيراً من سورة القصص، فمن بداية السورة إلى الآية ٤٨، نجد حديثاً مستفيضاً عنه.

وفي الآيات [٧٥ ـ ٨٢] نجد حديثاً عن قارون، أي أنّ معظم سورة القصص، يتناول قصة موسى (ع)، ويتناول قصة قارون. والحكمة في ذلك، أنّ هذه السورة نزلت في مكّة، في مرحلة قاسية، كان المسلمون فيها قلّة مستضعفَة، والمشركون أصحاب الحَوْل والطّوْل والجاه والسلطان؛ فنزلت هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم؛ وتقرّر أنّ هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله سبحانه؛ وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان؛ فمن كانت قوة الله معه فلا خوفَ عليه،

(*) انتقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة، ولو ساندته القوى جميعاً.

ويقوم كيان سورة القصص على قصّة موسى (ع) وفرعون؛ وتعرض السورة، من خلال هذه القصة، قوّةَ فرعون الطاغية المتجبّر اليقظ الحذر، وفي مواجهتها موسى طفلاً رضيعاً، لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية.

وقد علا فرعون في الأرض، واتّخذ أهلها شِيَعاً، واستضعف بني إسرائيل، يذبّح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حذر منهم، قابضٌ على أعناقهم. لكنّ قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته، لا تغني عنه شيئاً، بل لا تمكّن له من موسى الطفل الصغير المجرّد من كلّ قوّة وحيلة. وهو في حراسة القوّة الحقيقية الوحيدة، ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتُعمي عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده، تحدّياً سافراً، فتدفع به إلى حِجْرِهِ، وتدخل به عليه عَرِينَهُ، بل تقتحم به عليه قلب امرأته، وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه.

***

لقد طمعت آسية (ع)، أن يكون موسى (ع) وليداً لها، تتبناه مع زوجها فرعون، فقالت لفرعون كما ورد في التنزيل:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

وهكذا دبّر الله، سبحانه، أن يتربّى موسى (ع) في بيت فرعون، وأن يُؤتَى الحذَرَ من مكمنه؛ ولمّا حرّم الله تعالى المراضع على موسى، جاءت أمه كمرضِع له، وأرضعته في بيت فرعون، وصار فرعون يُجري عليها كلّ يوم ديناراً من الذهب، وفي الحديث يقول النبي (ص): «مَثَلُ المؤمن كأمّ موسى ترضع ولدها، وتأخذ أجرتها»[1].

موسى في سنّ الرجولة

بلغ موسى (ع) أَشُدَّهُ، واستكمل نيّفاً

(١) أي: المؤمن يعبد الله، فيستفيد من العبادة نظافة القلب، وثقة النفس، وثبات اليقين، وهدوء البال، وصحة الجسم والروح. ثم ينال ثواب العبادة، في جنة عرضها السماوات والارض، يوم القيامة. وبذلك ينال أجره مضاعفاً: مرّة في الدنيا، ومرّة في الآخرة.

وثلاثين عاماً، وقد صنعه الله سبحانه على عينه، فصار يتأمّل في هذا الكون، ويبتعد عن حاشية فرعون؛ ودخل العاصمة في فترة الظهيرة، فرأى قبطياً يعمل طبّاخاً في قصر فرعون، يتشاجر مع إسرائيليّ[1] فاستغاث به الإسرائيليّ، فضرب موسى القبطيَّ بجمع يده، فوقع جثّة هامدة؛ وندم موسى على ذلك، واستغفر الله وتاب إليه.

وتربّص قوم فرعون بموسى (ع) ليقتلوه، فانتدبت يد القدرة واحداً منهم، يكتم إيمانه عنهم، وجاء لموسى، وقال له كما ورد في التنزيل:

﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

خرج موسى (ع) هارباً، مهاجراً، متّجهاً إلى أرض مَدْيَن، وحيداً، فريداً، فآواه الله ورعاه؛ وتعرّف هناك على نبي الله شعيب (ع) وتزوّج بابنته، ومكث هناك عشر سنين؛ ثمّ عاوده الحنين إلى مصر، فجاء إليها عبر سيناء، وعند الشجرة المباركة، ناداه الله أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين، وامتنّ الله سبحانه عليه بالرسالة، وأيّده بالمعجزات.

موسى مع فرعون

عاد موسى إلى فرعون مرّة أخرى، يدعوه إلى الإيمان بالله ويقدّم له الأدلّة العقلية، والمعجزات الظاهرة. ولكنّ فرعون طغى وتجبّر، وكذّب، وعصى، فأهلكه الله، وأخذه نَكال الآخرة والأولى، إنّ في ذلك لعبرةً لمن يخشى.

***

الحلقة الجديدة في القصة

عنيت سورة القصص، بإبراز حلقة ميلاد موسى (ع) وتربيته في بيت فرعون؛ وهي حلقة جديدة في القصّة، تكشف عن تحدّي القدرة الإلهية للطغيان والظلم، وفيها يتجلّى عجز قوّة فرعون وحيلته وحذره، عن دفع القدر المحتوم، والقضاء النافذ.

لقد ولد موسى (ع) في ظروف قاسية في ظاهرها، فصاحبته رعاية الله وعنايته، في رضاعه وفي نشأته وفتوّته،

---

(١) نسبة إلى بني إسرائيل في زمن موسى (ع).

وصنعه الله على عينه وهيّأه للرسالة؛ وإذا أراد الله أمرا هيأ له الأسباب، ثمّ قال له: كن فيكون.

قارون

ذكرت سورة القصص، قصة موسى (ع) في بدايتها، وقصة قارون في نهايتها، والهدف واحد: فقصة فرعون تمثّل طغيان الملك، وقصة قارون تمثّل طغيان المال.

***

كان قارون من قوم موسى (ع)، وكان غنياً ذا قدرة ومعرفة، وأوتي من المال ما إنّ مفاتحه لتنوء بها العصبةُ من الرجال الأقوياء، وخرج على قومه في زينته وأبهته، ليكسر قلوب الفقراء؛ ونصحه قومه بالاعتدال، وإخراج الزكاة، والإحسان إلى الناس، والابتعاد عن الفساد.

فزادته النصيحة تيهاً وعلوّاً، وخرج يباهي النّاس بماله وكنوزه، ثمّ تدخّلت يد القدرة الإلهية، فخسفت به وبداره الأرض، ولم يغن عنه ماله ولا علمه.

وهكذا تكون عاقبة الظالمين. وكما غرق فرعون في البحر، هلك قارون خسفاً في الأرض، ولا تزال بُحَيْرَةُ قارون، تذكّر الناس بنهاية الظالمين، قال تعالى:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت].

أهداف السورة

تهدف سورة القَصَص، إلى إثبات قدرة الله تعالى، ورعايته للمؤمنين؛ فهو، سبحانه، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، المتفرّد بالحكم والقضاء، قد آزر موسى وحيداً، فريداً، طريداً، ونجّاه من بطش فرعون، وأغرق فرعون وجنوده، كما أهلك قارون وقومه.

وبين القصّتين نجد الآيات [٤٤ ـ ٧٥] تعقّب على قصة موسى (ع)، وتبيّن أين يكون الأمن، وأين تكون المخافة. وتجول مع المشركين، الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير، تجول معهم

جولاتٍ شتّى في مشاهد الكون، وفي مشهد الحشر، وفيما هم فيه من الأمر، بعد أن تعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم (ص)، وكيف يتلقّاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين، بينما هم يتلقّونه بالكُفْرَانِ والجحود، وهو رحمة لهم من العذاب، لو أنهم كانوا يتذكّرون.

ختام السورة

في ختام السورة، نجد الآيات [٨٥ ـ ٨٨]، تَعِدُ الرسول (ص) بالرجوع إلى مكة، فاتحاً، منتصراً، ينشر الهُدَى، ويقيم الحق والعدل؛ ومن العجيب: أنّ هذا الوعد بالنصر، جاءه وهو يخرج من بلده، يطارده قومه، مهاجراً إلى المدينة، ولمّ يبلغها بعد؛ فقد كان بالجُحْفَةِ قريباً من مكّة، قريباً من الخطر، يتعلّق قلبه وبصره ببلده الذي يحبّه، ويقول عند فراقه مخاطباً مكّة: «والله إنّك لَمِنْ أحبِّ البلاد إليّ، ومِنْ أحبِّ البلادِ إلى الله، ولولا أنّ قومك أخرجوني منك ما خرجت».

ويعده الله بالرجوع إلى مكة، فيقول تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [الآية ٨٥].

ويبيّن سبحانه، أنّ كل ما دون الحق فهو عرضة للفناء والزوال، وأنّ زمام الحكم بيده تعالى. وتختم السورة بهذه الآية، إثباتاً للوحدانية، ولجلال القدرة الإلهية:

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «القصص»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة القَصَص بعد سورة النمل، وقد نزلت سورة النمل فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، فيكون نزول سورة القصص في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لأنه جاء في قوله تعالى في الآية [٢٥] منها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ وتبلغ آياتها ثماني وثمانين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة: التنويه بشأن القرآن أيضاً، ولهذا ذكرت بعد السورة السابقة، وقد فُصّل في أولها ما أُجمل في السورة السابقة من قصة موسى (ع)، وجاء آخرها في الاحتجاج بها على أن القرآن من عند الله، وفي دفع ما عندهم من شُبهٍ عليه.

التنويه بشأن القرآن
الآيات [١ ـ ٤٢]

قال الله تعالى ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ فنوّه بشأن القرآن وشأن ما يُتلى فيه من هذه القصة؛ ثم ذكر أنّ فرعون علا في الأرض، واستضعف بني إسرائيل، يُذَبِّحُ أبناءهم ويَسْتَحِيي نساءهم؛ وأنه تعالى أراد أن يَمُنَّ عليهم، ويجعل منهم أنبياء

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

وملوكاً، ويري فرعون وقومه ما كانوا يخافونه منهم، فأظهر فيهم موسى (ع)، وأوحى إلى أمّه أن ترضعه، وأمرها، إذا خافت عليه من الذبح، أن تضعه في تابوتٍ، وتلقيه في اليمّ، وطمأنها بأنه سيحفظه، ويردّه إليها لتقوم برضاعه؛ فلما ألقته في اليمّ، سار به إلى أن التقطه آل فرعون، ففرحت به امرأتُهُ ومنعتهم من قتله، وأرادت أن تربّيه، عسى أن ينفعهم أو يتّخذوه ولداً؛ ثم ذكر سبحانه أنّ أمّ موسى حزنت عليه، وأرسلت أخته وراءه، فرأت عن بُعدٍ ما فعلوه به، وأنه لم يقبل الرّضاع من المراضع. فتقدّمت أخته لتدلّهم على مُرْضِعٍ تكفله وتنصح له، فدلّتهم على أمّه، فَرُدَّ إليها لِتَقَرَّ عينها به، ولتعلم أنّ وعد الله حق. ثم ذكر سبحانه أنه لما بلغ أشُدَّه آتاه حكمة وعلماً، وأنّه دخل المدينة يوماً فوجد رجلاً من قوم فرعون يعتدي على رجل من بني إسرائيل، فاستغاثه الإسرائيليّ على عدوّه، فوكزه فقضى عليه. ولم يكن موسى يقصد قتله لكنه وَقَعَ خطأً منه، فَندِمَ عليه، وطلب من الله أن يغفر له. ثم ذكر سبحانه أن موسى (ع) أصبح في المدينة خائفاً أن يظهر أنه القاتل، فإذا الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس يستغيثه على رجل آخر من قوم فرعون يعتدي عليه، فلما أراد أن يبطش به، قال له، كما ورد في التنزيل ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾؛ ثمّ ذكرت السورة أنّ رجلاً جاء من أقصى المدينة يسعى، فأخبر موسى بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه، وأمره أن يخرج من المدينة قبل أن يقبضوا عليه.

فخرج موسى من المدينة، وتوجّهَ تلقاءَ مَدْيَنَ، إلى أن ورد ماءها، فوجد عليه ناساً يَسْقُون أغنامهم، ووجد من دونهم امرأتين تذودان أغنامهما، فسألهما عن أمرهما، فأخبرتاه بأنهما لا يسقيان حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ لضعفهما، وأنّ أباهما شيخ كبير لا يقوى على رعي الغنم وسقيها، فسقى لهما، ثمّ ذهب إلى ظلّ شجرة، ودعا الله أن يرزقه خيراً من عنده؛ ثم ذكر أنّ إحداهما جاءته بعد أن رجعتا بأغنامهما إلى أبيهما، تمشي على استحياء، فأخبرته بأنّ أباها يدعوه ليجزيَهُ على ما فعله معهما، فذهب إليه، وقصّ عليه ما حصل منه في مدينة فرعون، فقال له، كما ورد في التنزيل: ﴿لَا تَخَفْ

﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ۝٢٥﴾؛ ثم ذكر تعالى، أنّ إحدى ابنتيه طلبت منه أن يستأجره، لقوّته وأمانته، فأخبره بأنه يريد أن يُنكِحه إحدى ابنتيه، على أن يعمل له ثماني سنين، فإن أتمّها عشراً كان فضلاً منه، فرضي موسى (ع) على أنه إذا قضى أحد الأجلين، لم يكن له أن يعتدي عليه بطلب الزيادة؛ ثم ذكر سبحانه، أن موسى (ع) لما قضى الأجل، وسار بأهله إلى مصر، آنس ناراً بجانب الطورِ حينما وصل إليه، فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إليها؛ ثم ذكر أنه حين أتاها ناداه ربّه وأعطاه آيتين ليذهب بهما إلى فرعون وقومه، فذكر له موسى (ع) أنه قتل منهم نفساً، ويخاف أن يقتلوه بها، وطلب منه أن يرسل معه أخاه هارون، لأنه أفصح منه لساناً، فأرسل أخاه هارون معه، ووعده بالغلبة عليهم؛ فلمّا جاءهم بآياته، زعموا أنها سِحْرٌ مُفْتَرًى، وأنهم لم يسمعوا ما يدعو إليه في آبائهم الأوّلين؛ فذكر لهم أنّ ربّه أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ومن تكون له عاقبة الدنيا، فناداهم فرعون أنه لايعلم لهم إلهاً غيره، وأمر هَامَانَ أن يوقدَ له على الطين، ويبني له صرحاً لعلّه يطّلع إلى إله موسى، ليبيّن لهم ـ في زعمه ـ كذبه في دعواه أن له إلهاً غيره؛ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، وظنّوا أنّهم لا يرجعون إليه تعالى؛ فأخذهم، فأغرقهم في اليمّ، وجعلهم أئمّة يدعون إلى النار؛ ويوم القيامة لا يُنصرون: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ۝٤٢﴾.

إثبات تنزيل القرآن
الآيات [٤٣ ـ ٨٨]

ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ۝٤٣﴾ فذكر، سبحانه، أنه آتى موسى التوراة، من بعد أن أهلك القرون الأولى، من قوم فرعون وغيرهم، وأن النبي (ص) لم يكن حاضراً، حينما ألقى إلى موسى وحي التوراة بالجانب الغربي من الطُّور، وأنه لم يكن ثاوياً في أهل مَدْيَنَ، حينما كان فيها موسى، وأنه لم يكن بجانب الطور إذ نودي موسى به؛ ولكنّه سبحانه، هو الذي أوحى إليه بما لم يشاهده من ذلك كلّه، ليُنذِرَ به قومه الذين لم يأتهم نذير من قبله، حتى لا

يكون لهم عذر، إذا أصابتهم مصيبة، بما قدّمته أيديهم.

ثم ذكر تعالى، أنهم لمّا جاءهم القرآن بذلك آيةً لهم، طلبوا أن يُؤتى النبيُّ (ص) مثلَ آيات موسى (ع)؛ وردّ عليهم، بأنّ أسلافهم كفروا بما أوتي موسى (ع) منها، وزعموا أنّه ساحر هو وأخوه هارون (ع)، وأمرهم بأن يأتوا بكتابٍ أهدى من التوراة والقرآن، ليتّبعه ويَهْدِي به، فإذا لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا فهم قوم يتّبعون أهواءهم، ومن يتّبع هواه لا تُرجى هدايته؛ ثم ذكر سبحانه أن الذين أوتوا الكتاب من قبله، يؤمنون به، لأنّه يوافق ما كانوا عليه من الإيمان من قبله. ووعدهم بأن يؤتيهم أجرهم مرتين، على إيمانهم السابق واللاحق؛ وذكر تعالى أن الرسول (ص) لا يمكنه أن يهدي من أحبَّ من قومه، لأن الهداية بيده سبحانه، وحده.

ثم ذكر لهم سبحانه شبهةً ثانية: أنهم إن اتبعوا ما نُزّلَ عليه من الهدى، يَتَخَطّفهُمُ الناس من أرضهم، وردّ عليهم بأنه لا خوف عليهم من ذلك، لأنه مكّن لهم في حَرَمٍ يأمن فيه الخائف، يُجبى إليه ثمراتُ كلّ شيء، وبأن عدم إيمانهم، هو الذي يُخاف عليهم منه، لأنه يؤدّي إلى إهلاكه لهم، كما أهلك القرى التي بَطِرَتْ معيشتها قبلهم، وبأنهم إذا فاتهم بإيمانهم شيء من الدنيا، فما عند الله خير وأبقى منه؛ لأنه لا يمكن أن يكون مَنْ وَعَدَهُ وعداً حسناً في الآخرة، فهو لاقيه كمن يُمتّعُه متاعَ الدنيا، ثم يحضره يوم القيامة فيناديهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية ٦٢]. ويأمرهم بأن يدعوهم فلا يستجيبون لهم، ثم يناديهم: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية ٦٥]، فيَعَيَوْنَ بالكلام ولا ينطقون؛ فأمّا من تاب من الكفر، وعمل صالحاً، فإنه يكون من المفلحين. ثم ذكر جَلّ وعلا أنه يفعل ذلك بقدرته واختياره؛ فيُثيب من يشاء، ويعذّب من يشاء، وليس لهم اختيار مع اختياره؛ وأنه يعلم ما تكنّه صدورهم، وما يعلنونه، فيحاسبهم عليه حساباً عادلاً؛ إلى غير هذا ممّا ذكره من آثار قدرته وعظمته ورحمته، ثم عاد السّياق إلى ما ناداهم به تعالى، أوّلاً: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ وذكر سبحانه، أنه يحضر من كلّ أمة شهيداً عليهم من الرسل، الذين بلّغوهم رسالاتهم، وأنه يأمرهم أن يأتوا

ببرهانهم على أنّ الشركاء آلهة، وأنهم يعلمون حينئذٍ، أن الحق لله فلا يحاولون شيئاً.

ثم أراد أن يُهوّن عليهم ما يخافون عليه من دنياهم، إذا آمنوا به؛ فذكرلهم أن قارون كان من قوم موسى (ع)، فبَغى عليهم، وأنه جلّ وعلا آتاه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لَتَنُوءُ بها العُصْبة أُولو القوة، وأنّ قومه نَهَوْهُ أن يفرح بذلك، ويغترّ به؛ وأنّ قارون ذكر لهم، أنه أوتيهِ على علم عنده، ولا فضل لأحد عليه، إلى غير هذا ممّا دار بينه وبينهم، ثم ذكر أنه خسف به وبداره الأرض، فلم يُغْنِ عنه أحد شيئاً، وذهب ما أوتيه في الدنيا، وكأنْ لم يكن؛ ثم عظّم شأن الآخرة، وذكر سبحانه أنه يجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً؛ وأنّه، جلّت قدرتهُ، يحاسبهم فيها على الحسنة بخير منها، وعلى السيّئة بمثلها.

ثم ختم السورة بتبشير النبي (ص)، وأمره بالصبر على تكذيبهم بالقرآن؛ فذكر له أنه هو الذي فرض عليه أحكامه، وأنه سيردّه إلى مَعَادٍ ينصره فيه عليهم، وهو أعلم بمن جاء بالهدى، ومن هو في ضلال، فيجازيهم على وفقِ علمه؛ ثم ذكر له أنه ما كان يرجو أن يُنَزّلَ عليه القرآن، ولكنّ رحمته هي التي آثرته به، فيجب أن يشكره عليه، بعدم التأثر بما يقترحه عليه المشركون من الآيات الأخرى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «القصص»(*)

أقول: ظهر لي بعد الفكرة: أنه سبحانه، لما حكى في سورة «الشعراء» قول فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء]، إلى قول موسى (ع) كما ورد في سورة نفسها: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١﴾، ولما حكى، سبحانه، قول موسى لأهله، كما ورد في سورة «النمل»: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل/٧]، وكان ذلك على سبيل الإشارة والإجمال، بَسَطَ في هذه السورة ما أوجزه في السورتين، وفصّل ما أجمله فيهما على حَسَبِ ترتيبهما.

فبدأ بشرح تربية فرعون لموسى، وبيّن: عُلُوّ فرعون، وذَبْحَ أبناء بني إسرائيل الموجِب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم، خوفاً عليه من الذبح؛ وبَسَطَ القصة في تربيته، وما وقع فيها إلى كِبَرِه؛ إلى السبب الذي من أجله قَتَل القبطي، والموجب لفراره إلى مَدين(١)؛ إلى ما وقع له مع شعيب (ع)، وتَزَوُّجه بابنته، إلى أن سار بأهله، وآنس من جانب الطور ناراً، فقال لأهله كما ورد في التنزيل: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [الآية ٢٩]؛ إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربّه،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) مدين: مدينة قوم شعيب (ع)، وهي تجاه تبوك، على بحر القلزم، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب (مراصد الاطّلاع ٣/١٢٤٦).

وبَعْثِه إياه رسولاً، وما استتبع ذلك، إلى آخر القصة.

فكانت السورة شارحة لما أُجمل في السورتين معاً، على الترتيب.

وبذلك عرف وجه الحكمة في تقديم سورة «النمل» على هذه، وتأخيرها عن سورة «الشعراء»، فلله الحمد على ما ألهم.

مكنونات سورة «القصص»(*)

١ - ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية ٨].

اسم الملتقِطِ، قيل: طابوث[1].

وقيل: هي امرأةُ فِرْعَوْن.

وقيل: ابنته.

قلت أخرج ابنُ أبي حاتِم الثالث عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي[2].

٢ - ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية ٩].

اسمها: آسية بنتُ مزاحم. أخرجه ابنُ أبي حاتِم عن عبدالله بنِ عَمْرو.

٣ - ﴿أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [الآية ١٠] قال البغوي: «أم موسى»: يوخابَذ بنت لاوي بن يعقوب. وكذا قال ابنُ الجوزي في «التبصرة»[3].

وقيل: ياوخا. وقيل: يارخت[4].

٤ - ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ [الآية ١١].

قال ابنُ عساكر: اسمها مريم[5].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُعْجِماتِ الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) في الإتقان ٢/ ١٤٧ «طابوس» بالسين.

(٢) أبو عبد الرحمن الحبلي، هو من تابعي أهل مصر، يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره. «الأنساب» للسمعاني ٤/ ٥٠.

(٣) العبارة جاءت في «الإتقان» ٢/ ١٤٧ كما يلي: «أمّ موسى: يوحانذ بنت يصهر بن ولاوي».

(٤) العبارة في «الإتقان»: وقيل: يوخا. وقيل: اباذخت».

(٥) جاء ذلك في رواية أخرجها ابن عساكر عن أبي روّاد، وأخرى عن أبي أمامة رضي الله عنه، أخرجها ابن عساكر والطبراني؛ كما في «الدر المنثور» ٥/ ١٢١.

وقيل: كلثوم[1].

٥ - ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ [الآية ١٥].

هي مَنْف[2]، من أرض مصر. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[3] عن السُّدِّيّ.

٦ - ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ [الآية ١٥].

قال ابن عباس، وابن جبير، وقتادة: نصف النهار.

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وأخرج من وجه آخر[4] عن ابن عبّاس قال: ما بين المغرب والعشاء.

٧ - ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [الآية ١٥].

الإسرائيلي: هو السامري.

والقبطي: هو فاتون. حكاه الزمخشري[5].

٨ - ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الآية ٢٠].

قال الضّحّاك: هو مُؤمِن آل فِرْعَوْنَ.

وقال شُعيب الجَبَائي: اسمه شمعون.

وقال ابن إسحاق: شَمْعان[6].

أخرجهما ابنُ أبي حاتِم.

قال السُّهَيْلي: وشمعان أصحّ ما قيل فيه.

قال الدّارقُطْني: لا يُعْرَف شمعان بالمعجمة، إلاّ مؤمن آل فرعون.

وفي «تاريخ الطبري» أن اسمه: جبر[7]، وقال بعضهم: حبيب؛ وقيل: جزْقيل.

٩ - ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [الآية ٢٣].

هما: ليّا، وصَفُوريا[8]؛ وهي التي نكحها. أخرجه ابنُ أبي حاتم، عن شعيب الجَبَائي. قال: وقيل: شرفا؛

---

(١) انظر «الإتقان» ٢/١٤٧.

(٢) كذا ضبطها ياقوت الحموي في «معجم البلدان» ٥/٢١٣.

(٣) وابن جرير في «تفسيره» ٢/٢٨.

(٤) انظر «تفسير الطّبري» ٢٠/٢٩.

(٥) في كتابه «الكشاف» ٣/١٦٠.

(٦) في «تاج العروس» ٥/٤٠٣ مادة: (شمع) نقلاً عن شُعَيْب الجَبائي: «شمعان».

(٧) في «تفسير الطّبري» ٢٠/٤٠ «حبر».

(٨) كذا في الأصول؛ وفي «تفسير الطبري» ٢٠/٣٩، ٤٠: «صفورا».

وأبوهما شُعيب (ع) عند الأكثر.

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن مالك بن أنس: أنه بَلَغَهُ أنّ شُعَيباً (ع)، هو الذي قَصّ عليه موسى القَصَص.

وأخرج عن الحسن قال: يقولون شعيب، وليس بشعيب؛ ولكنه سيّد أهل[1] الماء يومئذ.

وأخرج عن أبي عبيدة قال: هو يثرون، ابن أخي[2] شعيب.

وأخرج ابن جرير[3] عن ابن عباس: أن اسمه يَثْرى.

١٠ ـ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [الآية ٢٤].

هو ظل سَمُرَة[4]. أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود[5].

١١ ـ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾[6].

قيل: هو بحر يُسَمّى راسافا من وراء مصر. حكاه ابن عساكر.

١٢ ـ ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [الآية ٥٧].

قائل ذلك: الحارثُ بنُ عامر بنِ نَوْفَل. أخرجه النَّسائي عن ابن عبّاس.

١٣ ـ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ [الآية ٦١].

أخرج ابن جَرير عن مجاهد قال: نزلت في حمزة وعلي[7] وأبي جهل.

١٤ ـ ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [الآية ٧٦].

أخرج الدِّينَوري[8] في «المجالسة» عن خيثمة قال: قرأت في الإنجيل، أنّ

---

(١) زيادة من «تفسير الطّبري» ٢٠/ ٤٠.

(٢) كذا في «تفسير الطّبري» ٢٠/ ٤٠.

(٣) ٢٠/ ٤٠.

(٤) سَمُرَة: واحدة السَّمُر، وهو شجر الطلح، ينبت في البوادي ولا ثمر له.

(٥) «الطّبري» ٢٠/ ٣٧ عن السُدّيّ لا ابن مسعود، وكذا في «الطّبري» ط الحلبي ٢٠/ ٥٨. ولعل ما أثبته المؤلف جاء في نسخته من «الطّبري»؛ والله أعلم.

(٦) لفظ: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ من سورة الأعراف [الآية ١٣٦]. والذي هنا في سورة القصص: ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الآية ٤٠].

(٧) زيادة من «تفسير ابن جرير» ٢٠/ ٦٢.

(٨) الدِّينوري: هو أحمد بن مروان المالكي، أبو بكر، من رجال الحديث المتّهمين بوضع الحديث، وَلِيَ قضاء أسوان، وتوفي بالقاهرة سنة ٣٣٣هـ.

مفاتيح كنوز قارون وِقر[1] ستين بغلاً، كُلُّ مفتاح على قدر أصبع، لكل مفتاح منها كنز.

١٥ ـ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [الآية ٨٥].

قال مجاهد والضَّحّاك: يعني مكّة[2].

وقال نُعَيم القاري: بيت المقدس.

وقال ابنُ عبّاس وغيره: القيامة.

أخرجها ابنُ أبي حاتِم[3].

---

(١) الوِقْر: الحمل؛ أي ما يستطيع البعير حَمْلَهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٣) في التفسير، عن ابن عبّاس موقوفاً.

(٣) وفي «فتح الباري» ٨/ ٥١٠: «وروى عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قَتادة قال: كان ابنُ عبّاس يكتم تفسير هذه الآية؛ وروى الطَّبري من وجه آخر عن ابن عبّاس قال [قوله تعالى]: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى الجنة، وإسناده ضعيف، ومن وجه آخر قال: «إلى الموت»، وأخرجه ابن أبي حاتم وإسناده لا بأس به؛ ومن طريق مجاهد قال: «يحييك يوم القيامة»، ومن وجه آخر عنه: «إلى مكّة». وقال عبد الرزاق، قال مَعْمَر: وأما الحسن والزُّهري فقالا: هو يوم القيامة؛ وروى أبو يعلى، من طريق أبي جعفر محمد بن علي، قال: سألت أبا سعيد عن هذه الآية، فقال: معاده آخرته. وفي إسناده جابر الجعفيّ، وهو ضعيف.

لغة التنزيل في سورة «القصص»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الآية ٤].

وقوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ﴾ فعل مضاعف، والغرض من التضعيف الاستفظاع، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيِۦ﴾، أي: يستبقي النساء على قيد الحياة، ولا يقتُلُهنَّ.

أقول: والاستحياء على هذا معنى غريب، لا نعرفه الآن، ولم نعرفه إلا في هذه اللغة الشريفة.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [الآية ١٢].

والمراضِع جمع مُرضِع، وهي المرأة التي ترضع.

وقالوا: جمع مَرضَع، وهو موضع الرضاع، أي: الثدي.

والمُرضِع التي معها رضيع كالمرضعة، ومثلها المُطْفِل وهي ذات الطِّفل. وعلى هذا يصحّ أن يأتي «مَفاعل» جمعاً لمُفعِل ومُفعِلة، وبهذا يصحّ جمع مشكلة مشاكل، خلافاً لأهل التصحيح في جعلهم «مشاكل» من الخطأ.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [الآية ١٥].

وقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، أي دفعه بأطراف الأصابع، وقيل: بجمع الكف.

أقول: وينبغي أن ننظر إلى الأفعال: لكَزَ، ولَقَزَ، ونَكَزَ، ووَكَزَ؛ فكلّها تتضمن معنى الدفع، بهيئة خاصة.

وإذا كان لنا أنْ نقرِّب بين هذه

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

الأصوات، وتشابه الدلالات التي جاءت في الأفعال؛ كان لنا أيضاً أن ننظر في: نَسق ووَسَق، ونَفر وأفَرَ ووَفَرَ.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [الآية ١٩].

أقول: جاءت «أنْ» المفتوحة الهمزة زائدة بعد «لما» وهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف/٩٦].

وإذا زيدت «أن» بعد «لمّا» فقد زيدت «إن» المكسورة الهمزة بعد «ما» النافية، وهذا ما لم نقف على شاهد له في لغة التنزيل، وقد استدل عليه النحاة في قول النابغة:

ما إنْ أتيت بشيءٍ أنت تكرَهُه
إذن فلا رفعت سوطي إليَّ يدي

وقد زيدت، قبل الاسم، في بيت لفروة بن مسيك، أو لعمرو بن قعاس، ونسب إلى الكميت، وهو:

فما إنْ طِبُّنا جُبُنٌ ولكن
منايانا ودُولةُ آخرينا

وقول الشاعر:

بني غُدانةَ ما إنْ أنتمُ ذهباً
ولا طريفاً ولكن أنتمُ الخزفُ

وهذه الأبيات من شواهدهم التي نجدها في عامّة كتبهم.

وتزاد «إن» المكسورة الحقيقية في مواضع أخرى، ذكرها ابن هشام في «المغني»، وليس من همنا في هذا الموضع استيفاؤها.

وقد عرضت لزيادة «إن» هذه، وهي ليست موضعاً في لغة التنزيل، بسبب الخطأ الذي يعرض للمعربين في عصرنا، فيجعلونها «أن» مفتوحة الهمزة، وهي زائدة زيادة «أن» بعد «لما» موضع بحثنا هذا فيقولون: وما أن حضر الرئيس حتى عَزَفت الموسيقى.

والصحيح الفصيح: وما إن حضر.... ، بكسر الهمزة.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

أقول: جاءت «تلقاء» مصدراً في اللغة ليس على فعله، وذلك لأنّه مكسور التاء، والمصادر كلها المبدوءة بتاء تكون مفتوحة التاء، كالتَجوال والتطواف وغيرهما إلا تِلقاء وتِبيان فإنهما مكسوران.

أما تِلْقاء هذه التي وردت في الآية،

فهي ظرف مكان، والمعنى: ولما توجّه نحو مَدْيَنَ. . .

أقول: وليس لنا هذا الاستعمال في العربية المعاصرة، أي: كونها ظرفاً. والذي نعرفه من «تلقاء» أنها مصدر، يستعمل نحو قولهم مثلاً: واعترف من تِلقاء نفسه، أي: أنه اعترف من دون إكراه أو إجبار أو شيء آخر.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [الآية ٢٣].

أقول: والرِّعاء جمع راع، وهو من الجموع العزيزة في عصرنا، ذلك أننا لا نعرف إلا «الرُّعاة» في العربية المعاصرة. ومفعول «يصدر» محذوف، تقديره: ماشيتهم.

٧ وقال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [الآية ٣٥].

والمعنى: سنقوّيك به، ونُعينك.

ويقال: شَدَّ الله في عَضُدك؛ وضدُّه: فَتَّ الله في عَضُدك. والعَضُد: الساعد من المَرْفِق إلى الكتف.

أقول: وقد أفادت العربية من العَضُد في هذا المعنى، فقالوا: عَضَدَ يعضد، بمعنى أعانَ وأيّد.

والإفادة من أعضاء الجسم في توليد المعاني كثيرة، فقالوا: أيّد من اليد، وأنِفَ من «الأنف»، وفاه من «فوه»، وعايَنَ من «العين»، وغير ذلك كثير.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [الآية ٤٧].

أقول: جاءت «لولا» أداة تحضيض، مثل «هلاّ»، فاستحقّت الفعل بعدها.

وهذه من الأدوات التي افتقدناها في العربية المعاصرة، على أنّ استعمالها كثير على هذا النحو في القرآن.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا﴾ [الآية ٥٧].

أي: أن الله، جلّ وعلا، جعل لهم من الحَرَم مكاناً آمناً.

وجاء قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وقُرئ: تُجبَى.

أما القراءة المشهورة المثبتة، فقد غُلِّب فيها التذكير، لأن «الثمرات» وإن كانت مؤنثة فهي عامة، تشمل أجناس النبات كلّها، وأصناف الخير كلّها، فضلاً عن أنها مؤنث مجازي، وأنها مفصولة عن فعلها.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [الآية ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بالنصب، والمعنى: بَطِرت في معيشتها.

والأصل: بَطِرَ أهلُها بمعيشتهم؛ ولما دلّت القرية على أهلها، كما هو كثير في القرآن، جاز ذلك.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ [الآية ٦٦].

والمراد: طَمَسَتْ، وغامَتْ، فجهلوها.

أقول: واستعارة «العمى» للأنباء، من الكَلِمَ المجازيّ الجميل.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [الآية ٧٦].

قالوا: ناءَ بالحِمْل، إذا نَهَضَ به مُثْقَلاً، وناءَ به الحِمل إذا أثقلَه.

والمعنى في الآية: أنّ المفاتح تنوء بالعصبة، أي: تُميلهم من ثِقلها.

أقول: والاستعمال في عصرنا على الوجه الآخر فيقال:

ناء فلان بالعبء أي: شقّ عليه وأثقله.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الآية ٨٢].

أقول: «وَيْ» مفصولة عن «كأنّ»، ولكن بسبب من خط المصحف اتصلت؛ وهي كلمة تنبُّه على الخطأ وتندُّم، ومعناها أن القوم قد تنبّهوا على خطأهم في تَمنّيهم.

وقد بقي شيء من هذه الأداة في المحكيات، ففي «لغة» النساء في العراق، تستعمل «وي» بكسر الواو في مقام التعجب والاستغراب، فكأنها شيء مما اصطلح عليه النحويون بـ «أسماء الأفعال». وهي في «لغة» الأعرابيات في الجنوب «بفتح الواو» أيضاً.

المعاني اللغوية في سورة «القصص»(*)

قال تعالى: ﴿فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ [الآية ١٠] أي: فارغاً من الوَحي، إذْ تَخَوَّفَتْ على موسى إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بالوَحْي.

أيْ: تُظهِره[1].

قال تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [الآية ١١] أيْ: قُصّي أَثَرَهُ.

وقال سبحانه: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ [الآية ١٧] أي مقيماً، يقال: «لن يكونَ فلانٌ في الدّارِ مُقِيماً» أي: «لا يَكُونَنَّ مُقِيماً».

وقال تعالى: ﴿تَأۡجُرَنِي﴾ [الآية ٢٧]؛ وفي لغة العرب منهم من يقول «أُجِرَ غلامي» فـ «هُوَ مَأْجُورٌ» و«أَجَرْتُهُ» فـ «هُوَ مُؤْجَرٌ» يريد: «أَفْعَلْتُهُ» فـ «هو مُفْعَلٌ»، وقال بعضهم: «آجَرْتُهُ» فـ «هو مُؤَاجَر» أَرَادَ «فَاعَلْتُهُ».

وقال تعالى: ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [الآية ٣٠]؛ وجماعة «الشّاطِئ» «الشّواطِئ» قرأ بعضهم «شَطٌّ»، والجماعة «شُطُوطٌ».

وقال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ﴾ [الآية ٣٢]؛ ثقّل بعضهم[2] وهم الذين

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله الأنباري في الأضداد ٢٩٨، ونُسب في الجامع ١٣/ ٢٥٥ القول بالفراغ من الوحي، الى الحسن وابن أبي اسحاق وابن زيد.

(٢) تثقيل النون قراءة في الطبري ٢٠/ ٧٤؛ نسبت الى ابن كثير، وأبي عمرو؛ وكذلك في السبعة ٤٩٣، والتيسير ١٧١، والبحر ٧/ ١١٨، واقتصر في الجامع ١٣/ ٢٨٥، على ابن كثير؛ أمّا تخفيف النون، فلغيرهما، كما جاء في المصادر السابقة.

قرأوا (ذلِكَ) فأدخلوا التثقيل للتأكيد، كما أدخلوا اللام في «ذلك».

وقال تعالى: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [الآية ٣٤] أي: عوناً فيمنعني، ويكون في هذا الوجه: «رَدَأْتُهُ»: أعَنْتُه. (ويُصَدِّقْنِي) بالجزم اذا جعلته شرطاً[1] و﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾[2] إذا جعلته من صفة الرده.

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الآية ٤٦] بنصب ﴿رَّحْمَةً﴾ على «ولكنْ رَحِمَكَ رَبُّكَ رَحْمَةً»[3].

وقال تعالى: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [الآية ٦٣] لأنه من «غَوَى» «يَغْوِي» مثل «رَمَى» «يَرْمِي».

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية ٥] على قوله سبحانه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الآية ٤] أي: فعل هذا فرعون ونحن ﴿نُريدُ أن نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ ٱسْتُضْعِفُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [الآية ٧٦] أي: إنَّ الذي مفاتحه. وهذا موضع لا يُبتدأ فيه بـ «أنّ» وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة/٨] وقوله سبحانه ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ معناه أنّ العصبة لتنوء بها وقد ورد السياق على سبيل المجاز. وفي الشعر [وهو الشاهد السابع عشر بعد المئة من مجزوء الوافر]:

تَنُوءُ بِهَا فَتُثْقِلُها
عَجِيزَتُها....

وليست العجيزة تنوء بها، ولكنها هي تنوء بالعجيزة. وقال[4] [من الكامل وهو الشاهد الثالث والستون بعد المئتين]:

ما كُنْتُ في الحَرْبِ العَوانِ مُغَمَّراً
إذْ شَبَّ حَرُّ وَقُودِها أَجْزالَها

وقال تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الآية ٨٢] المفسرون

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٠٦، نسبت قراءة الجزم الى اهل المدينة؛ وفي الطبري ٢٠/ ٧٥ الى عامة قراء الحجاز والبصرة؛ وفي السبعة ٤٩٤، وحجة ابن خالويه ٢٥٣، والكشف ٢/ ١٧٣، والتيسير ١٧١، والجامع ١٣/ ٢٨٧، والبحر ٧/ ١١٨، الى غير عاصم وحمزة.

(٢) نسبت قراءة الرفع في المصادر السابقة كلها، عدا معاني القرآن، إذ لم يشر الى نسبتها، الى عاصم وحمزة.

(٣) نقله في المشكل ٢/ ٥٤٦، وإعراب القرآن ٢/ ٧٩٧، والجامع ١٣/ ٢٩٢.

(٤) هو الأعشى ميمون. ديوانه ٣.

يفسّرونها: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ» وقال تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الآية ٨٢] وفي الشعر [من الخفيف وهو الشاهد الثامن والعشرون بعد المئتين]:

سَألَتانِي الطَّلاقَ أَنْ رَأَتا مالِي [م]
قَليلاً قَدْ جِئْتُماني بِنُكْرِ

وَيْكَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْبَبْ [م]
وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرّْ

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً﴾ [الآية ٨٦] استثناء خارج من أوّلِ الكلام في معنى «لكنْ».

لكل سؤال جواب في سورة «القصص»(*)

إن قيل: ما الحكمة في وحي الله تعالى، إلى أم موسى (ع)، بإرضاعه وهي ترضعه طبعاً، سواء أأُمرت بذلك أم لا؟

قلنا: أَمَرها بإرضاعه ليألف لبنها، فلا يقبل ثدياً غيرها، بعد وقوعه في يد فرعون؛ فلو لم يأمرها بإرضاعه، لكان من المتوقّع أن تُسترضع له مرضعةٌ، فيفوت ذلك المقصود.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ [الآية ٧]؛ والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدّق مع كل واحد منهما وحده، فيؤول هذا إلى صدق قوله: فإذا خفت عليه فلا تخافي، وأنه يشبه التناقض.

قلنا: معناه فإذا خفت عليه من القتل، فألقيه في اليّم، ولا تخافي عليه من الغرق، ولا تناقُضَ بينهما.

فإن قيل: ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [الآية ٧]؟

قلنا: الخوف غمٌّ يصيب الإنسان، لأمر يتوقّعه في المستقبل، والحزن غمٌّ يصيبه لأمر قد وقع ومضى.

فإن قيل: لِمَ جعل موسى (ع)، قَتْلَه القبطي الكافر مِن عَمَل الشيطان، وسمّى نفسه ظالماً، واستغفر منه؟

قلنا: إنّما جعله من عمل الشيطان، لأنّه قتله قبل أن يُؤذَنَ له في قتله،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

فكان ذلك ذنباً يستغفر منه مثله. قال ابن جريج: ليس لنبيّ أن يقتل ما لم يؤمر.

فإن قيل: إنّ موسى (ع)، ما سقى لابنتي شعيب (ع)، طلباً للأجر، فكيف أجاب دعوة إحداهما، لمّا قالت كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [الآية ٢٥]؟

قلنا: يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها، ودعوة أبيها لوجه الله تعالى، على سبيل البِرّ والمعروف ابتداءً، لا على سبيل الإجزاء، وإن سَمَّتهُ هي جزاءً؛ ويؤيّد هذا، ما رُوي أنّه لما قُدّم إليه الطعام امتنع، قال: «إنّا أهل بيت لا نبيع ديننا بطِلاعِ[1] الأرض ذهباً، ولا نأخذ على المعروف أجراً»، حتى قال له شعيب (ع): «هذه عادتنا، مع كلّ من ينزل بنا».

فإن قيل: لِمَ قال له شعيب (ع) كما ورد في التنزيل: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [الآية ٢٧]، ومثل هذا النكاح، لا يصحّ لجهالة المنكوح، والنبي (ع) لا ينكح نكاحاً فاسداً، ولا يَعِدُ به؟

قلنا: إنّما كان ذلك وعداً بنكاحِ معيّنةٍ عند الواعد، وإن كانت مجهولةً عند الموعود، ومثله جائز، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد، كما وقع منه.

فإن قيل: لم قال تعالى هنا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [الآية ٣٢]؛ فجعل الجناح هنا مضموماً، وقال في سورة طه؛ ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه/ ٢٢]، فجعل الجناح هناك مضموماً إليه، والقصة واحدة؟

قلنا: المراد بالجناح المضموم هنا، هو اليد اليمنى، والمراد بالجناح المضموم إليه في سورة طه، ما بين العضُدِ إلى الإبْطِ من اليد اليسرى، فلا تناقض بينهما.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [الآية ٣٢]؟

قلنا: لمّا رَهِبَ الحيّةَ، أمره الله تعالى، أن يضمّ إليه جناحه، ليذهب عنه الفزع، وإنما قال تعالى: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾، لأنه جعل الرهب الذي أصابه عِلّةً وسبباً، لِما أُمِرَ به مِنْ ضَمّ

---

(١) طلاع الأرض: مِلْئُها.

الجناح. قال مجاهد: كل من فزع من شيء، فضمّ جناحه إليه، ذهب عنه الفزع. وقيل حقيقة ضمّ الجناح غير مرادة؛ بل هو مجاز، عن تسكين الروع وتثبيت الجأش. قال أبو علي: لم يُرِدْ به الضم بين شيئين، وإنما أمِرَ بالعزم والجدّ في الإتيان بما طلب منه؛ ومثله قولهم:

اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلْمَوْتِ

فليس فيه شدّ حقيقة. وقيل في الآية تقديم وتأخير، تقديره: ولّى مُدْبِراً من الرهب.

فإن قيل: ما الحكمة في تصديق هارون لموسى (ع)، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [الآية ٣٤]؟

قلنا: ليس المراد بقوله تعالى: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أن يقول هارون لموسى (ع): صدقت في دعوى الرسالة، فإنّ ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه، الذين كانوا لا يصدّقونه، مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة، بل مراد موسى (ع) أن يلخّص حججه بلسانه، ويبسّط القول فيها ببيانه، ويجادل عنه بالحق، فيكون ذلك سبباً لتصديقه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [الآية ٣٤]؟ وفضلُ الفصاحة، إنما يُحتاج إليه لما قلنا، لا لقوله صدقت، فإن سُحْبانَ وائِل وباقلاً في ذلك سواء.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [الآية ٤٤]، أي أحكمنا إليه الوحي، مُغْنٍ عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية ٤٤]، أي من الحاضرين عند ذلك؟

قلنا: معناه وما كنت من الشاهدين قصّته، مع شعيب (ع)؛ فاختلفت القضيّتان.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية ٥٠]، وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر، مَنْ قد هداه الله للإسلام والتوبة؟

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة المائدة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ [الآية ٦٤]، وإنّما يرى العذابَ من كان ضالاً، لا مهتدياً.

قلنا: جواب «لو» محذوف تقديره: ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون،

لما اتّبعوهم، أو لما رأوا العذاب.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في آخر آية الليل: ﴿بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [الآية ٧١] وقال في آخر آية النهار: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الآية ٧٢]؟

قلنا: السَّماعُ والإبْصارُ المذكوران، لا تَعَلُّق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار، فلذلك لم يَقرِن الإبصار بالضياء؛ وبيانه أن معنى الآيتين: أفلا تسمعون القرآن سماع تأمُّل وتدبّر، فتستدلّوا، بما فيه من الحجج، على توحيد الله تعالى؟ أفلا تبصرون ما أنتم عليه، من الخطأ والضلالة؟

فإن قيل: ما وجه الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الآية ٨٦]؟

قلنا: قال الفرّاء: هو استثناء منقطع، تقديرُه رحمة من ربك: أي للرحمة.

المعاني المجازية في سورة «القصص»(*)

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا﴾ [الآية ١٠].

وقد تقدّم الإيماء إلى معنى ذلك، بذكر نظيره في السورة التي يذكر فيها إبراهيم (ع)؛ ومعنى «فارغاً»، أي: قد خلا من صبرٍ، وثبات، وتماسك، ووقار، لفرط الجزع، والأسف، وشدّة الارتماض[1] والقلق؛ وحسن وصف القلب بالفراغ من الأشياء التي ذكرنا، وإن كان مملوءاً بأضدادها، لأنّ تلك الأشياء من المحمودات، وأضدادها من المذمومات؛ والممتلئ من الاشياء المذمومة كالفارغ، إذا كان امتلاؤه ممّا لا فائدة فيه، ولا عائدة له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [الآية ٣٢].

وهذه استعارة، والجناح هٰهنا عبارة عن اليد؛ وقد أشرنا إلى الكلام على نظيره فيما تقدّم، وقيل معنى ذلك، أي: سكّن روعك، وخفّض جأشك من الرهب الذي أصابك، والرعب الذي داخلك، عند انقلاب العصا في هيئة الجان؛ ولمّا كان من شأن الخائف القلق والانزعاج والتململ والاضطراب، صار ضَمُّ الجَناح عبارةً عن السكون بعد القلق، والأمان بعد الفرق؛ فأما قوله تعالى في صدر هذه الآية: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) من رَمَضَ: الرَّمَض: حُرْقَةُ القيظ، ارتمض لفلان أي حزن له، الرَّماضَةُ: الحدّة وشدّة الوقع.

مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، فَيَقْرُب من أن يكون استعارة، لأن «اسْلُكْ»، ان كان بمعنى أَدْخِل، فإن أصلها مأخوذ من إدخال السلك، وهو الخيط المستدقّ، في خروق الخرز المنظومة، فهو، إذاً، يُفيد إدخالَ الشيء في الشيء المتضايق، أو إدخالَهُ على الوجه الشاقّ المستصعب، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٢٠٠﴾﴾ [الشعراء]، أي أدخلنا القرآن في قلوبهم، من جهة الأسماع على كُرْهٍ منها، إدخالاً يشقّ؛ وقد تقدم كلامنا على مثل هذا؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر]، أي ما أدخلكم فيها على كره منكم، ومشقّة عليكم، وعلى هذا قول الشاعر:

وَقَدْ سَلَكُوكَ في يومٍ عصيب

أي أدخلوك وأنت كاره له؛ فيكون معنى قوله تعالى لموسى (ع): ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ إنْ كنت على خوف وإشفاق عند مشاهدة ما قد راعك، من تلك الآيات القواهر، والأعلام البواهر.

وقوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [الآية ٣٥].

وهذه استعارة؛ والمراد بها تقويته على إنفاذ الأمر، وتأدية الوحي بأخيه؛ لأنّ اشتداد العضد والساعد في القول، عبارة عن القوّة، والجَلَدِ، والقدرة على العمل؛ ألا ترى إلى قول الشاعر:

أُعَلِّمُهُ الرِّمايةَ كلَّ يومٍ
فلما اشْتَدَّ ساعِدُهُ رماني

ويُروى، فلما «اسْتَدَّ ساعِدُه» بالسين، والأوّل أقوى وأظهر، ولأنّ اشتداد العضد بمعنى القوة، تمكّن اليد من السطوة، وتعينها على البسطة؛ وهذا من عجيب الكلام.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ [الآية ٤٨].

على قراءة أهل الكوفة؛ وهذه استعارة، لأنّ التظاهر الذي معناه المعاونة والمضافرة إنّما هو من صفات الأجسام، والسِّحْر عَرَضٌ من الأعراض، والمراد بذلك حكاية ما قاله المشركون، في الكلام الذي جاء به نبينا (ص)، بعد ما جاء به موسى (ع)، من الآيات الباهرة والأعلام الظاهرة؛ ومعنى تظاهرا أي تعاونا من طريق الاشتباه والتماثل، وكان الثاني مصدّقاً للأوّل والمتأخر مقوّياً للمتقدّم.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٥١﴾﴾.

وهذه استعارة، والمراد بتوصيل القول، والله أعلم، إرداف بعضه ببعض، وتكرير بعضه على أعقاب بعض، مظاهرةً للحجّة على سامعيه، وإبعاداً في منازع الاحتجاج على مخالفيه، ليتذكّروا بعد الغَفْلَة، وينتبهوا من الرُقْدَة؛ وذلك تشبيهاً بتوصيل الحبال بعضها ببعض، عند إدلاء الدلو إلى الطُّوِيّ البعيدة، إلى أن يصل إلى الماء، ويفضي إلى الرواء، وهذا من دقيق المعاني.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الآية ٥٤].

وهذه استعارة؛ لأنّ الحسنة والسّيئة ليستا بجسمين، يصح دفع أحدهما بالآخر؛ وإنّما المراد، والله أعلم، أنهم يختارون الأفعال الحسنة على الأفعال القبيحة، فيكونون، بذلك الاختيار، كأنهم قد دفعوا السّيئات بالحسنات، عكساً لرقابها، وردّاً على أعقابها؛ وقد يجوز أن يكون أيضاً معنى ذلك: أنهم يدفعون ضررَ العقوبة بعاجلة التوبة، لأنّ التوبة حسنة، والعقوبة قد تسمّى سيّئة، لأنّها جزاء على السيئة، ولأنها مضرّة وان لم تكن قبيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [الآية ٥٨].

وهذه استعارة، والمراد بها أهل القرية؛ والبَطَرُ سوء احتمال النعمة، حتى يستقلع مغارسها، ويستنزع ملابسها؛ وقد مضت الاشارة الى نظير ذلك، فيما تقدّم.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [الآية ٥٩].

وهذه استعارة، والمراد هُهنا بأمّ القرى مكّة على الأغلب؛ وقال بعضهم المراد معظمها، والمنظور إليها منها، لأنّ ما هو دونها جار مجرى التّبع لها، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام/ ٩٢ والشورى/ ٧]، يريد مكّة، وإنما سمّيت مكة أمّ القرى، لِمَا ضمّته من بيت الله، وحرمه، ومهابط وحيه، ومدارج أقدام رسله (ع)؛ فصارت من أجل ما ذكرناه، كأنها كبيرة القرى، وصارت القرى بالإضافة إليها صغاراً، كَصِغَر البنات إذا أضيفت إلى الأمهات.

وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)﴾.

وهذه استعارة؛ والكلام وارد في وصف أحوال الآخرة، لأنه سبحانه يقول أمام هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ

﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (٦٥)، ثم قال تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ [الآية ٦٦]؛ والمعنى أنهم إذا سُئِلوا في الآخرة عمّا أجابوا به أنبياءهم في الدنيا، لجلجلوا[1] المقال، وأخطأوا الجواب، ولم يعلموا ما يقولون، ولا عمّا يخبرون؛ فكأنّ الأنباء التي هي الأخبار عميت عليهم، فكانوا لا يوجّهون كلاماً إلاّ ضلّ عن طريق الحقّ، ولا يخبرون خبراً إلاّ كان قاصراً عن غرض الصّدق، كالأعمى الذي لا يهتدي لقصد، ولا يقوم على نهج، وكأنهم حادوا عن الجواب لانسداد طرق الأنباء عليهم؛ ولم يتساءلوا، فيستخبر بعضهم بعضاً عن ذلك، علماً منهم بقيام الحجّة عليهم، وعموم الخَيْرة لجميعهم؛ وقد يجوز أن يكون لقوله تعالى ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ وجه آخر، هو أن يكون ذلك على معنى قول القائل: خرِبَتْ عليّ داري، ومؤتّ عليّ إبلي. أي خربت هذه، ومؤتّ هذه، وجاءت لفظة عليّ ههنا لاختصاص الضرر بصاحب الدار والإبل؛ فيكون المعنى: أن الأخبار عميت في نفوسها، أي لم تهتد إلى صدق، ولم تنفذ في حق، وقيل عليهم لاختصاص ضرر ذلك بهم، لأنّ الحجّة لزمتهم، والاحتجاج قعد بهم. ومِثْل ذلك قوله سبحانه في هذه السورة: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الآية ٧٥]، لأنّ ضلال افترائهم في معنى عمى أنبائهم. ومن الكنايات العجيبة عن الدعاء على قوم بعمى العيون، قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، في كلام له يخاطب بعض أصحابه: «مالكم[2] لا سُددتم لرشد، ولا هُديتم لقصد»؛ فكأنه (ع)، قال لهم مالكم أعمى الله عيونكم، وقد ذكرنا هذا الكلام بتمامه، في كتابنا الموسوم (بنهج البلاغة)، وهو المشتمل على المختار من كلام أمير المؤمنين (ع)، في جميع أقسامه، ومرامي أغراضه.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [الآية ٧٦].

وهذه الاستعارة على القلب، لأن

(١) من لَجْلَج: تردّد في الكلام.

(٢) في النهج شرح الشيخ محمد عبده ج ١ ص ٢٣١ طبع مصر ما بالكم... الخ.

المراد أنّ العصبة أولي القوة تنوء بتلك المفاتح، أي تنهض بها نهضاً متثاقلاً، لكثرة أعدادها، وثقل اعتمادها؛ ولكن لما كانت هي السبب في نوء تلك العصبة بها، على التثاقل من نهضها، كانت كأنّها هي التي تنوء بالعصبة، أي تحوجها إلى النهوض، على تلك الحال من المشقّة.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [الآية ٨٨].

وهذه استعارة؛ والوجه هٰهنا عبارة عن ذات الشيء، ونفسه؛ وعلى هذا قوله تعالى في السورة التي يذكر فيها الرحمن سبحانه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]، أي ويبقى ذات ربك؛ ومن الدليل على ذلك رفع «ذو» في قوله تعالى ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴿٢٧﴾﴾: لأنه صفة للوجه، الذي هو الذات، ولو كان الوجه ههنا بمعنى العضو المخصوص، على ما ظنّه الجهال، لكان وجه الكلام أن يكون: «ويبقى وجه ربك «ذي» الجلال والاكرام»، فيكون «ذي» صفة للجملة، لا صفة للوجه الذي هو التخاطيط المخصوصة؛ كما يقول القائل: «رأيت وجه الأمير ذي الطَّوْل والإنعام»، ولا يقول ذا لأنّ الطَّوْل والإنعام من صفات جملته، لا من صفات وجهه. ويوضح ذلك قوله تعالى في هذه السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن]، لمّا كان الاسم غير المسمّى، وصف سبحانه المضاف إليه؛ ولمّا كان الوجه في الآية المتقدّمة، هو النفس والذات، قال تعالى ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ ولم يقل «ذي الجلال والإكرام»؛ ويقولون عين الشيء ونفس الشيء على هذا النحو، وقد قيل في ذلك وجه آخر، وهو أن يراد بالوجه ههنا، ما قُصد به من العمل الصالح، والمتجر الرابح، على طريق القربة وطلب الزلفة[1]. وعلى ذلك قول الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لستُ محصيه
رَبُّ العبادِ إليه الوجهُ والعملُ

أي اليه تعالى، قَصْدُ الفعل الذي يُستنزل به فضله، ودرجات عفوه؛ فأعلمنا سبحانه أنّ كل شيء هالك إلا وجه دينه، الذي يُوصَل إليه منه، ويُسْتَزلف عنده به، ويُجعل وسيلة إلى رضوانه، وسبباً لغفرانه.

(١) من زُلَف: درجة، منزلة قُرْبة.

سورة العنكبوت

٢٩

أهداف سورة «العنكبوت»(*)

سورة العنكبوت سورة مكّية، نزلت بعد سورة الروم، وآياتها ٦٩ آية. وقد نزلت سورة العنكبوت، في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين في مكّة، قبل الهجرة؛ وكانت هذه الفترة، من أقسى الفترات، ولذلك تعرّضت السورة لتثبيت المؤمنين على الإيمان، وبيان أن هناك ضريبة يدفعها المؤمن، هي الفتنة، والامتحان بالإيذاء، أو بالإغراء، أو بالوعد، أو بالوعيد.

وتناولت السورة قصص الأنبياء السابقين، وجهادهم، وبلاءهم، ثمّ إهلاك الكافرين، وانتصار المؤمنين؛ وسمّيت سورة العنكبوت بهذا الاسم، لتكرّر ذكر العنكبوت فيها في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وفي المصحف المطبوع بالقاهرة، المتداول بين الناس، نجد في عنوان السورة: سورة العنكبوت مكّيّة، إلاّ من الآية ١ إلى الآية ١١، فمدنية.

وقد رجّحت اللجنة المشرفة على طبع المصحف الرأي القائل: بأنّ الإحدى عشرة آية الأولى مدنية، وذلك لذكر الجهاد فيها... وذكر المنافقين.

وعند التأمّل يترجّح لدينا، أن السورة كلّها مكّية؛ أما تفسير الجهاد فيها، فمرجعه أنها واردة بصدد الجهاد ضدّ الفتنة، أي جهاد النفس، لتصبر ولا

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

تفتن؛ وهذا واضح في السياق؛ وكذلك ذِكْر النّفاق، فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس.

ثلاثة فصول

الخط الأساسي لسورة العنكبوت، هو الحديث عن الإيمان والفتنة، وعن تكاليف الإيمان الحقّة، التي تكشف عن معدنه في النفوس؛ فليس الايمان كلمة تقال باللسان، وإنّما هو الصبر على المكاره، والثبات في المحن.

ومع أنّ موضوع السورة، هو تكاليف الإيمان والثبات في المحنة، إلاّ أنه يمكن أن نقسّم سورة العنكبوت إلى ثلاثة عناصر، لهذا الموضوع، أو ثلاثة فصول.

الفصل الأول: من أوّل السورة إلى الآية ١٣:

يتناول هذا الفصل حقيقة الإيمان، وسُنّة الابتلاء والفتنة، ومصير المؤمنين والكافرين؛ ثم فرديّة التبعية، فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً، يوم القيامة.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

الفصل الثاني: الآيات [١٤ ـ ٤٥]:

يتناول هذا الفصل قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب (ع) وإشارة إلى قبيلة عاد وثمود؛ ويصوّر هذا القصص، ما وجد من عقبات وفتن في طريق كلّ دعوة.

ويتحدّث عن التهوين من شأن هذه العقبات، أمام قوة الإيمان، والاعتماد على قدرة الله تعالى، والمضيّ في تبليغ رسالته، وتحمّل تبعات هذه الرسالة، إحقاقاً للحق، وازهاقاً للباطل. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء/١٨].

الفصل الثالث: من الآية ٤٦ إلى آخر السورة:

يتناول هذا الفصل النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلاّ بالحسنى؛ ويتناول وحدة الدين والعقيدة والإيمان، واتحاد ذلك مع الدين الأخير، الذي يجحد به الكافرون، ويجادل فيه المشركون؛ ويختم بالتثبيت والبشرى، والطمأنينة للمجاهدين في الله، المهديين إلى سبيله.

ويتخلّل السورة، من المطلع إلى الختام، إيقاعات قويّة عميقة، حول معنى الإيمان وحقيقته، تهزّ الوجدان

هزاً. وتوقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة حازمة؛ فإمّا النهوض بها، وإمّا النكوص عنها، وإلاّ فهو النفاق الذي يفضحه الله.

القصص في سورة العنكبوت

استغرقت الآيات [١٤ ـ ٤٥] الحديث عن قَصَص الأنبياء والتعليق عليه، وبيان العظة والعبرة منه.

وبدأت بالحديث عن نوح (ع)، فقد مكث في قومه ألف سنة، إلاّ خمسين عاماً، هي مدة الرسالة؛ وجزء من حياته كان قبل الرسالة، وجزء منها كان بعد الطوفان؛ وهو عمر مديد، ولكن نتيجته محدودة، فلم يؤمن به إلاّ قليل من قومه.

ثم ثنّى بالحديث عن إبراهيم الخليل (ع)، صاحب الرسالة الكبرى، إذ دعا قومه إلى عبادة الله الخالق الرزاق، ونبذ الأوثان والأصنام؛ والتوجه إلى الله، الإله الواحد:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [الآية ٢٤].

وفي قصة لوط (ع)، يتبدّى تبجّح الرذيلة وسفورها، بلا حياء ولا تحرّج، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل، من الانحراف والشذوذ، مع الاستهتار بالنذير ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الآية ٢٩].

وفي قصّة شُعَيْب (ع) مع مدين، يتبدّى الفساد، والتمرّد على الحق والعدل، فاستحقوا عذاب الله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

وتُذكر الإشارة، إلى عاد وثمود، بالاعتزاز بالقوّة، والبطر بالنعمة؛ كما تُذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان، بطغيان المال، واستبداد الحكم، والتمرّد على أمر الله.

وفي النهاية يلقى الظالم حَتْفَهُ جزاء ظلمه؛ وقد تكرر هذا المعنى في سُوَرٍ سابقة، وتأكّد هنا، ليستقر في الأذهان، أمام المشركين والظالمين.

قال تعالى:

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وتعقّب السورة على هذا القَصَص،

بِمَثَلٍ ضَرَبَهُ، لِهَوانِ قوى الشرك والظلم؛ فالباطل مهما علا، لا مستقبل له؛ والحقّ مهما امتُحِنَ، مستقبله هنيء مريء؛ قال تعالى:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وينتهي هذا القَصَص بهوان الشرك، وعزّة الإيمان، وبيان قدرة الله تعالى، الذي يضرب الامثال، ليتّعظ بها العقلاء، وليفهمها العلماء. قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

الدرس الأخير في سورة العنكبوت

يستغرق الدرس الأخير في السورة، رُبعاً كاملاً من الآية ٤٦ إلى الآية ٦١.

والسورة بدأت، بإعلان ثِقَلِ تكاليف الإيمان، وتَعَرُّض المؤمنين للبلاء والامتحان.

ثمّ ذكرت قصص الأنبياء وبلاءهم من عهد نوح (ع).

وفي هذا الدرس الأخير، يبيّن القرآن الكريم، وحدة الرسالات في الهدف؛ فالرسالات كلّها من عهد نوح (ع) والرسل من بعده، إلى عهد محمد (ص)، دعوة واحدة، من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو إصلاح العقيدة، وتهذيب السلوك، وردّ البشرية الضالّة إلى قوانين الله العادلة؛ وأنّ المؤمنين بكل رسالةٍ، لإِخْوَةٌ للمؤمنين بسائر الرسالاتِ: كلهم أمّةٌ واحدة، تعبد إلهاً واحداً؛ وأنّ البشرية في جميع أجيالها صنفان اثنان: صنف المؤمنين وهم حزب الله، وصنف المُشاقّين وهم حزب الشيطان.

ولقد خُتم الجزء العشرون في القرآن، بآية شهيرة، تدعو إلى تلاوة الكتاب، وقراءة القرآن، وإقامة الصلاة، هي قوله تعالى:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وبدأ الجزء الحادي والعشرون، بالحديث عن هذا الكتاب، والعلاقة بينه وبين الكتب السابقة، ويأمر المسلمين، ألاّ يجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن، لبيان حكمة مجيء

الرسالة الجديدة، والكشف عمّا بينها وبين الرسالات قبلها من صلة، إلاّ الذين ظلموا منهم، وبدّلوا في كتبهم، وانحرفوا إلى الشرك؛ والشرك ظلم عظيم. ودعت الآية المؤمنين، أن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلّها، وبالكتب المنزّلة جميعها، فهي حق من عند الله يصدّق ما معهم من القرآن والإسلام. قال تعالى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٤٦) ﴾.

ثم يحذّر القرآن المشركين استعجالهم بعذاب الله، ويهدّدهم بمجيئه بغتة، ويصوّر لهم قربه منهم، وإحاطة جهنّم بهم؛ ويصف حالهم، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم؛ ثمّ يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقّون الفتنة والإيذاء في مكّة، يحضّهم على الهجرة بدينهم إلى الله، ليعبدوه وحدَهُ، يلتفت إليهم في أسلوب عجيب، يعالج كلّ هاجسةٍ تخطر في ضمائرهم، وكلّ مُعيقٍ يقعد بهم، ويقلّب قلوبهم بين أصابع الرحمن، في لمساتٍ تشهد بأن منزّل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب؛ فما يعرف مساربها ومداخلها الخفيّة إلا خالقها اللطيف الخبير، الذي تكفّل برزق كلّ دابةٍ في كلّ مكان وزمان.

وينتقل من هذا التعجّب من حال أولئك المشركين، وهم يتخبّطون في تصوّراتهم، فَيُقِرُّون لله سبحانه بخلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الموات؛ وإذا ركبوا في الفلك دعوا الله وحدَهُ مخلصين له الدين. ثمّ هم بعد ذلك يشركون بالله ويكفرون بكتابه، ويؤذون رسوله، ويفتنون المؤمنين به. ويذكّر المشركين بنعمة الله عليهم، بهذا الحرم الآمن الذي يعيشون فيه، والناس من حولهم في خوف وقلق، وهم يفترون على الله الكذب، ويشركون به آلهةً مُفْتَراةً، ويَعِدُهم على هذا جهنّم، وفيها مثوًى للكافرين.

وتُختم السورة، بوعد من الله سبحانه، بهداية المجاهدين ورعايتهم، فيقول سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٦٩)﴾.

ترابط الآيات في سورة «العنكبوت»(*)

تاريخ نزولها، ووجه تسميتها

نزلت سورة العنكبوت بعد سورة الروم، ونزلت سورة الروم في السنة التي انتصر الفُرسُ فيها عليهم، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة، فيكون نزول سورة العنكبوت في هذه السنة مثلها، وتكون من السُّوَر التي نزلت فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة.

وقد سُمِّيَت هذه السورة بهذا الاسم لورود اسم العنكبوت في قوله تعالى في [الآية ٤١] منها ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ وتبلغ آياتها تسعاً وستين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، تهوين ما يلقاه المؤمنون من العذاب في سبيل دينهم؛ وهي في ذلك تنقسم إلى قسمين: أوّلهما، في بيان الحكمة من فتنة المؤمنين في دينهم؛ وثانيهما، في بيان ما يسلكونه مع من يفتنونهم في دينهم، من المضيّ في دعوتهم، وردّ شُبهِهِم، ومن الهجرة عنهم إلى من لا يفتنهم في دينهم؛ وكانت المدينة توُشِكُ أن تفتح أبوابها لهجرتهم.

وقد جاء في السورة السابقة، أنّهم كانوا يخافون إذا آمنوا أن يتخطّفهم الناس من أرضهم، فجاءت هذه السورة بعدها، وفي أوّلها تهوين ما يلقاه المؤمنون من الفتنة في دينهم، ووعدهم بالنصر على أعدائهم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز - المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الحكمة في فتنة المؤمنين في دينهم

الآيات [١ ـ ٤٤]

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ فنهى تعالى المؤمنين، أن يظنوا أنهم يُتركونَ من غير أن يُفتَنوا في دينهم؛ وذكر سبحانه أن تلك سُنّتُهُ في كلّ من آمن قبلهم، وأنه يفعل ذلك ليتبيّن الصادق في إيمانه من الكاذب فيه؛ ثم هدّدَ الذين يفتنونهم، بأنهم لا يمكنهم أن يفلتوا من عقابه على فتنتهم؛ وذكر، أنّ لذلك أجلاً، يعلم من يرجو لقاءه أن لا يتخلّف عنه؛ ثم ذكر عزّ وجل، أنّ من جاهد ما يلقاه في دينه من الفتنة بالصبر عليه، فإنّما يجاهد لنفسه، لأنّ الذين يعملون الصالحات يُجازَوْنَ عليها بأحسن منها؛ ثمّ ذكر من الفتنة في الدّين ما كان يفعله الآباء من محاولة صرف أبنائهم عن دينهم، ووصّى الأبناء بطاعة الآباء، إلاّ في محاولة رَدِّهِمْ إلى الشرك؛ ثمّ ذكر أنّ من الناس من يؤمن بلسانه ولا يصل الإيمان إلى قلبه، فإذا فُتِنَ في دينه لم يصبر على ما يصيبه فيه، واختار الاحتراز عمّا يوقعه في الأذى، فإذا جاء نصر الله ذكر للمؤمنين أنه كان معهم، والله أعلم منه بما كان يخفيه من نفاقه؛ ثمّ ذكر من الفتنة في الدين، أنّ الكفّار كانوا يقولون لمن آمن منهم ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [الآية ١٢] يريدون، بذلك، أنه لا خطيئة في رجوعهم إلى الكفر، وأنّهُ لا معاد يحاسبون فيه على ذلك؛ وقد أجابهم سبحانه، بإثبات أن هناك معاداً يحملون فيه خطاياهم، وخطايا من حملوهم على الكفر، ويُسألون فيه عمّا يفترون، من إنكار المعاد والحساب.

ثمّ انتقل جلّ وعلا إلى ذكر من فُتِنُوا قبلهم من المؤمنين، فصبروا، فنصرهم الله على من فتنوهم؛ فذكر أنه أرسل نوحاً (ع) إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ثمّ أخذهم بالطوفان، ونجّاه ومن آمن به؛ وأنّ إبراهيم (ع)، أمر قومه أن يعبدوا الله ويتّقوه، وبيّن لهم فساد ما يعبدونه من الأوثان، إلى غير هذا ممّا ذكره في دعوتهم؛ ثم ذكر سبحانه أنّ جوابهم له، كان أن أمروا بقتله أو تحريقه، فنجّاه الله من النار التي ألقوه فيها، وكان في ذلك دلالة على قدرته تعالى؛

وقد سجّل عليهم به أنّهم يتّخذون من دونه أوثاناً يقلّد فيها بعضهم بعضاً، ويوم القيامة يتبرّأ بعضهم من بعض ويكون مأواهم النار فلا ينجّونهم منها؛ ثم ذكر إيمان لوطٍ (ع) بدعوة ابراهيم (ع)، وهجرته معه من بلاد قومه؛ وأنه سبحانه وهب لإبراهيم (ع) إسحاق ويعقوب (ع)، وجعل في ذرّيّته النبوة والكتاب؛ ثم ذكر لُوطاً (ع)، وتوبيخه قومه على ما يأتونه من الفاحشة التي لم يسبقهم أحد إليها، إلى غير هذا ممّا سبق في قصّته؛ ثم ذكر شُعَيْباً (ع) وما جرى له مع أهل مَدْيَنَ؛ وذكرَ عاداً وثَمودَ وقارُونَ وفرعونَ وهامانَ وما فعله بهم، وأنه لم يظلمهم بذلك، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم؛ ثم ضرب مثلاً لظلمهم لأنفسهم بشركهم؛ فذكر أنهم في اتّخاذهم آلهة من دونه، لا تنفعهم في دنياهم وأُخراهم، كالعنكبوت التي تتّخذ لها بيتاً هو أوهن البيوت؛ فما يدعونه من دونه ليس بشيءٍ أصلاً؛ ثم ذكر أنّه يضرب لهم هذا المَثَلَ وغيره من الأمثال، وما يعقلها إلا العالِمُونَ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ما يفعلونه في فتنتهم في دينهم الآيات [٤٥ ـ ٦٩]

ثم قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾. فأمر النبي (ص) أن يتلو ما أوحي إليه من أخبار من فُتِنوا قبله في دينهم، ليكون له سلوةٌ وأسوةٌ بهم؛ وأن يثابر على إقامة الصلاة ومداومة ذكره، لأنّ الصلاة تُصلح من نفوسهم، وتعطيهم قُوّةً على احتمال ما يُفْتَنون به؛ ثمّ ذكر لهم آداب المجادلة على من يحاول أن يفتنهم بها في دينهم، فأمرهم سبحانه أن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وأن يذكروا لهم أنّهم يؤمنون بالكتب المنزّلة كلّها، ويؤمنون بالإله الذي يؤمنون به؛ ثمّ ذكر أنّ من أهل الكتاب من يؤمن بالقرآن، كما يؤمن بتلك الكتب، ومن المشركين من يؤمن به أيضاً، وما يجحد به إلاّ المعاندون منهم، وذكر ما يثبت تنزيله من أمّية النبي (ص)؛ ثم أورد، من شبهاتهم عليه، اقتراحهم أن تنزل عليه آيات أخرى، مثل الآيات التي أنزلت على الأنبياء السابقين؛ وردّ عليهم، بأنه

سبحانه هو الذي ينزّل تلك الآيات كما يشاء، وليس النبي إلاّ نذيراً لهم، ولا يملك أن يقترح على الله شيئاً؛ وبأنّ في إنزال القرآن عليه، وهو أمّيّ، ما يكفيهم في الإيمان به؛ ولو تأمّلوا لعلموا أنّ آيته خير من آيات العذاب التي يقترحونها، لما فيها من الرحمة والذكرى لهم؛ ثمّ ذكر سبحانه أنهم يستعجلونه بالعذاب بما يقترحونه من تلك الآيات، ولولا أنه جعل له أجلا مُسَمًّى لجاءهم. إلى غير هذه ممّا ذكره في الردّ على استعجالهم.

ثمّ أرشدهم إلى الهجرة بدينهم، فراراً ممنّ يفتنهم؛ فذكر لهم أن أرضه (تبارك اسمه) واسعة، فإذا تعذّرت عبادته في أرض، فليهاجروا إلى غيرها، ولا يتركوا عبادته بحال من الاحوال؛ وهوّن عليهم ذلك، بأنّهم لا بدّ لهم من مفارقة أحبابهم بالموت، فليكن ذلك في سبيل الله، ليجازيهم عليه عند رجوعهم إليه، ويكافئهم على ما عملوا من صالحات، وما صبروا عليه من فتنة وأذًى، ثمّ هوّن عليهم ذلك أيضاً، بأنّه هو المتكفّل برزق كلّ دابّةٍ في الأرض، وبرزقهم؛ فلا يفوتهم شيء من رزقهم بهجرتهم.

ثمّ ختم السورة، بتهديد أولئك الذين يفتنونهم، كما هدّدهم في أوّلها، فذكرلهم أنّهم لا يمكنهم أن ينكروا، أنه سبحانه هو خالق السماوات والأرض، ومسخّر الشمس والقمر، فلا يمكنهم أن يفلتوا من عقابه؛ وذكر لهم أنّه هو الذي يَبْسُطُ الرزق لمن يشاء ويَقْدِرُ، ليَبتلي بذلك عباده، فلا يصحّ أن يغترّوا بما بسط لهم من الرزق؛ وذكر لهم أنه هو الذي ينزل الماء من السماء فيحيي به الأرض بعد موتها، ليعلموا أنه هو الذي يرزقهم؛ ثم ذكر لهم أنّ ما يغترّون به من هذه الحياة، وبَسْطةِ أرزاقهم فيها، إنّما هما لَهْوٌ وَلَعِبٌ، وأنّ الآخرة هي الحياة التي يُعتَدُّ بها، وأيّد ذلك بما يحصل لهم حينما يركبون الفُلك في البحر، فإنهم يَنْسَونَ الدنيا وزخارفها، ويتوجّهون إليه سبحانه بالدعاء وحده؛ فإذا نجّاهم إلى البرّ، رجعوا إلى ما كانوا عليه من حبّ الدنيا، فأشركوا به؛ ثم أمرهم أمرَ تهديدٍ، أن يقابلوا ما بَسط لهم من الرزق بالكفر، فسوف يعلمون ما أُعِدَّ لهم من العذاب على كفرهم؛ وذكر أنهم لا يمكنهم أن ينكروا أنه هو الذي أسكنهم في ذلك الحَرَمِ الآمن، فبسط لهم من الرزق مالم يبسطه لغيرهم،

ممّن يُتَخَطّفُ من حولهم؛ وأنكر عليهم بعد ذلك أن يؤمنوا، بما هم فيه من الباطل، ويكفروا بنعمته عليهم بذلك الحرم، ثمّ أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به، ووعد المؤمنين، فقال جلّ شأنه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾.

أسرار ترتيب سورة «العنكبوت»(*)

أقول: ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها: أنه تعالى، لما أخبر في أول السورة السابقة، عن فرعون أنه: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص/٤]، افتتح هذه السورة، بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفّار، وعذّبوهم على الإيمان، بعذاب دون ما عَذّب به قومُ فرعون بني إسرائيل، تسليةً لهم، بما وقع لمن قبلهم، وحثّاً لهم على الصبر؛ ولذلك قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية ٣]. وهذه أيضاً من حكم تأخير سورة العنكبوت على (طسم).

وأيضاً، فلمّا كان في خاتمة «القصص» إشارة إلى هجرة النبي (ص)[1]، وفي خاتمة هذه الإشارة إشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ [الآية ٥٦]، ناسب تتاليهما.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص/ ٨٥]. والمعنى: لرادّك إلى مكّة، كما في البخاري. ٦/ ١٤٢. أي: كما خرجت منها. وبه قال ابن عبّاس، ويحيى بن الجزّار، وسعيد بن جبير والضحّاك، واختاره ابن جرير (تفسير الطبري. ٢٠/ ٨٠).

مكنونات سورة «العنكبوت»(*)

١ ـ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ [الآية ٢].

هم المُؤْذَوْن على الإسلام في مكّة، منهم عمّار بنُ ياسِر[(١)].

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ [الآية ١٢] قائل ذلك: الوليد بن المغيرة. حكاه المَهْدَوي[(٢)].

٣ ـ ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الآيتان ٣١ و٣٤].

هي سَدُوم.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِماتِ الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) كما جاء في آثار أخرجها الطَّبري ٢٠/٨٣، وابن أبي حاتم. انظر «الدر المنثور» ٥/١٤١.

(٢) وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنّف»، وابن المنذر عن ابن الحنفيّة رضي الله عنه قال: كان أبو جهل، وصناديد قريش، يتلقّون الناس إذا جاؤوا إلى النبي (ص)، يسلمون، يقولون: إنه يحرّم الخمر، ويحرّم الزنا، ويحرّم ما كانت تصنع العرب، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم؛ فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [الآية ١٣] «الدر المنثور» ٥/١٤٢. وانظر «تفسير الطبري» ٢٠/٨٦.

لغة التنزيل في سورة «العنكبوت»[*]

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الآية ٧].

وتكفير السّيئات، يعني إسقاط عقابها بثواب الحسنات.

أقول: ولعل استعمال التضعيف في الفعل فيه شيء من معنى السّلْب، كقولنا: مَرَّض الطبيب المريض، أي: شفاه: فأزال مَرَضه.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [الآية ٢٩].

والنادي: مجتمع القوم ومَجْلِسُهُمْ، ولا يسمّى نادياً حتى يكون فيه أهله.

أقول: وقد عاش النادي طَوَال العصور حتى أمسكنا به في عصرنا، فذهب «النَدِّي»، وانصرفت «الندوة» إلى شيء آخر، فهي المجلس الخاص، المقيّد بزمن معيّن، كما في «ندوات أهل الحكم»[1]. ومثل هذه النَدَوات المُنتَدى الذي لم يبق له مكان كبير في الاستعمال المعاصر.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الآية ٣٤].

الرِّجْز والرِّجْس العذاب، وإن كان في مجيء الكلمة بالسين دلالات أخرى، وهذا من فوائد الإبدال في العربية.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [الآية ٣٨].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) وكان في مكّة، في عصر النبوّة وقبله، دار الندوة، وهي نادٍ يجتمع فيه أهل مكة.

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾، يعني عقلاء، تمكّنوا من النظر والفكر.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا﴾ فيه إشارة إلى ما تقدم في الآية، ومعناه: لوكان شيء من ذلك، أي: من التلاوة والخطّ ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أقول: وهذا ضرب من الإيجاز الجميل.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الآية ٦٤].

أي: ليس فيها إلاّ حياة مستمرة، دائمة، خالدة، لا موت فيها، فكأنّها في ذاتها حياة. و«الحَيَوان» مصدر «حيي»، وكان ينبغي أن يكون القياس حَيَيان، فقلبت الثانية واواً خلافاً للقياس كما قالوا: حَيْوَة في اسم رجل.

المعاني اللغوية في سورة «العنكبوت»(*)

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [الآية ٨]، على «وَوَصَّيْنَاهُ حُسناً» وقد يقول الرجل: «وَصَّيْتُهُ خَيْراً» أي: بِخَيْرٍ.

وقال تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [الآية ١٢]، على الأمر[1]: كأنهم أمروا أنفسهم.

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ﴾ [الآية ١٩] وقال: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [الآية ٢٠]، فهما لغتان تقول: «بَدَأَ الخَلْقَ» و «أَبْدَأَ».

وقال تعالى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية ٢٢]، أي: لا تُعَجِّزُونَنَا هَرَباً في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ.

وقال تعالى ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [الآية ٣٣]. فالأوّل كان في معنى التنوين لأنه لم يقع، ولذلك انتصب الثاني على هذا التقدير[2].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في زاد المسير ٦/ ٢٦٠.

(٢) نقله في البحر ٧/ ١٥١، والبيان ٢/ ٢٤٤، والإملاء ٢/ ١٨٣.

لكل سؤال جواب في سورة «العنكبوت»(*)

إن قيل: قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الآية ١٢] ثم قال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [الآية ١٣]؟

قلنا: معناه: وما الكافرون بحاملين شيئاً من خطايا المؤمنين، التي ضَمِنُوا حَمْلَها، ولَيَحْمِلُنّ الكافرون أثقال أنفسهم، وهي ذنوب ضلالهم، وأثقالا مع أثقالهم، وهي ذنوب إضلالهم غَيْرَهم من الكفار، لا خطايا المؤمنين التي نَفَى سبحانه عنهم حملها؛ وقد سبق نظير هذا في قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام/ ١٦٤].

فإن قيل: ما الحكمة في العُدول عن القول «تسعمائة وخمسين عاماً» إلى قوله سبحانه ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [الآية ١٤] مع أن عادة أهل الحساب هي اللفظ الأول؟

قلنا: لما كانت القصة مَسُوقة، لتسلية النبي (ص) بذكر ما ابتُلِيَ به نوح عليه السلام، من أمته، وكابده من طول مصابرتهم، كان ذكر أقصى العدد، الذي لا عَقْد أكثر منه في مراتب العدد، أفخم وأعظم إلى الغرض المقصود، وهو استطالة السامع مدة صبره. وفيه فائدة أخرى، وهي نفي وهم إرادة المجاز، بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها، فإنّ هذا الوهم هو مع ذكر الألف، والاستثناء منتفٍ، أو هو أبعد.

فإن قيل: لِمَ جاء المميَّز أولاً بلفظ «السنة» والثاني بلفظ «العام»؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

قلنا: لأن تكرار اللفظ الواحد، مجتنب في مذهب الفصحاء والبلغاء، إلاّ أن يكون لغرض تفخيم، أو تهويل، أو تنويه، أو نحو ذلك.

فإن قيل: لِمَ نكَّرَ الرزق ثم عرَّفه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [الآية ١٧]؟

قلنا: لأنّه سبحانه أراد أنهم لا يستطيعون أن يَرْزقوكم شيئاً من الرزق، فابْتَغُوا عند الله الرزق كلّه، فإنه هو الرازق وحده لا يَرْزُق غيره.

فإن قيل: لِمَ أضمر اسمه تعالى في قوله عز وجل ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [الآية ٢٠]، ثمّ أظهره في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الآية ٢٠]، وكان القياس «كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة»؟

قلنا: إنّما عدل، سبحانه، إلى ما ذُكر، لتأكيد الإخبار عن الإعادة التي كانت هي المُنكرة عندهم، بالإفصاح باسمه تعالى في ذكرها، وجَعْلِه مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها؟

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية ٢٧]، في معرض المدح أو في معرض الامتنان عليه، وأجْرُ الدنيا فانٍ منقطع، بخلاف أجر الآخرة فإنه النعيم المقيم الباقي، فكان الأولى بالذكر؟

قلنا: المراد به: وآتيناه أجره في الدنيا، مضموماً إلى أجره في الآخرة، من غير أن يَنْقُص من أجر الآخرة شيء. قال ابن جرير: وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية ٢٧]، يعني له في الآخرة جزاء الصالحين وافياً وكاملاً، وأجره في الدنيا. قيل: هو الثناء الحسن من الناس، والمحبّة من أهل الأديان. وقيل: هي البركة التي بارك الله فيه، وفي ذرّيته.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الآية ٣١]، يعني مدينة قوم لوط (ع)، ولم يقل «تلك القرية»، مع أن مدينة قوم لوط كانت بعيدةً عن موضع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، غائبةً عند وقت هذا الخطاب؟

قلنا: إنّما قال سبحانه: ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم، وإن كانت بعيدة بالنسبة

إلى إبراهيم (ع).

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الآية ٣٤] ولم يقل: أهل هذه القرى؟ مع أن مدائن قوم لوط كانت خمساً، فأهلكوا منها أربعاً؟

قلنا: انّما اقتصر سبحانه في الذِّكر على قرية واحدة، لأنها كانت أكبر وأقرب، وهي سَدُوم مدينة لوط (ع)، فجُعِلَ ما وراءها تَبَعاً لها في الذكر.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [الآية ٣٨]، أي ذوي بصائر؟ يقال: فلان مستبصر، إذا كان عاقلاً لبيباً صحيح النظر. ولو كانوا كذلك، لما عَدَلُوا عن طريق الهدى، إلى طريق الضلال؟

قلنا: معناه: وكانوا مستبصرين في أمور الدنيا، وقيل معناه: وكانوا عارفين الحق بوضوح الحجج والدلائل، ولكنهم كانوا يُنْكرونه متابعة للهوى، لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل/ ١٤]. وقيل: معناه: وكانوا مستبصرين لو نظروا نظر تَدَبُّر وتفكّر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الآية ٤١]، وكل أحد يعلم أن أضعف بيوت يتخذها الهوامّ بيت العنكبوت؟

قلنا: معناه لو كانوا يعلمون، أنّ اتخاذهم الأصنام أولياء من دون الله، مِثْلَ اتخاذ العنكبوت بيتاً، لَمَا اتّخذوها.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [الآية ٤٦]، وأهل الكتاب كلهم ظالمون لأنهم كافرون، ولا ظلم أشدّ من الكفر، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة/ ٢٥٤]؟

قلنا: أوّلاً المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عَقْد الذّمّة، وأداء الجزية، أو نقض العهد بعد قبوله. ثانياً: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة/ ٢٩].

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [الآية ٤٨]؟

قلنا: الحكمة فيه تأكيد لنفي، كما يقال في الإثبات للتأكيد: هذا الكتاب

ممّا كتبه فلان بيده وبيمينه، ورأيت فلانا بعيني، وسمعت هذا الحديث بأذني، ونحو ذلك.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يؤكّد سبحانه وتعالى في التلاوة، ولم يقل: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب بلسانك»؟

قلنا: الأصل في الكلام عدم الزيادة، وكلّ ما جاء على الأصل لا يحتاج إلى العلّة، إنما يحتاج إلى العلة ما جاء على خلاف الأصل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [الآية ٦٩]، ومعلوم أنّ المجاهدة في دين الله تعالى، أو في حقّ الله تعالى، مع النفس الأمّارة بالسوء، أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين، ذلك كله إنّما يكون بعد تقدّم الهداية من الله تعالى، فَلِمَ جُعِلَت الهداية من ثمرات المجاهدة؟

قلنا: معناه: والذين جاهدوا في طلب التعلّم، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، بمعرفة الأحكام وحقائقها. وقيل معناه: لنهدينّهم طريق الجنة. وقيل معناه: والذين جاهدوا لتحصيل درجة لنهدينّهم إلى درجة أخرى أعلى منها، وحاصِلُهُ لَنَزيدنّهم هدايةً وتوفيقاً للخيرات، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد/١٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم/٧٦]. وقال أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه: معناه: والذين جاهدوا فيما علموا، لَنَهْدينّهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعض الحكماء: من عمل بما علم، وُفّق لِمَا لا يعلم. وقيل: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم، هو من تقصيرنا فيما نعلم.

المعاني المجازية في سورة «العنكبوت»(*)

قوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾.

وهذه استعارة لأن لقاء الله سبحانه على الحقيقة، لا يصحّ، وإنما المراد لقاء حسابه، ولقاء جزائه وثوابه، أو لقاء الوقت، الذي جعله سبحانه وقت توفية الجزاء، على أعمال العاملين، وتوفير الأعواض على المعوّضين، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة]. وكلّ ما ورد في القرآن من ذكر لقاء الله تعالى، فالمراد به المعنى الذي ذكرناه والله أعلم؛ ومن كلام العرب: لقينا خيراً ولقينا شرّاً، وليس شيء من ذلك ممّا يُرى بعين، ولا يواجه بوجه، وإنّما المراد أصابنا هذا، وأصابنا هذا.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [الآية ١٧].

وهذه استعارة، والمراد أنّكم خلقتم من الأصنام صُوَراً، أي قدّرتموها على اختياراتكم؛ وأصل الخلق التقدير، ثمّ جعلتموها آلهة تعبدونها؛ والإله المعبود، إنّما هو الخالق لا المخلوق، والصانع لا المصنوع؛ فكأنّه سبحانه قال: إنّكم جعلتم كذباً من الإله تعبدونه من دون الله، والإفك هٰهنا هو الكذب، وقال بعضهم معنى تخلقون إفكاً أي تصنعون الكذب، على مواقع

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

إرادتكم، وتضعونه مواضع شهواتكم.

قوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [الآية ٤٥].

وهذه استعارة؛ والمراد بها، أنّ الصلاة لطف في الامتناع عن المعاصي، فأقيمت مقام الزاجر الناهي، لأن فيها من ذكر الله تعالى، وتلاوة كلامه، وما فيه من بشائر ثوابه، ونذائر عقابه، ما هو أدعى الدواعي إلى الطاعات، وأقوى الصوارف عن المقبّحات.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾.

وهذه استعارة؛ والحَيَوان هٰهنا مصدر كالحياة؛ والدار التي هي دار الآخرة، لا يجوز وصفها على الحقيقة بأنها حياة؛ وإنما المراد أن الخلق يحيون فيها حياة دائمة، لا موت بعدها ولا انفصال لها؛ فلما كانت الحياة الدائمة فيها، حَسُنَ أن توصف بها على طريق المبالغة، لأن الصفات بالمصادر تفيد المبالغة في معاني تلك الأشياء الموصوفة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [الآية ٦٧].

وهي في معنى الاستعارة التي تقدّمتها على حدّ سواء، لأنّ الحرم لا يصح وصفه بالأمن على الحقيقة، وإنما يأمن الناس فيه؛ فلاِتّصال هذه الحال ودوامها، واختصاص الحرم بين المواضع بها، حَسُنَ أن يوصف بالأمن على طريق المبالغة، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن الكريم .

الفهـــرس

سورة «الحج»

المبحث الأول

أهداف سورة «الحج» ٣

سمات القوة ٤

أقسام السورة وأفكارها ٥

القسم الأول ٥

القسم الثاني ٦

القسم الثالث ٦

القسم الرابع ٦

حكمة التسمية ٧

مقصود السورة اجمالاً ٧

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الحج» ٩

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٩

الغرض منها وترتيبها ٩

بيان أهوال يوم القيامة ١٠

الإذن في القتال ١١

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الحج» ـــــــ ١٥

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الحج» ـــــــ ١٧

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الحج» ـــــــ ١٩

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الحج» ـــــــ ٢٥

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الحج» ـــــــ ٢٩

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الحج» ـــــــ ٣٥

سورة «المؤمنون»

المبحث الأول

أهداف سورة «المؤمنون» ـــــــ ٤١

المؤمنون والايمان ـــــــ ٤١

الأقسام الرئيسية في السورة ـــــــ ٤٢

القسم الأول ـــــــ ٤٢

القسم الثاني ـــــــ ٤٢

القسم الثالث ـــــــ ٤٣

القسم الرابع ـــــــ ٤٣

مظاهر عامة للسورة ـــــــ ٤٤

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «المؤمنون» ٤٥

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٤٥

الغرض منها وترتيبها ٤٥

بيان شروط فَلاّح المؤمنين ٤٥

أخبار بعض الرسل ٤٦

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «المؤمنون» ٥١

المبحث الرابع

مكنونات سورة «المؤمنون» ٥٣

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «المؤمنون» ٥٥

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «المؤمنون» ٦١

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «المؤمنون» ٦٣

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «المؤمنون» ٦٥

سورة «النور»

المبحث الأول

أهداف سورة «النور» ٧١

روح السورة ٧١

فقرات السورة ٧٢
الفقرة الأولى ٧٢
الفقرة الثانية ٧٢
الفقرة الثالثة ٧٣
الفقرة الرابعة ٧٣
الفقرة الخامسة ٧٣
أثر السورة في حفظ المجتمع ٧٣
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «النور» ٧٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٧٥
الغرض منها وترتيبها ٧٥
حكم الزِّنَا ٧٥
حكم القذف ٧٦
حكم دخول البيوت ٧٧
حكم النظر ٧٧
أحكام أخرى ٧٧
حكم دخول البيوت للغلمان ونحوهم ٧٨
حكم الاجتماع في بيوت الندوة ٧٩
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «النور» ٨١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «النور» ٨٣
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «النور» ٨٥

المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «النور» ٩١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «النور» ٩٣
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «النور» ٩٩

سورة «الفرقان»

المبحث الأول
أهداف سورة «الفرقان» ١٠٥
سورة تشد أزر الرسول ١٠٥
موضوعات السورة ١٠٨
الموضوع الأول ١٠٨
الموضوع الثاني ١٠٩
الموضوع الثالث ١٠٩
الموضوع الرابع ١١٠
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الفرقان» ١١١
تاريخ نزولها وَوَجْهُ تَسْميتها ١١١
الغرض منها وترتيبها ١١١
تنزيل القرآن للإنذار ١١٢
عَمَايَةُ الكفار عن الإنذار ١١٣
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الفرقان» ١١٥

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الفرقان» ١١٧

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الفرقان» ١١٩

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «الفرقان» ١٢٣

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «الفرقان» ١٢٥

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «الفرقان» ١٢٩

سورة «الشعراء»

المبحث الأول

أهداف سورة «الشعراء» ١٣٧

موضوع السورة ١٣٧

القَصَص في سورة الشعراء ١٣٨

قصة ابراهيم ١٣٨

قصة نوح ١٣٩

قصة هود ١٣٩

قصة ثمود ١٤٠

قصة لوط ١٤٠

أصحاب الأيكة ١٤١

في أعقاب القَصَص ١٤١

المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٤٣
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــــــــــــــــــــ ١٤٣
الغرض منها وترتيبها ـــــــــــــــــــــــ ١٤٣
التنويه بشأن القرآن ـــــــــــــــــــــــ ١٤٣
إثبات تنزيل القرآن ـــــــــــــــــــــــ ١٤٤
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٤٧
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٤٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٥١
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٥٥
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٥٩
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الشعراء» ـــــــــــــــــــــــ ١٦٥

سورة «النمل»

المبحث الأول
أهداف سورة «النمل» ـــــــــــــــــــــــ ١٧١
نظام السورة ـــــــــــــــــــــــ ١٧١

موضوع السورة ــــــــ ١٧١
القصص في سورة النمل ــــــــ ١٧٢
قصة داود وبلقيس ــــــــ ١٧٢
قصة بلقيس ــــــــ ١٧٢
قصة صالح ولوط عليهما السلام ــــــــ ١٧٣
أدلة القرآن على وجود الله ــــــــ ١٧٤
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «النمل» ــــــــ ١٧٧
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ــــــــ ١٧٧
الغرض منها وترتيبها ــــــــ ١٧٧
التنويه بشأن القرآن ــــــــ ١٧٧
الترغيب والترهيب بقصص الأنبياء والصالحين ــــــــ ١٧٨
التنويه بهذه القصص وأصحابها ــــــــ ١٧٩
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «النمل» ــــــــ ١٨١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «النمل» ــــــــ ١٨٣
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «النمل» ــــــــ ١٨٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «النمل» ــــــــ ١٩١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «النمل» ــــــــ ١٩٥

المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «النمل» ٢٠٣

سورة «القصص»

المبحث الأول
أهداف سورة «القصص» ٢٠٩
قصة موسى ٢٠٩
موسى في سنّ الرجولة ٢١٠
موسى مع فرعون ٢١١
الحلقة الجديدة في القصة ٢١١
قارون ٢١٢
أهداف السورة ٢١٢
ختام السورة ٢١٣
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «القصص» ٢١٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢١٥
الغرض منها وترتيبها ٢١٥
التنويه بشأن القرآن ٢١٥
إثبات تنزيل القرآن ٢١٧
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «القصص» ٢٢١
المبحث الرابع
مكنونات سورة «القصص» ٢٢٣

المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «القصص» ٢٢٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «القصص» ٢٣١
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «القصص» ٢٣٥
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «القصص» ٢٣٩

سورة «العنكبوت»

المبحث الأول
أهداف سورة «العنكبوت» ٢٤٧
ثلاثة فصول ٢٤٨
القصص في سورة العنكبوت ٢٤٩
الدرس الأخير في سورة العنكبوت ٢٥٠
تاريخ نزولها، ووجه تسميتها ٢٥٣
الغرض منها وترتيبها ٢٥٣
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «العنكبوت» ٢٥٣
الحكمة في فتنة المؤمنين في دينهم ٢٥٤
ما يفعلونه في فتنتهم في دينهم ٢٥٥
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «العنكبوت» ٢٥٩

المبحث الرابع
مكنونات سورة «العنكبوت» ٢٦١
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «العنكبوت» ٢٦٣
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «العنكبوت» ٢٦٥
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «العنكبوت» ٢٦٧
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «العنكبوت» ٢٧١